مجلة فصلية يصدرها مجمع اللغة العربية بالشارقة

العربيّة لساني

السنة الثالثة - العدد السابع - نوفمبر ٢٠٢١م

مجامع اللّغة العربيّة إلى أين؟

اللُّغةُ العَرَبيّةُ وقدرتُها على تَعريبِ التِّقنيّةِ

مِنْ لَطائفِ الأَدَبِ فِي الإِعْرابِ عِنْدَ النُّحاةِ

حَديثُ العُيونِ في شِعرِ العُميانِ

صُورةُ البَطلِ عِنْدَ أبي تَمّام والمُتَنبِّي

اتِّجاهاتٌ حَديثَةٌ في صِناعَةِ المَعاجِمِ اللُّغَوِيَّةِ

نسخة بي دي إف (PDF)

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

التّرشّح لـ :

جائزة الألكسو.الشارقة للدراسات اللغوية والمعجمية

الدّورة الخامسة 2021-2022

وهبت نفسي للغة العربية

صاحب السموّ الشيخ الدكتور

سلطان بن محمد القاسمي

عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة - الرئيس الأعلى لمجمع اللغة العربية بالشارقة

العربيّة لساني

مجلة أدبيّة لغوية تصدر عن

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

السنة الثالثة - العدد السابع - نوفمبر ٢٠٢١ م

رئيس التحرير

د. امحمد صافي المستغانمي

أعضاء التحرير

د. مصطفى رابح بن عاشور

أ.د. بن عيسى باطاهر

د. فكري النجار

منسق العلاقات العامة

أ. ماجد الهولي

التصميم والإخراج

محمد خيَّال

المراسلات

هاتف: 400 60 51 6 971+

فاكس: 410 60 51 6 971+

ص.ب: الشارقة، 1973

البريد الإلكتروني: info@alashj.ae

الموقع الإلكتروني: www.alashj.ae

المحتويات

افتتاحية العدد ٦

سلطان القاسميّ يفتتح مكتبة مجمع اللغة العربية بالشارقة ١٠

إبْـراهيـم صَبْـري ومُعارَضاتُه الشِّعْريَّة ١٤

إمام العربية في عصره (جمال الدين بن هشام) ٢٠

اتّجـاهَاتٌ حـديثـةٌ في صِناعَة المَعاجِم اللُّغَوِيَّة ٢٤

اضْطِرابُ المُصْطلَح النَّحـويّ ٢٨

العَرَبـيَّـةُ لُـغـةُ الفـطـرة ٣٤

اللُّـغـةُ العَـرَبيّةُ وقدرتُها على تعريب التّقنيَة ٤٠

حَوْلَ أصالَة ومَتانَة اللُّغَة العَـرَبيَّة ٤٤

حَولَ مَوسُوعَة الوَقْف والابْتداء في القُرآن الكَريم ٤٨

طرائف عَربيّة ٥٢

كـلامُ العَـرَب (شُروطُ الفَهْم وضَوابطُ التَّأويل) ٥٨

أثـرُ اختـلاف اللَّهجَـات في التّوجيه النّقدي ٦٢

المحتويات

اللغة العربية ... والآخر ٦٤

المُهَيِّئاتُ العلميّةُ لتقنينة اللّغة العَرَبيّة حاسُوبيًا ٦٨

كَيفَ نُحَقِّقُ الجَوانبَ الجَمَاليةَ في اللُّغَة العَرَبيَّة ٧٢

صُورةُ البَطلِ عِنْدَ أبي تَمَام والمُتَنبِّي ٧٦

مجامع اللّغة العربيّة... إلى أين؟ ٨٢

مِنْ لَطائف الأدَبِ في الإعْرابِ عِنْدَ النُّحاة ٨٨

فَعّالٌ لِما يُريد ٩٤

وَسائلُ التَّعريف البِنيَويّ المُعْجَميّ ٩٦

التَّزْفِين عند العرب ١٠٢

هنيئاً لسُلطان العروبة ١٠٨

حَديثُ العُيون في شِعر العُميان ١١٠

خَيْـرُ الـوَرَى ١١٨

الشّاعـرُ المتمـرِّد والحاكم المستبدُّ ١٢٠

لَنَا عَنْ كُلِّ خِلٍّ ألفُ بِدْلِ ١٢٦

غلاف العدد

السنة الثالثة - العدد السابع - نوفمبر ٢٠٢١ م

مجلة فصليّة يصدرها مجمع اللغة العربية بالشارقة

مجلة أدبية لغوية تعنى بقضايا اللغة العربية وآدابها

لمشاركاتكم ومقترحاتكم يرجى التواصل على البريد الإلكتروني amal.a@alashj.ae

لزيارة موقع مجمع اللغة العربية بالشارقة امسح رمز الاستجابة السريع بكاميرا الهاتف

اللغـــة العـــربيّـــة
فـــي عصـــر العـالـــم الافـتـراضـي

لا يختلف اثنان أنّ اللغة العربيّة عميقة الجذور في التّاريخ، ضاربةٌ عروقُها في أعماق الزّمن. هي لغةٌ لا تُعرَفُ لها مرحلةُ فُتوّة، ولا مرحلةُ شباب، وإنّما وصلت إلينا مكتملةً، وهذه ظاهرةٌ نادرةٌ بين اللّغات. دليلُ ذلك أنّ القصيدة التي أنشدها امرؤ القيس (ت ٨٤ ق ه / ٥٦٥ م) في فترة ما قبل الإسلام يهتزّ لها القارئ باللغة العربيّة ومتعلّمُها في القرن الواحد والعشرين. دارسُ اللغة العربيّة اليوم ومُتعلّمُها من أبنائها أو من النّاطقين بغيرها من اللّغات العالميّة، يفهمُ ما تغنّى به طرفة بن العبد والمهلهل وامرؤ القيس وعنترة بن شدّاد وزهير بن أبي سلمى وأضرابهم في الزّمان الأوّل.

د. امحمد صافي المستغانمي
الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالشارقة

لا أقول يفهم ألفاظ أشعارهم وجُمَلَها وأبنيتها فحسب، وإنّما يفهم المعاني والدّلالات، وينتشي بالجمال الأسلوبيّ الذي كان يهتزّ له العربيّ في صحراء الجزيرة يومها، ويقف عند التّقنيّات الأسلوبيّة الرّائعة والصّور البديعة التي يطرب لها القدماء. يقرأ أحدنا اليوم قول امرئ القيس:

وليلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخى سُدولَه
عَليَّ بِأنْواعِ الهُمومِ لِيَبْتلي

فتشدُّهُ هذه الصّورة البيانيّة الجميلة التي رسمها امرؤ القيس لِلَّيل حين شبّهه بأمواج البحر المتلاطمة واصفًا هُمومَهُ وليلَهُ الطّويل قائلا: ألقى الليلُ أستارَهُ وأسجافَهُ على الدّنيا، ولفّها بعباءته السّوداء، وأرخى ظلماته الكثيفة المُغطِشة على جوانبها كأمواج البحر، وهذا ممّا زاد في أرَقي وهمّي وجعل شريط الهموم والذّكريات يتوالى في ذهني، وتتابعت في خاطري كثيرٌ من الصّور المؤلمة وكأنّما الطّبيعة هي الأخرى تُشارك في ابتلائي وامتحاني.

هذه الصّورة البديعة كما جادت بها قريحةُ الشاعر الضِّلّيل في منتصف القرن السّادس الميلادي، يقرأها كلُّ متعلّم للغة العربيّة اليوم فيجِدُ لها طعما جميلا وذَوْقا بديعا، ويهتزُّ لها وجدانُه، ويتفاعلُ مع ألفاظها والموسيقا التي يُحدثها توالي ألفاظها وتناغم أنساقها التّعبيريّة الجميلة البهيّة. هذا ما نعنيه من وصول اللّغة العربيّة إلينا مُكتملةَ البنيان، مُحكمةَ القواعد، مُهذّبةَ الألفاظ، مُميّزةَ الأبنية، مَصْقولةَ الجُمل، مَحْبوكةَ العبارات، يجد فيها المتحدّث بها اليوم القدرة نفسها على الإبداع، والحلاوة ذاتها على التّعبير والإبانة والتّبيين.

من ناحية أخرى، العربيّةُ وإن كانت أرومَتُها من شجرة اللغات السّاميّة إلا أنّ أخواتها السّاميات مَرَرْنَ بمراحل ومحطّات متنوّعة، واندثرت بعضٌ منها أحيانا، وأحْياها أبناؤها في أحايين أخرى، وبعضها الآن يُتَحَدّثُ بها باحتشام، وبعضُها عفّى عليها الزّمن وهُجِرَتْ وتَركت الميدانَ للّغات الأوربيّة المنحدرة عن اللّاتينيّة الأُمّ، أمّا العربيّة فإنّ بقاءَها وتداوُلَها والتّخاطُبَ بها خيرُ دليل على حياتها وازدهارها، بل لم تفقد العربيّة يوما ما الأشخاصَ النّاطقين بها، وهم منذ فجر الإسلام في ازدياد ونماء، وممّا ثبّتَها على مرّ الدّهور وكرّ العصور أنّها ظلّت تُسْتَعْمَلُ في مَهْد نشأتها، أي: في بلاد الجزيرة العربيّة وبلاد الشّام والعراق، وثبّتَ عُروقَها وصفّاها وهذّبها، وزادها طيبا وعذوبة أنّ **الله** تعالى أنزل بها القرآن الكريم، ولا أحَدَ يُنكِرُ أنّها اكتسبت مزيدا من التّقديس والاهتمام، وازّيَّنت في فساتينها القشيبة، وعلاها البهاءُ والرّواء من كلّ جانب حينَ حمّلها العليمُ الحكيمُ البيانَ القرآنيَّ الرّفيع الذي لا يُضاهى ولا يُجارى.

كثيرةٌ خصائصُها، عظيمةٌ صفاتُها، بهيّةٌ نُعوتُها في دنيا اللغات. من خصائصها احتفاظُها بظاهرة الإعراب الذي تخلّصت كثيرٌ من اللغات منه، وظاهرةُ الاشتقاق، وتعدُّدُ الأبنية والصّيغ، ووَفْرةُ المترادفات والكلمات المتقاربة للشّيء الواحد ممّا يَخْرُجُ عن الحصر والعدّ، ويكفي أن يذكُرَ بعضُ أصحاب اللغات (الأسد) بلفظ أو لفظين، وأن يخُصّوا (الجَمَل) بكلمة أو كلمتين، ويكفيها هي أن تحتوي على مئات الكلمات من أسماء الأسد وصفاته، ومئات الأسماء والنّعوت للإبل، ومَنْ يتصفّحْ معاجِمَها ويتضلّعْ بالبحث في الفروق بين أسماء المسمّى الواحد فيها يُدرِكْ مِصداق هذا الكلام، ويعلمْ أنّه أمام بَحْرٍ لُجِّيٍّ لا قَعْرَ له، وحيالَ محيطٍ غامرٍ لا ساحِلَ له، وأمام لغة استثنائيّة لا نظيرَ لها.

ولكنَّ هذا لا يعني أنّ اللغة العربيّة لم تتطوّر في العصور الخوالي أو لا تتطوّرُ الآن أو أنّها لغةٌ تراثيّةٌ متقوقعةٌ مُتجمّدةٌ، بل على النّقيض من ذلك فهي لغةٌ حيّةٌ ناميةٌ نابضةٌ بالحياة متطوّرة، فيها من الخصائص والميزات ما يجعلها قابلةً للتّطور والتأثّر والتّلاقح مع اللّغات العالميّة، وهي بحُكم طبيعتها ووَفْرة معجمها، ودقّة قواعدها، ووضوح معاني ألفاظها وتميّز دلالات أبنيتها قادرةٌ على استيعاب كلِّ مُبْتَكَر، والتّعبير عن كلِّ جديد بل هي تَنْتَقي وتصْطفي ما يتناسب مع هُوّيّتها وجمالها الأصيل.

يُدْرِكُ ذلك مَنْ يقرأ الشّعرَ القديمَ والشّعرَ الحديث، العربيّةُ هي العربيّةُ ذاتها، والقواعدُ هي القواعد نفسها، والموسيقى والإيقاع الجميلان يميّزان نوعي القصيدتين، إلا أنّك تلاحظ أنّ المُحْدَثين استعملوا كثيرا من الألفاظ التي استحدثوها، وألفاظا كثيرة عرّبوها، وأنساقا تعبيريّة اصطفوها من لغات الشّعوب المجاورة، ولا يضيرُ هذا العربيّةَ في شيء، وإنّما يزيدُها ثراءً ونماءً وتنوّعا وخُصوبة، ويُحفِّزُ الناسَ فيُقبلون على تعلّمها والتّحدّث بها وتدوين خواطرهم وأفكارهم بها.

انظر إلى قصيدة من قصائد محمود درويش أو نزار قبّاني، واقرأ روايةً من روايات أحلام مستغانمي في عصرنا الحاضر تجدْ كثيرا من الألفاظ والأنساق التي ما كانت تخطر على بال الأوّلين، وما كانت من مُدركات عهودهم الغابرة، وفي الوقت نفسه هي من صميم اللسان العربيّ الفصيح الجميل، ومن صميم الكلام المبنيّ على قواعد سليمة ونُظم لغويّة منسجمة وآليّات واضحة وأنماط دقيقة، وبها يُبلّغُ المرسلون رسائلهم العمليّة والفكريّة والعاطفيّة، ويُسَرُّ بها المتلقّون وتنشرح صدورهم، وتقع في آذانهم وأذهانهم موقعَ القبول والتّرحاب.

لماذا هذا الحديث؟ أودّ من خلال هذه اللُّفَيْظات القليلات، والجُمَيْلات الموجزات أن أُثبِتَ بما لا يدع مجالا للشّكّ أنّ اللغة العربيّة اليوم هي حاملةٌ للفكر وللآداب ولأحلام الأجيال المعاصرة، حافلةٌ بأفكار أهل السّياسة والاقتصاد والفلسفات المتنوّعة، مُواكِبةٌ لكلّ ما تجود به التّكنولوجيا من مخترعات ومصنوعات، بل مُصوِّرةٌ لكل الفِكَر الجديدة المستحدثة في عالم التّواصل الاجتماعي، متطوّرة في ذاتها تستطيع أن تنسجم وتتماشى وتتناغم مع كلّ ما يتمّ ابتكارُهُ في العوالم الافتراضيّة الحديثة. وأصالتُها ومتانتُها ووَفرةُ أبنيتها ودقّةُ قواعدها وظاهرةُ الإعراب فيها لا تعيق تطوُّرها بل تزيد المتكلّمين بها والمستمعين إليها عِشقا لها، وتُمكّنُ كلَّ مَنْ يرغب في تعلّمها وركوب أمواجها الجميلة أن يُعبّر بها ويخْطُبَ بها في المحافل، ويُدوِّنَ أفكاره وآراءه بها، ويُساجِلَ بها في المؤتمرات والملتقيات، ويُناهِزَ بها اللغات العالميّة الحيّة على الرّغم من التّخلّف التّكنولوجي الذي يعيشه أبناؤها اليوم.

وحين نتحدّث عن العربيّة في العالم الافتراضي فإنّ الأمر لا يُخيف بل لا يدعو إلى مِعْشار ذرّة من قَلَق، ولا يدعو البتّةَ إلى فزَع، وإنّما يَقْلَقُ الذين يتحدّثون لغاتٍ حروفُها بالمئات بل بالآلاف، وإنما يفزَعُ ويهلعُ من الانفجار المعلوماتي الذين لغاتُهُم تحتوي على كلمات معدودات، وأبنيَة تُحصى بأصابع اليد الواحدة أو اليدين. وهل يُخشى على لغة عدَّ لها الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠ هـ / ٧٨٦م) في تقليباته الصّرفيّة التي ابتدعها بفكره الثّاقب وذِهنه الألمعيّ وعقله اللغويّ الجبّار أكثرَ من اثني عشر مليون كلمة؟ وإذا كانت اللغة الإنجليزية التي تُعدُّ اليومَ لغةَ العولمة المهيمنة على العالم لا تتجاوز كلماتها ستمائة ألف كلمة، فلَكَ أن تقيس، أخي القارئ، الفرق بين العربيّة واللغات الأخرى؟

لا أقول هذا الكلام من منطلق التّعصّب للغة الضّاد، فإنّ لغة الضّاد لا تحتاج إلى مَنْ ينعَتُها بغير الحقائق والصّفات التي تتميّز فعليًّا بها، وإنّما أقول هذا تنبيهًا إلى الخصائص والميزات والسّمات التي تتفوّقُ بها العربيّة على أخواتها من السّاميات واللاتينيّات وغيرها، وهذا من باب الإنصاف للمُضريّة الحسناء والقرشيّة الغيداء. وإذا كان كثيرٌ من المغرضين اليوم يَسْعَوْنَ في إيقاد الإحن وتأجيج العداوات والفتن ضدّها، فلا يُلامون؛ فالجهلُ زادُهم، والشّنآنُ وقودُهم، والحَسَدُ مُلهِبُ بغضائهم، وإذا عَمِيَ العالمون عن ضياء الشّمس، فالعَتْبُ على أبصارهم وبصائرهم لا على الشّمس السّاطعة في رابعة النّهار.

قلتُ: إنّ العالم الافتراضيَّ اليوم حبيبٌ إلى اللغة العربيّة، يزيدُ من نشرها ورَفْعِ رايتها خفّاقةً عاليةً في دنيا اللّغات العالميّة، وإذا كان الخطيبُ باللغة العربيّة في الأزمنة الماضية يُوَصِّلُ كلمته إلى المئات وبضعة آلاف من المستمعين، فإنّ التواصل الافتراضي اليوم مَهَّدَ السُّبُلَ وذلّلَ الصُّرطَ وسهّلَ للخطيب الواحد أن يُسْمِعَ كلمته الملايين من المتابعين، وإنّ الكاتب المغمور البائس الفقير الذي يعيش في أفقر بُقعة من الأرض، إذا كان مُتقنا لفنّ الكتابة ذا أسلوب جذّاب وقلم سيّال وقريحة خصبة منتجة، فإنّ أتباعَهُ تتضاعفُ أعدادُهم في لحظات، وإنّ كتاباته وأقواله تنتشرُ في هُنيهات، وتُردِّدُ الشّفاهُ تغريداتِه وتتغنّى بها الحناجر، وتُعيدُ إذاعتها وكالاتُ الأنباء والقنوات في فترات وجيزات. وبعد المتابعة والاستماع إلى اللغة العربية الجميلة في ألفاظها، البديعة في أنساقها التّعبيرية، الباهرة في إيقاع أصواتها وبهاء حروفها، فإنّ النتيجة الحتميّة التي نَشْهَدُها آنًا بعد آنٍ، ونَجْنيها حينًا بعدَ حين أنَّ الإقبالَ عليها يزدادُ، وأنّ خاطبيها يكثرون، وأنّ عُشّاقها يتزاحمون عليها، يذكرونُها بخير، ويتعلّمونها ويخطبون وُدَّها، ويُعبّرون بها في المحافل والمجامع بإبانةٍ وتبيين وفصاحةٍ وإفصاح.

لا خَشيةَ على العربيّة في العالم الافتراضي، ولا خوفَ عليها في العالم الرّقميّ، وإنّنا لنراها كلّ يوم يعلو شأنها، ويزدادُ محبّوها، ويَكْثُرُ طالبوها، والواقع يشهد أنّه منذ أنْ كثُرت اللقاءات الافتراضية، ومنذ أن نزلت جائحة كورونا بساحات العالمين، فإنّ شأنَ العربيّة في عُلوّ، ومجدَها في سُمُوّ، وذِكرَها في ارتقاء، والإقبالَ عليها في نماء، وإنّ المتابعين لكل المؤتمرات والملتقيات التي تُعقَدُ يُعَدّون بالآلاف المؤلّفة، وما كان شيءٌ من ذلك ليكون في الحالات العادية، والملاحظ أيضا، وهذا بيتُ القصيد، أنّ توسُّعَ انتشار العربيّة في البلاد غير العربيّة كبيرٌ وسريعٌ، وهو لافت للانتباه، مُقتضٍ للتّنويه، داعٍ إلى السّرور والحبور، وفي الوقت نفسه يدعو إلى التّيقّظ وأخذ الحذر.

يدعو إلى السّرور لأنّ كلَّ إنسان بِحُكم فطرته يُحِبُّ لغته؛ فإنّ حُبَّ اللغات أمْرٌ فطريّ وشأنٌ جِبِلِّيٌ خُلِقَتْ عليه النّفوس، وطُبِعَت عليه القلوب، ومَنْ ذا الذي لا يهوى لغته ويُحبّ لها الانتشار والذّيوع والشّيوع، ويسْهُلُ عليه التّواصل بها مع العالمين؟

والشّأن الثاني وهو التيقّظ والحذَرُ أقْصِدُ به أنّ أصحاب العربيّة وحماتها المنافحين عنها والمدافعين عن عرينها ينبغي لهم أن يُحْسنوا التّخطيط لنشر هذه اللغة، والحِرْصَ على تعليمها كما هي في حقيقة الأمر، وعدم التّخلّي عن خصائصها، فلا يجوزُ بأيّ حال من الأحوال التّفريطُ في الإعراب مثلا بحُجّة التّيسير ومطيّة التّسهيل؛ إذ إنّ التفريط في الإعراب والتّساهُل في ضَبْطِ أواخر الكلِم سيكون خللا كبيرا بل يُعَدُّ منقصةً وهَدْما لكيان هذه اللغة العظيمة؛ إذ كيف نُفَرّقُ بين فاعل ومفعول، وبين منصوب ومجرور، وبين حالٍ وصفة وتمييز إذا لم نحترم قواعدَ الإعراب ولم نحافظ على الضّبط الصّحيح لألفاظ اللغة حين تركيبها، وكذلك الحفاظ على سلامة أبنيتها فليس فاعِلٌ كفَعّال، وليس بناءُ فَعِل كمفعال، ويتبايَنُ فَعولٌ عن فعيل، والفروق بين الأبنية كثيرة، وكلُّ مَبْنى له معنى يختصُّ به في العربيّة.

فالتّسامح في أساسيّات العربيّة من مثل هذه الخصائص ومثيلاتها، بدعوى تيسير تعليمها وتسهيل نشرها بين المتعلّمين الجدد، والانجرار إلى استعمال العاميّات الدّارجة في بلادنا العربيّة مُنْزَلَقٌ خطيرٌ ومُنْعَطَفٌ صعبٌ غيرُ محمود العاقبة، وإذا كنّا نريد فعلا وحقًّا للعربيّة أن تنتشر ويرتفعَ شأنُها في العالمين، فإنّا نرجو أن يكون ذلك والعربيّةُ هي العربيةُ نَحْوًا وصَرْفا وإعرابًا ومعجمًا وعروضا، نريد نشرها في ثوبها البهيّ الذي ألبسها الله تعالى وزيّنها به، ولا ينبغي تمييع تعليمها وتشويه أسسها وأركانها.

سلطان القاسميّ

يفتتح مكتبة مجمع اللغة العربيّة بالشارقة

تضم أكثر من أربعة آلاف عنوان بينها نوادر الكتب والدّوريات ومجلات المجامع اللغوية.

مكتبة المجمع دَوْحة باسِقة الأفنان، وواحةٌ وارفة الظّلال.

أعلن مجمع اللغة العربية بالشارقة عن إعادة افتتاح مكتبته الخاصة أمام الطلبة والدارسين والباحثين والمهتمين باللغة العربية والرّاغبين في التبحّر في علومها ومعارفها وقواعدها، وذلك بعد أن جدّد المجمع محتويات المكتبة وحدّث أقسامها، ورفدها بعناوين من أمّهات الكتب والمراجع.

وكشف المجمع – في دعوة وجّهها لعشّاق لغة الضّاد– أنّ المكتبة تضمُّ أكثر من أربعة آلاف عنوان في شتّى الفروع المعرفيّة، وخاصّة في مجال اللغة العربية، منها ما يختصّ بالفقه وأصوله، والشّريعة، والتاريخ، ومصنفات بارزة في الأدب، ومؤلفات متخصّصة في النقد والشعر، إلى جانب كتب النحو والعروض والصّرف والمعاجم العربية المتخصصة والكتب الثّقافيّة العامّة.

وبهذه المناسبة الثّقافيّة، لقد سعد المجمع بزيارة هامّة قام خصّ بها صاحب السّمو الشّيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى للاتّحاد حاكم الشارقة، والرّئيس الأعلى للمجمع –حفظه **الله** ورعاه– حيث أبى إلا أن يشارك أبناء المجمع فرحتهم بافتتاح المكتبة والاطّلاع على التّحديثات التي أُجريت عليها.

وخلال زيارة سموّه للمكتبة، اطّلع على جميع مرافقها، وأهم العناوين التي تمّت إضافتها، ولقد سعد سعادة غامرة بما رأى وما سمع، ونصح – على عادته ودأبه – القائمين على المكتبة، ودعا إلى فتح أبوابها أمام الباحثين، مشجّعا على القراءة والبحث والمطالعة.

ولا غرو ولا عجب أن ترى حاكما يزور المكتبات ويُكلّف نفسه عنت الحضور والتّوجيه، وهو الثَّقِفُ العالم المؤرّخ التّربويّ، القارئ النّهم الذي أفنى حياته طلبا للعلم وبحثا عن الحقيقة، وتنقيبا عن المعلومة، وتحفيزا للهمم للبحث والقراءة والتّعلّم.

وإذا كان لكل مدينة صبغة، ولكل دولة توجّه، فإنّ إمارة الشارقة صبغتُها الثّقافة، ورؤيتها العلم، وحارسها الكتاب، ومُوَجّهها وسائقها إلى الخيرات سلطان المعرفة، الرّجل الذي كرّس حياته – أطال **الله** عمره – لإرساء قواعد العلم العلم والمعرفة في ربوع الشارقة، وفاضت أنواره على العالمين العربي والإسلامي، وكل يوم بل وكلّ حين، نسمع بالجديد فيما يبذل وما ينفق دعما للثقافة وتحفيزا للهمم، وتوجيها للنّشء.

إنّ سلطان القاسمي صاحب رؤية حضاريّة، استطاع بتوفيق **الله** أوّلا، ثمّ بالهمّة العالية التي أيّده بها خالق الأكوان، أن يلوّن الشارقة الباسمة بألوان الثقافة، وأن يجعل أهلها والمقيمين بها يتنفّسون العلم إلى جانب الهواء النّقي العليل.

وفي بيان الملابسات التي أحاطت بتجديد مكتبة المجمع، أشار الدكتور امحمد صافي المستغانمي، الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالشارقة، إلى أن المكتبة أُنشِئت بالتزامن مع تأسيس المجمع، لكنها شهدت تحديثات وتحسينات طالت جميع

أقسامها لإيجاد بيئة ماتعة شائقة جذّابة تشجّع على القراءة والمطالعة، مبيّنا أنها تُعَدُّ مكتبة تخصّصية تضمّ أمّهات الكتب اللغوية والمعجميّة إلى سائر أصناف الكتب الشرعية والفلسفية والعلمية، التي لا يستغني الباحثون في علوم اللغة العربية وآدابها عنها.

وقال: «إن للمصادر والمراجع التي تضمّها المكتبة أهميتها الخاصّة في العمل المعجميّ الضخم الذي يشرف عليه مجمع اللغة العربية بالشارقة والمتمثل في المعجم التاريخي للغة العربية، وإنّ المتخصصين في التحرير المعجمي بالمجمع يجدون في مكتبته ضالتهم من الكتب المتخصصة والنادرة، خاصة وأن إدارة المجمع صنّفت جميع الكتب وأخضعتها للرقمنة والحوسبة، بغرض الاستفادة منها في المدوّنة اللغوية الحاسوبية التي تمثل قاعدة بيانات المعجم التاريخي».

وأوضح أمين عام المجمع أن المكتبة تتميز كذلك باحتوائها على جملة من المطبوعات النادرة في حقل الدوريات، من بينها «مجلة الرّسالة» التي كان يرأس تحريرها الكاتب الجهبذ المترسّل أحمد حسن الزيات، وتتكون من ٦٠ مجلداً، ومجلة الضياء، ومجلة البصائر التي كانت تصدرها جمعيّة العلماء المسلمين في الجزائر، ويرأس تحريرها العلاّمة اللّغويّ أمير البيان والترسل، وجهبذ الخطابة الأديب الأريب الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ومجلة الآداب الأجنبية وغيرها.

كما تضم في رفوفها أمهّات الكتب البلاغية وشروحا نادرة لألفية ابن مالك مثل: فتح الخالق المالك في حلّ ألفاظ كتاب ألفية ابن مالك، ومنهج السّالك إلى ألفية ابن مالك، وكتباً متخصصة مثل: ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب، والتّذييل والتكميل في شرح كتاب التّسهيل لأبي حيان الغرناطي، وغيرها من الأمهّات الثمينة.

من ناحية أخرى تحتوي مكتبة المجمع على عدد من كتب المجاميع مثل: مجموعة الكاتب العصامي المتفرّد الفيلسوف الأديب عباس محمود العقاد، ومجموع رسائل الملا علي القاري، ومجموع ابن كمال باشا وغيرها.

ولفت الدكتور امحمد صافي المستغانمي إلى أنّ مكتبة المجمع تحتوي على أغلب إصدارات المجامع اللغوية بالعالم العربي من مجلات ومطبوعات علمية ولغوية، في تجسيد حي للعلاقة الوطيدة التي تجمع بين مجمع الشارقة والمجامع اللغوية الأخرى التي تنضوي كلها تحت مظلة اتحاد المجامع اللغوية العربية.

وختم أمين عام مجمع اللغة العربية بالشارقة بالقول إن مكتبة المجمع ترحّب بعشاق اللغة العربية وتدعوهم للاستفادة من كنوزها ونوادرها والاستفادة مما تحتوي.

إبْـرَاهِيـمُ صَبْـرِي ومُعَارَضَاتُهُ الشِّعْرِيَّة

د. خالد برادة
باحث وشاعر مغربي

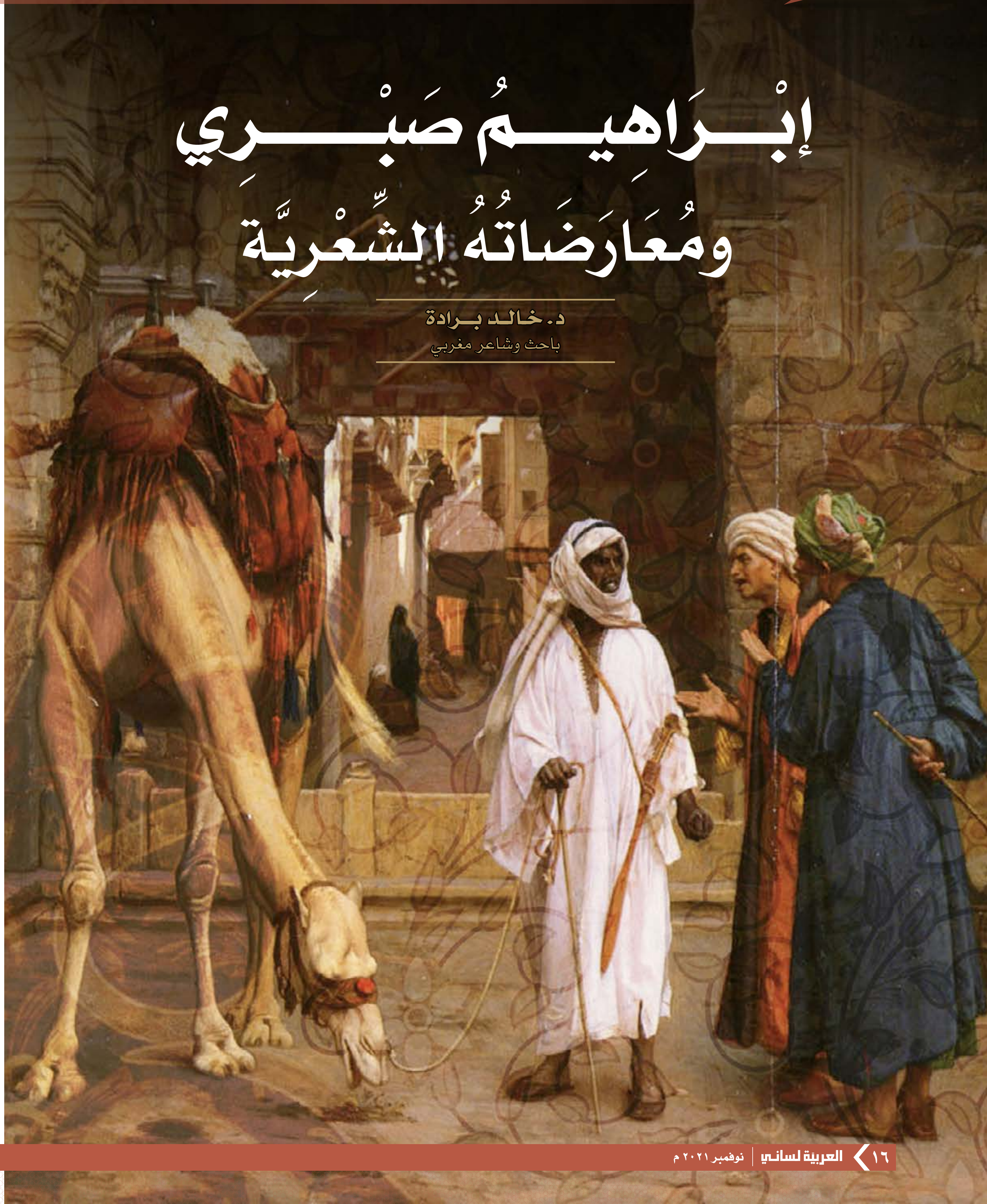

تُعَدُّ المُعارَضاتُ الشِّعْرِيّةُ لَوْنًا أدَبِيًّا فَرِيدًا، والدّاعي إِلَيْها قَدْ يَكُونُ إعْجابًا بِقَصِيدةٍ شَعْرِيّةٍ، أوِ اعْتِدادًا مِنْ لَدُنْ شاعِرٍ بِنَفْسِه يَوَدُّ أَنْ يَبُزَّ الفُحُولَ، فَيعمُدُ إِلى مُعارَضةِ قَصِيدةِ شاعِرٍ آخرَ، فَيَنظُمَ قَصِيدةً عَلى مِنْوالِها، مُحافِظًا عَلى نَفْسِ الوَزْنِ والقافِيةِ والمَوْضُوعِ، مُسْتَمِدًّا مِنَ المَعانِي والصُّورِ والأَخْيِلةِ والأَسالِيبِ ما يَراهُ مُناسِبًا، عَلى أَنَّهُ لا ينبغي أَنْ يَتَصَنَّعَ القَوْلَ فِيها.

ومِنْ شَأْنِ المُعارَضاتِ الشِّعْرِيّةِ أَنْ تَمُدَّ الأَدَبَ العَرَبِيَّ بِقَصائِدَ عَصْماءَ، تُسْهِمُ في إِعْلاءِ لِواءِ الشِّعْرِ، وتجعلُهُ حافِلًا بِصُورٍ وأَخْيِلةٍ وأَسالِيبَ جَدِيدةٍ؛ ذَلِكَ أَنَّ لِلمُعارَضاتِ الشِّعْرِيّةِ أَثَرَها البالِغَ في الحَياةِ الأَدَبِيّةِ، فَهِي وسِيلةٌ مِنْ وسائِلِ إِظْهارِ النُّبُوغِ الشِّعْرِيِّ، وتَطْوِيرِ فَنِّ الشِّعْرِ، بِمَنْحِهِ خَيالًا جَدِيدًا، ونَغَمًا فَرِيدًا. ولا يُظَنُّ أَنَّ الشّاعِرَ الّذي يُعارِضُ غَيْرَهُ مِنَ الشُّعراءَ هُوَ أَسيرٌ لِقَوافِيهِ، فَهُوَ وإِنْ كانَ يَتَرَسَّمُ نَهْجَهُ، فَلَيْسَ هَذا مَدْعاةً لِأَنْ يَكُونَ نُسْخةً طِبْقَ الأَصْلِ عَنْهُ، فَقَدْ يُخالِفُ الشّاعِرُ مَوْضُوعَ القَصِيدةِ الّتي يُعارِضُها، ويَعدلُ عَنْ وزْنِها إِلى غَيْرِهِ، وهَذا مِنَ التَّجْدِيدِ في المُعارَضاتِ الشِّعْرِيّةِ، وبِرهانٌ عَلى الإِبْداعِ وامْتِلاكِ ناصِيةِ الشِّعْرِ، وإِفْصاحٌ عَنْ أَنَّ الشّاعِرَ جَدِيرٌ بِحَمْلِ قِيثارةِ الشِّعْرِ، والتَّغْرِيدِ بِها في كُلِّ مَكانٍ.

ومِنْ أَبْرَزِ الشُّعراءِ الَّذِينَ طَرَّقُوا بابَ المُعارَضةِ الشِّعْرِيّةِ في العَصْرِ الحَديثِ: الشّاعِرُ إِبراهيمُ صبري، الّذي وجدَ فِيها مَيْدانًا فَسِيْحًا لِلإِبْداعِ، والإِسْهامِ في تَجْدِيدِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ.

وُلِدَ إِبراهيمُ صبري بِضاحِيةِ المَرَجِ بِالقاهِرةِ عامَ ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م ؛ وحَفِظَ الكَثِيرَ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ وأَشْعارِ السّابِقِينَ في صِباهُ وفَجْرِ شَبابِهِ، وبَدَأَ كِتابةَ الشِّعْرِ وهُوَ دُونَ الحادِيةَ عَشْرةَ مِنْ عُمرِهِ.

حَصَلَ عَلى لِيسانسِ الحُقوقِ مِنْ جامِعةِ القاهِرةِ عامَ ١٩٥٦م، ودِبْلُومِ الشَّريعةِ الإِسْلامِيّةِ عامَ ١٩٨٠م ؛ وعَمِلَ مُدِيرًا عامًّا بِوِزارةِ الخارِجِيّةِ المِصْرِيّةِ، وبَعْدَها اشْتَغَلَ مُحامِيًا لَدى القَضاءِ العالِيِّ بِمِصْرَ؛ وقَدْ نالَ عُضْوِيّةَ اتِّحادِ كُتّابِ مِصْرَ عامَ ١٩٧٧م، وعُضْوِيّةَ لجنةِ الشِّعْرِ بِالمَجْلِسِ الأعلى لِلثَّقافةِ بِمِصرَ، وبِشُعبةِ الآدابِ بِالمَجْلِسِ القَوْمِيِّ لِلثَّقافةِ ١٩٨٤م، وعُضْوِيّةَ رابِطةِ الأَدَبِ الإِسْلامِيِّ عامَ ١٩٩٧م ؛ وأَسَّسَ (نادِي القَصِيدِ) عامَ ١٩٧٨م، وكانَ يَهدفُ مِنْ ورائِه إِلى النُّهُوضِ بِالشِّعْرِ العَرَبِيِّ مِنْ وهْدَتِهِ، وإِقالَتِهِ مِنْ عَثْرَتِهِ، ولِيَجْمَعَ شَمْلَ الشُّعراءِ ويُمَهِّدَ لَهُم سَبيلَ نَشْرِ إِنْتاجِهِمْ مَحَلِّيًّا وعالَمِيًا، وقَدْ أَلْقى شِعْرَهُ في كَثِيرٍ مِنَ العَواصِمِ العَرَبِيّةِ والأُورُوبِّيّةِ، وفِي قاعةِ المُؤْتَمَراتِ بِالأُمَمِ المُتَّحِدةِ، وجامِعةِ جُورج تاون بواشنطنَ، كَما نُشرَتْ وأُذِيعَتْ قَصائِدُهُ في أَوْقاتٍ مُخْتَلِفةٍ بِالمَجلّاتِ والإِذاعاتِ العَرَبِيّةِ والأَجْنَبِيّةِ؛ ولَهُ دَواوِينُ شِعْرِيّةٌ مَنْشُورةٌ، وهِي: (بَرْقٌ وقَمَرٌ)، و(الغُصْنُ الثّائِرُ)، و(الثَّلْجُ والبُرْكانُ). والنّاظِرُ في قَصائِدِ إِبراهيمَ صبري يُدْرِكُ أَنَّهُ شاعِرٌ جَمعَ بَيْنَ القَدِيمِ والحَديثِ، وبَيْنَ التُّراثِ والمُعاصرةِ، ومَزَجَ بَيْنَ الكِلاسِيكِيّةِ والرُّومانْسِيّةِ، والواقِعِيّةِ والسُّرْيالِيّةِ، فاسْتَوْلى عَلى ناصِيةِ البَيانِ، وعَبّرَ بِشِعْرِهِ عَنْ أَشْواقِ رُوْحِهِ، وآمالِ أُمَّتِهِ؛ وقَدْ أَصَدَرَ الباحِثُ جَلالُ العشرِي كِتابًا ضَمِّ آراءَ النُّقّادِ فِيهِ، وهُوَ بِعُنْوانِ)الشّاعِرُ إِبراهيمُ صبري وأَحدَ عَشَرَ ناقِدًا). وقَدْ مَنَحَتْهُ أَكادِيمِيّةُ الفُنُونِ والثَّقافةِ بِوَلايةِ كالِيفُورْنِيا دَرَجةَ الدُّكْتوراه الفَخْرِيّةَ في الآدابِ عامَ ١٩٩٠م ؛ وظَلَّ قِيثارةَ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، وبُلْبُلَهُ الصَّدّاحَ، إِلى أَن أَسْلمَ الرَّوْحَ إِلى بارِئِها يَوْمَ الخَمِيسِ ١٨ رَمَضانَ ١٤٢٩هـ / ١٨ شتنبر ٢٠٠٨م.

إبراهيم صبري

ويَزْخَرُ الشِّعْرُ الحَديثُ بِرَوائِعِ القَصائِدِ الّتي عارضَ بِها إِبراهيمُ صبري فُحَوْلَ الشُّعراءِ، ومِنْهُمْ: مُحَمَّدُ الصّنهاجي البُوصيريُّ، وأَبُو العَلاءِ المَعريّ، وأَبُو فِراسٍ الحَمْدانِيُّ، وأَبُو الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي وسِواهُمْ ؛ وقَدْ أَسهَمَ بِذَلِكَ في رَفْعِ لِواءِ الشِّعْرِ، وإِعْلاءِ مَقامِ الأَدَبِ.

وقَدْ أجادَ إبراهيمُ صبري في شِعْرِ المَديحِ النَّبَويِّ، مِنْ خِلالِ هَمْزِيَّتِهِ (السِّراج)، مُعارِضًا بِها هَمْزِيَّةَ الإمامِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعيدٍ البُوصيريِّ، فَتَحَدَّثَ في قَصيدَتِهِ (السِّراج) عَنِ المِيلادِ النَّبَوِيِّ الشَّريفِ، وطُفولَةِ النَّبِيِّ الكَريمِ ﷺ وكَريمِ أَخْلاقِهِ، ومُعْجِزاتِهِ، وهِيَ مِنْ رَوائِعِ ما قيلَ في المَديحِ النَّبَوِيِّ.

يَقولُ البُوصيريُّ في مَطْلَعِ هَمْزِيَّتِهِ:

كَيْفَ تَرْقى رُقِيَّكَ الأَنْبِياءُ
يا سَماءً ما طاوَلَتْها سَماءُ

وإلَيْكَ مَطْلَعَ هَمْزِيَّةِ إبراهيمَ صبري، وهِيَ ذاتُ رَوْعَةٍ تَأْخُذُ بالأَلْبابِ– وهِيَ لا تَقِلُّ رَوْنَقًا عَنْ مَطْلَعِ هَمْزِيَّةِ البُوصيريِّ:

يا سِراجًا هُوَ السَّنا والسَّناءُ
قَدْ تَجَلّى بِنورِكَ الأَنْبِياءُ

ويَنْتَقِلُ إبراهيمُ صبري في هَذِهِ القَصيدَةِ بَيْنَ المِيلادِ النَّبَوِيِّ ومُعْجِزاتِهِ وإرهاصاتِهِ، ثُمَّ يَعْرِضُ لَمْحَةً عَنْ سيرَةِ خاتَمِ الأَنْبِياءِ ﷺ فَضْلًا عَنْ شَمائِلِهِ وشَرَفِ رِسالَتِهِ؛ وهَذا تَنَقُّلٌ يَرُوقُ السّامِعَ، ناهِيكَ عَنْ مَزْجِ الشّاعِرِ في القَصيدَةِ بَيْنَ جَمالِ اللَّفْظِ وجَلالِ المَعْنى، فَأَتَتْ بَليغَةَ التَّصْويرِ، ذاتَ بِناءٍ فَنِّيٍّ أَخّاذٍ.

وجَديرٌ بالذِّكْرِ أَنَّ هَمْزِيَّةَ البُوصيريِّ عارَضَها عَدَدٌ غَيْرُ قَليلٍ مِنَ الشُّعَراءِ عَلى مَدارِ العُصورِ الإسْلامِيَّةِ، ومِنْ أَشْهَرِ الشُّعَراءِ الَّذينَ عارَضُوها في العَصْرِ الحَديثِ: أَحمد شَوْقي في قَصيدَةٍ مَطْلَعُها:

وُلِدَ الهُدى فالكائِناتُ ضِياءُ
وفَمُ الزَّمانِ تَبَسُّمٌ وثَناءُ

كَما عارَضَ إبراهيمُ صبري قَصيدَةً مِنْ عُيونِ شِعْرِ أَبي العَلاءِ المَعَرِّيِّ، رَثى فيها أَبو العَلاءِ فَقيهًا حَنَفِيًّا بِقَصيدَةٍ شِعْرِيَّةٍ، وقَدْ تَبَوَّأَتْ هَذِهِ القَصيدَةُ مَكانَةً عالِيَةً في فَنِّ الرِّثاءِ، ومَطْلَعُها:

غَيْرُ مُجْدٍ في مِلَّتي واعْتِقادي
نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنُّمُ شادِ
وشَبيهٌ صَوْتُ النَّعِيِّ إذا قيسَ
بِصَوْتِ البَشيرِ في كُلِّ نادِ

وإلَيْكَ مُعارَضَةَ إبراهيمَ صبري لَها بِقَصيدَتِهِ (رِحْلَةُ الوُجود)، ومَطْلَعُها:

لَيْسَ في مِلَّتي ولا في اعْتِقادي
يَسْتَوي نائِحٌ وآخَرُ شادِ
فَتَرَنَّمْ بِكُلِّ لَحْنٍ بَهيجٍ
يُطْلِقُ البِشْرَ في شَجِيِّ الفُؤادِ

ويُلاحِظُ القارِئُ لِلْقَصيدَتَيْنِ أَنَّ المَعَرِّيَّ صاحِبُ نَغْمَةٍ حَزينَةٍ يَجْنَحُ– كَما هُوَ مَعْهُودٌ عَنْهُ– إلى التَّشاؤُمِ، بَيْنَما إبراهيمُ صبري عَلى طَرَفَي نَقيضٍ مِنْهُ، فَهُوَ يَعْزِفُ قَصيدَتَهُ عَلى نَغْمَةِ الابْتِهاجِ بالحَياةِ، ويَدْعُو إلى التَّفاؤُلِ، الَّذي يَظْهَرُ في مَطْلَعِ قَصيدَتِهِ، ولَوْ سِرْنا طَلْقًا مَعَ أَبياتِ القَصيدَتَيْنِ لَرَأَيْنا أَنَّ صبري لَمْ يَجْذِبْهُ المَعَرِّيُّ إلى مَحْبَسَيْهِ اللَّذَيْنِ رَهَنَ فيهِما نَفْسَهُ.

فالمَعَرِّيُّ يَرى أَنَّ الحَياةَ تَعَبٌ كُلُّها، ويَعْجَبُ مِنْ راغِبٍ في مَزيدٍ مِنَ العَيْشِ، فَيَقولُ:

تَعَبٌ كُلُّها الحَياةُ فَما أَعْجَبُ
إلّا مِنْ راغِبٍ في ازْدِيادِ

بَيْنَما يُضْفِي إبراهيمُ صبري عَلى الحَياةِ مَعْنًى جَميلًا، فَهُوَ يَرى أَنَّ كُلَّ باذِلٍ جُهْدًا فيها يَجْني ثِمارًا يانِعَةً، فاسْمَعْ إلَيْهِ وهُوَ يَقولُ:

تَعَبٌ كُلُّها الحَياةُ ولَكِنْ
كُلُّ جُهْدٍ يَهُونُ عِنْدَ الحَصادِ
تَعَبٌ يُثْمِرُ الحَياةَ فَما أَعْجَبُ
إلّا مِنْ راغِبٍ في الرُّقادِ

ولإبراهيمَ صبري قَصيدَةٌ في مُعارَضَةِ رائِيَّةِ أَبي فِراسٍ الحَمْدانِيِّ، وهِيَ مِنْ عُيونِ شِعْرِ أَبي فِراسٍ، افْتَخَرَ فيها بِنَفْسِهِ، لَمّا بَلَغَهُ أَنَّ الرُّومَ قالَتْ:« ما أَسَرْنا أَحَدًا لَمْ نَسْلُبْ سِلاحَهُ غَيْرَ أَبي فِراسٍ». يَقولُ في مُسْتَهَلِّها:

أَراكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شيمَتُكَ الصَّبْرُ
أَما لِلْهَوى نَهْيٌ عَلَيْكَ ولا أَمْرُ

ويَدُورُ مَوْضُوعُ هَذِهِ القَصيدَةِ حَوْلَ تَصْويرِ أَنَفَةِ صاحِبِها واعْتِدادِهِ بِنَفْسِهِ، رَغْمَ ما يُحيطُ بِهِ مِنْ أَحْداثٍ جِسامٍ، وخُطُوبٍ ومُدْلَهِمّاتٍ، وما يُكابِدُهُ مِنْ مَرارَةِ الأَسْرِ، ولَمْ يَفُتْهُ أَنْ يُزَيِّنَها بالحِكَمِ والأَمْثالِ، فَضْلًا عَنْ ذِكْرِ فَلْسَفَتِهِ في المَوْتِ، الَّذي هُوَ مَصيرُ كُلِّ حَيٍّ، ولَئِنْ كانَ أَبو فِراسٍ قَدْ نَظَمَ قَصيدَتَهُ عَلى البَحْرِ الطَّويلِ، فَإِنَّ إبراهيمَ صبري قَدِ اخْتارَ لِقَصيدَتِهِ بَحْرًا آخَرَ، وهُوَ بَحْرُ الوافِرِ، بَلْ ومَوْضُوعًا آخَرَ، ومَطْلَعُها:

جَفاءٌ ثُمَّ صَدٌّ ثُمَّ هَجْرٌ
فَهَلْ يَبْقى لِقَلْبي اليَوْمَ عُذْرُ

وتُفْصِحُ مَعاني قَصيدَتِهِ عَنْ لَوْعَةِ الحُبِّ الَّتي اصْطَلى بِنارِها، ودَمْعَةِ الهَجْرِ الَّتي كابَدَها– والهَجْرُ كالجَمْرِ يَتَلَظّى بِهِ صاحِبُهُ–، وهُوَ يَسْكُبُ عَلى هَذا الحُبِّ فَلْسَفَةً عَميقَةً في قَصيدَتِهِ مَعَ رَوْعَةِ التَّصْويرِ، ناهِيكَ عَنْ جَمالِ مُوسيقاها الشِّعْرِيَّةِ الأَخّاذَةِ، وإلَيْكَ بَعْضًا مِنْ أَبياتِها:

وطُولُ اللَّيْلِ لَمْ يَمْنَعْ رَجاءً
يَقُولُ وَراءَ طُولِ اللَّيْلِ فَجْرُ
وإنْ أَفْنَيْتُ أَيّامي اشْتِياقًا
فَلَيْسَ يَضيعُ بالأَشْواقِ عُمْرُ
إذا كانَ احْتِمالُ الهَجْرِ مُرًّا
فَإِنَّ فِراقَها أَبَدًا لَمُرُّ
وكُلُّ الهَجْرِ مَرْجُوٌّ لِوَصْلٍ
إذا ما الهَجْرُ لَمْ يَتْبَعْهُ غَدْرُ

ولَنا أَنْ نَتَذَكَّرَ بِغايَةِ التَّقْديرِ قَصيدَةَ (مَهْرُ العُلا) أَوْ (لامِيَّةُ العَرَبِ الجَديدَةُ) لإبراهيمَ صبري، الَّتي عارَضَ بِها (لامِيَّةَ العَرَبِ) لِلشَّنْفَرى الأَزْدِيِّ، وهُوَ شاعِرٌ جاهِلِيٌّ مَعْدُودٌ في زُمْرَةِ الشُّعَراءِ الَّذينَ اتَّخَذُوا الصَّعْلَكَةَ مَنْهَجًا لَهُمْ في الحَياةِ، فَقَدْ تَمَرَّدَ عَلى حَياةِ الذُّلِّ والعُبُودِيَّةِ، وهُوَ مِنْ فُحُولِ شُعَراءِ الطَّبَقَةِ الثّانِيَةِ؛ يَسْتَهِلُّ قَصيدَتَهُ (لامِيَّةُ العَرَبِ)، بِقَوْلِهِ:

أَقيمُوا بَني أُمّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ
فَإِنّي إلى قَوْمٍ سِواكُمْ لَأَمْيَلُ

وقَدْ تَحَدَّثَ الشَّنْفَرى في لامِيَّةِ العَرَبِ عَنْ أَخْلاقِهِ وعِفَّتِهِ، واعْتِزازِهِ بِنَفْسِهِ وسِلاحِهِ، وفَخَرَ بِبَعْضِ صِفاتِهِ، ووَصَفَ الذِّئْبَ وشَبَّهَ نَفْسَهُ بِهِ، ووَصَفَ القَطا، وتَحَدَّثَ عَنْ خُشُونَةِ عَيْشِهِ، وهُمُومِهِ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِمّا حَفَلَتْ بِهِ هَذِهِ القَصيدَةُ العَصْماءُ الَّتي بَلَغَتْ ثَمانِيَةً وسِتّينَ بَيْتًا، وهِيَ مِنَ البَحْرِ الطَّويلِ، وأَمّا لامِيَّةُ العَرَبِ الجَديدَةُ لإبراهيمَ صبري، فَهِيَ مِنَ البَحْرِ البَسيطِ، وتُعَدُّ مِنْ عُيُونِ شِعْرِهِ ورَوائِعِهِ الخالِدَةِ. يَسْتَهِلُّها بِقَوْلِهِ:

دَعِ الأَسى وتَعالَيْ نَحْيا بالأَمَلِ
لا وَقْتَ لِلْيَأْسِ والإخْفاقِ في عَمَلِ

فَهُوَ يَتَحَدَّثُ إلى نَفْسِهِ، ويَمْحَضُها النُّصْحَ، ويَمْتازُ بِأَنَّهُ كَما عَرَفْناهُ في مُعارَضَتِهِ لِقَصيدَةِ المَعَرِّيِّ– يَجْنَحُ إلى التَّفاؤُلِ، والابْتِهاجِ بالحَياةِ، فَيَجْعَلُ مِنَ انْبِلاجِ الفَجْرِ إشْراقَ صَباحٍ باسِمٍ، فاسْمَعْ إلَيْهِ وهُوَ يَتَساءَلُ قائِلًا:

فَكَيْفَ تَأْسى ووَجْهُ الفَجْرِ يَرْمُقُنا
في كُلِّ يَوْمٍ بِصُبْحٍ مُشْرِقِ المُقَلِ؟

ويُطالِبُ الإنْسانَ بالتَّبَسُّمِ بَدَلَ التَّجَهُّمِ، والتَّواضُعِ بَدَلَ التَّكَبُّرِ، ويَنْطَلِقُ في حَديثِهِ مِنْ رُؤْيَةٍ نابِعَةٍ مِنْ تَجْرِبَةٍ عَميقَةٍ في الحُبِّ والصَّداقَةِ والعِفَّةِ.

إنَّ الشّاعِرَ إبراهيمَ صبري هُوَ شاعِرُ الأَمَلِ دونَ مُنازِعٍ، فَهُوَ

جامعة القاهرة

صاحبُ رؤيةٍ مُتفائلةٍ في الحَياة، ونرى الأمَلَ يُصاحِبُه إلى اللّحظاتِ الأخيرةِ مِن حَياتِه، مُتطلِّعًا إلى ما عِنْدَ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ من فضلٍ وإحسانٍ، فتسمعُهُ يَقولُ:

حَتّى إذا جاءني عزريلُ قلْتُ لَهُ
ما زالَ في البعْثِ عنْدي غايةُ الأمَلِ

ولا يفوتُنا أنْ نذكرَ معارضَته لقصيدتَين من قصائدِ أبي الطَّيِّبِ المُتنبّي؛ وقَدْ تعوّدَ المُتنبّي أنْ يفتتِحَ قصائدَه بالحِكَمِ الخَوالِدِ والأبياتِ السّائرةِ، فإذا نُسِيَت القَصيدةُ فلَنْ يُنسى مطلعُها:

كفى بكَ داءً أنْ ترى الموتَ شافيًا
وحسْبُ المنايـا أنْ يَكُنَّ أمانِيَا

وهذا بيتٌ يُوحِي بأَنّ المُتنبّيَ قَدْ ضاقَ ذرْعًا بالإقامةِ لدى كافُورَ، وهُوَ يذهبُ إلى أنّ الإنسانَ يرزحُ في سقمِهِ وهُمومِهِ إذا لَمْ يَرَ الموتَ شافيًا لآلامِهِ، بحَيثُ يصيرُ أكبرُ الأماني للإنسانِ حِينَ تدْلهمُّ الخُطوبُ.

ولَئِنْ كانَ المديحُ هُوَ اللّونَ الغالبَ على ديوانِ المتنبّي، حَيثُ أنَّهُ سَخّرَ عبقريتَهُ للعنايةِ بِهَذا الموضوعِ، حَتّى أوفى بِهِ عَلى الغايةِ في التّجويدِ والإتقانِ، فإنَّهُ في هَذِهِ القصيدةِ لَمْ يتوانَ عَنِ التّعريضِ بالذمّ والهجاءِ، مَعَ إظهارٍ للمدحِ والثّناءِ.

وقَدْ عارَضَها إبراهيمُ صبري بقصيدتِهِ الّتي سمّاها (الشّبابُ السّرمدُ)، ولكنّهُ ذهبَ فيها مذهبًا آخرَ بعيدًا عَنْ موضوعِ قصيدةِ المتنبّي، ومطلعُها:

كفاكَ شبابًا أنْ ترى الحُسنَ باديًا
يؤجّجُ في جَنبَيكَ ما ظَنَّ خابيًا

ففي هَذِهِ القصيدةِ يَتحدَّثُ عَنْ آمالِ الشّبابِ وأحلامِهم، وأنَّ المرءَ يُمكنُ لَهُ أنْ يَعيشَ طولَ حياتِهِ شابًّا، وذَلِكَ بالشِّعْرِ والإلهامِ والحبِّ، وغايةُ شاعرِنا إبراهيمَ صبري أنْ يرى الشِّعرَ مُلهمًا، والحُبَّ حاديًا.

وإذا كنا قَدْ عرَّفْنا إبراهيمَ صبري شاعرَ الأملِ والتّفاؤلِ، فها هُوَ يصدحُ بذَلِكَ في مُعارضتِهِ للمتنبّي قائلًا:

وما أنا إلّا شاعرٌ هامَ بالعُلا
وأذّنَ في الآفاقِ فخرًا مناديًا
وما أنا إلّا شاعرٌ عزَّ شعرُهُ
فلم يَبكِ حتّى لو رأى الكَونَ باكيًا

وهنا يبدو تأثُّرُهُ واضحًا بالمُتنبّي في فخرِه، فَقَدْ كانَ المُتنبّي يُطري نَفسَهُ إزاءَ إطراءِ ممدوحِهِ؛ وقَدْ فَخَرَ إبراهيمُ صبري كذَلِكَ بنفسِهِ وشِعرِهِ، فَهُوَ يَتحدَّثُ عَنْ شِعرِهِ في اعْتدادٍ بنَفسِهِ، وأنّ شِعْرَ الشّعراءِ يخِرُّ ساجدًا لشِعرِهِ، وسيَجمعُ النُّقّادُ عَلى فَضلِهِ ويذكرُوا خلودَهُ:

فحَسبِي مَفخرًا أنْ ترى الشِّعرَ شامخًا
يَخِرُّ لَهُ ما قيلَ مِنْ قَبْلُ جاثيًا
لَقَدْ كانَ بَلْ ما زالَ بالحُبِّ شاعرًا
يَعيشُ شبابَ الدّهرِ حيًّا وباقيًا

وأمّـا القصيدةُ الأخرى للمتنبّي الّتي عارضَها إبراهيمُ صبري فَهِيَ الّتي نظمَها في هجاءِ كافورَ الإخشيديِّ بَعدَ أنْ وَلّى هاربًا مِن بلاطِهِ وصادفَ يومَ عيدِ الأضحى من عام ٣٥٠هـ، ويظهرُ أنّ إبراهيمَ صبري قَدْ غاظَهُ المُتنبّي في هَذِهِ القصيدةِ، لأنَّهُ لَمْ يكتفِ بهجاءِ كافورَ الإخشيديِّ، بلْ هجا مِصرَ وأهلَها.

ويتساءلُ المُتنبّي في مُستهلِّ قَصيدتِهِ عمّا إذا كانَ العيدُ سيعودُ عَلَيهِ بما مَضى، أمْ أنَّهُ سيعودُ بالجَديدِ لآلامِهِ وأحلامِهِ:

عِيدٌ بأيّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ
بما مَضى أم لأمرٍ فيكَ تجديدُ
أمّا الأحبّةُ فالبيداءُ دونَهُمُ
فليتَ دونَكَ بيدًا دونَها بيدُ

وإليْكَ مَطلَعُ قَصيدةِ إبراهيمَ صَبري الّتي عارضَ بها داليّةَ المُتَنبّي، وهِيَ قَصيدةٌ وطنيّةٌ عُنوانُها (أنْشودةُ السّلامِ)، ومَطلَعُها:

ما أجْمَلَ العيدَ مَوْصُولًا بِهِ العيدُ
ومَوْكِبُ الشِّعْرِ تَحْدُوهُ الأغاريدُ
عيدُ الرَّبيعِ وميلادُ السّلامِ مَعًا
ودونَما مَوْعِدٍ تَحْلو المَواعيدُ

ولَمْ يتوانَ إبراهيمُ صبري عَنِ التّنديدِ بالمُتنبّي، لأنَّهُ عَرَّضَ لِمِصرَ بِسوءٍ – كما أشرْنا– بَعْدَ أنَّ هَرَبَ مِنْ بَلاطِ كافورَ. يَقولُ المُتنبّي:

نامَتْ نَواطيرُ مِصرَ عَنْ ثَعالبِها
فَقَدْ بَشِمْنَ وما تَفْنى العَناقيدُ

فَتأتي أبياتٌ مِنْ قَصيدةِ إبراهيمَ صبري هِجاءً لاذِعًا للمُتَنبّي، مَعَ إظهارِهِ مَكانةَ مِصرَ وفَضلَها:

فَكَمْ أبي طَيِّبٍ يا زَيْفَ كُنيتِهِ
كَزَيْفِهِ وهُوَ بالأحْقادِ محشودُ
آوتْهُ مُسْتَضْعَفًا فاختانَ ما بَذَلَتْ
ولَمْ يَضِرْها بَذاءاتٌ وتَفْنيدُ
وَخَيرُها كَمِياهِ النّيلِ دافِقةٌ
عطاؤُها ما لَهُ في الكَوْنِ تَقْييدُ

وهكذا أحْدَثَ الشّاعِرُ إبراهيمُ صبري في مُعارَضاتِهِ الشِّعْرِيّةِ نَوْعًا مِنَ التَّجْديدِ، فَهُوَ لَمْ يَشَأْ أنْ يَدورَ في الفَلَكِ الّذي دارَتْ فيهِ قَصائِدُ مَنْ عارَضَهُمْ، فَقَدْ تَحَرَّرَ مِنْ قُيُودِ مَوْضُوعاتِهِمِ الّتي طَرقُوها إلى غَيْرِها مِنَ المَعاني البِكْرِ، وهَذا مِنَ التَّجْديدِ الشِّعْرِيِّ الّذي قَلَّما تَجِدُهُ في شاعِرٍ عارَضَ شاعِرًا. وقَدْ أَظْهَرَ إبراهيمُ صبري في مُعارَضاتِهِ لِفُحُولِ الشُّعراءِ عَبْقَرِيَّةً فَذَّةً، فاعْتَلى بِذَلِكَ ذُرْوةَ الشِّعْرِ، وعُدَّ في زُمْرَةِ الكِبارِ، ولا غَرْوَ فَهُوَ قِيثارةُ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، الّذي يُشْجي سامِعيهِ بِلُغةٍ وجْدانِيّةٍ؛ وإنا لَنَعُدُّهُ شاعِرًا مُبْدِعًا مُجَدِّدًا، تَفَوَّقَ في أحيانٍ كَثيرةٍ عَلى القُدَماءِ مِنَ الشُّعراءِ في مُعارَضاتِهِ لِقَصائِدِهِمْ، وسَتَظَلُّ قَصائِدُهُ العَصْماءُ واقِفةً في شُمُوخٍ تَعْتَلي ذُرْوةَ قَصائِدِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ.

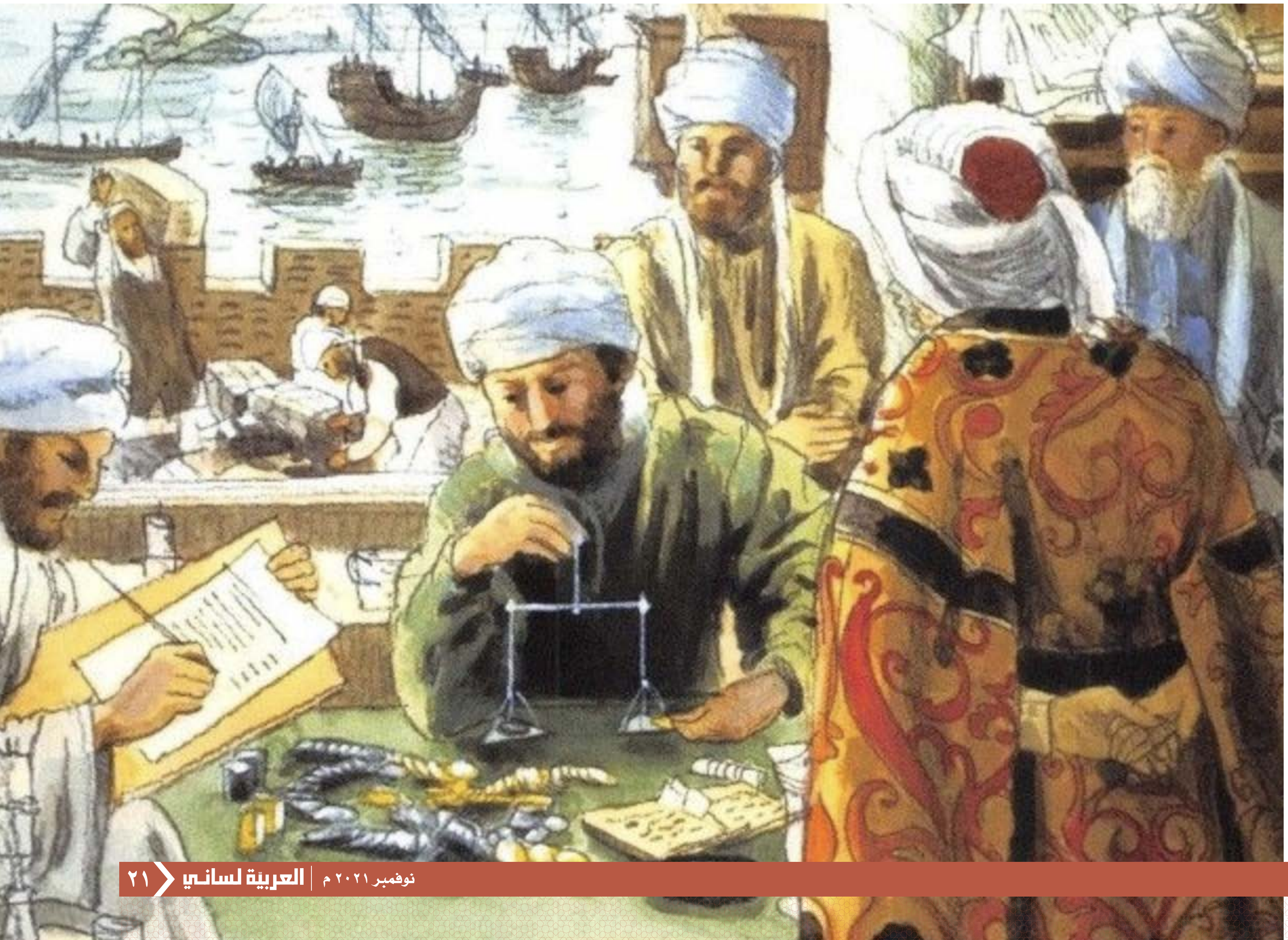

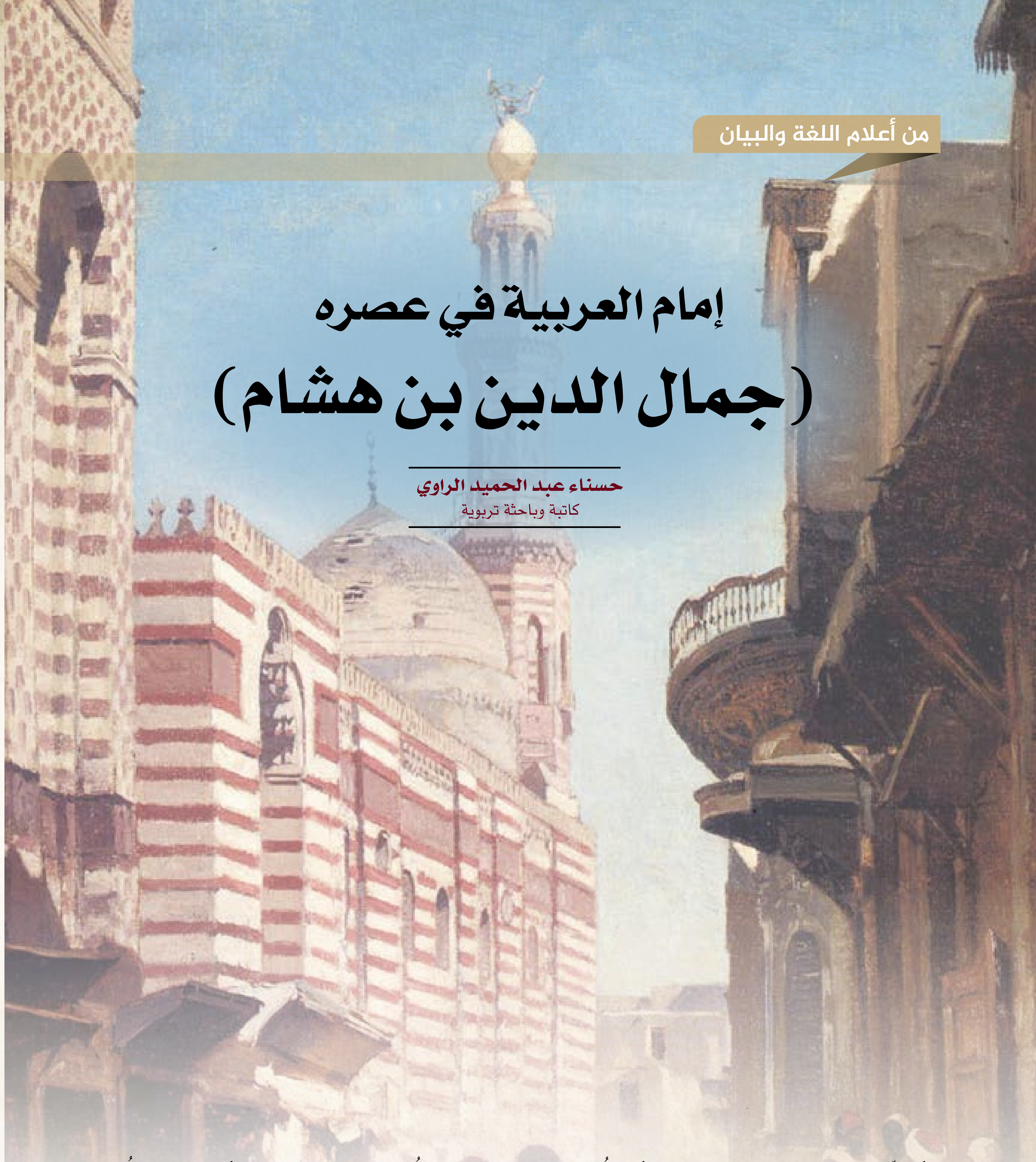

إمام العربية في عصره (جمال الدين بن هشام)

حسناء عبد الحميد الراوي
كاتبة وباحثة تربوية

سأتحدّث في هذا المقال عن رجل ملأ صيتُه الآفاق، وانتشرت بعضُ مؤلفاته في حياته، وأثرت المكتبةُ النحوية بكثير من مؤلفاته النافعة، أربت على الخمسين، وتصدّر لتدريس الفقه والقراءات، وتفرّد في اللغة والنحو، حتى شهد الدّماميني أنّ ابن خلدون - وكان شديدَ الإعجاب بابن هشام - قال مرة لولد ابن هشام : «لو عاش سيبويه لم يمكنه إلا التلمذةُ لوالدك والقراءةُ عليه» كما في حاشية الأمير على المغني .

نشأته وطلبه للعلم

هو عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري المصري، جمال الدين، لازم الشهابَ عبدَ اللطيف بن المرحّل، وعلي بن عبد الله التبريزي وأخذ عنهما النحو، وأخذ القراءات عن ابن السراج، ودرس الفقه على تقي الدين السبكي، وأخذ عن جماعة من العلماء الأجلاء، كالإمام بدر الدين بن جماعة الذي أخذ عنه الحديث، وأبي حيان الأندلسي وغيرهم، وتخرج على يده جماعة، منهم ابنُه محب الدين، وجمال الدين اللخمي، وإبراهيم بن محمد الدَّجوي النحوي، وجمال الدين النُّوَيري وغيرهم، (راجع بغية الوعاة ٢٤٧/١وشذرات الذهب ٢٩٢/٦) .

ثناء العلماء عليه

تضلّع ابنُ هشام من علوم اللغة والأدب والقراءات، والتفسير، حتى فاق أقرانَه وأهلَ زمانه، وقد أثنى عليه جمعٌ من علماء عصره، ووصفوه بأوصافٍ تدلُّ على أنه بلغ الغايةَ، وخاصة في علوم اللغة والنحو، فقال عنه ابنُ خلدون : «وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يُعرف بابن هشام، ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملَكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسيبويه وابنِ جني وأهل طبقتهما، لعظم ملَكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرّفه فيه» (تاريخ ابن خلدون ٢٧٨/١) .

كما أثنى عليه في سياق آخر، فذكر أنه وجد علمَ النحو خاصة وعلومَ اللغة عامة مُؤذنةً بالانقراض حتى جاء ابنُ هشام فأحيا رميمَها وجدّد دارسَها، بكتابه« مغني اللبيب» الذي أودعه علماً جمّاً يشهدُ بعلوّ كعبه في علوم اللغة، وحسْب ابن هشام مكانة وقدراً ما جاء في هذا الوسام الذي توجّه به ابن خلدون، يقول«وقد كادت هذه الصناعة تؤذن بالذهاب لِما رأينا من النقص في سائر العلوم والصّنائع بتناقص العمران، ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوانٌ من مصر منسوبٌ إلى جمال الدين بن هشام، من علمائها، استوفى فيه أحكامَ الإعراب مُجملةً ومفصّلةً وتكلم عن الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسمّاه بالمغني في الإعراب .

وأشار إلى نُكت إعراب القرآن كلها، وضبطها بأبواب وفصول

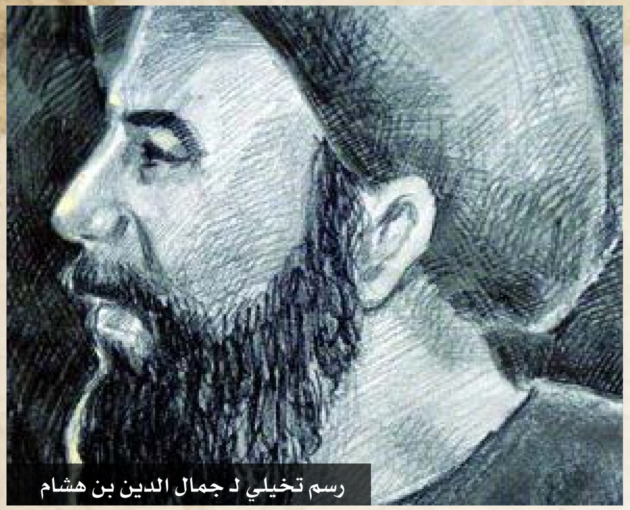

رسم تخيلي لـ جمال الدين بن هشام

وقواعدَ انتظم سائرُها فوقفنا منه على علم جمّ يشهد بعلو قدْره في هذه الصناعة ووُفور بضاعته منها وكأنه ينحو في طريقته منحاةَ أهل الموصل الذين اقتفوا أثرَ ابن جنيّ، واتّبعوا مصطلح تعليمه فأتى من ذلك بشيء عجيب دالٍّ على قوة ملكته واطلاعه»، (تاريخ ابن خلدون ٧٥٥/١) .

أما يوسف بن تغري بردي فقد وصفه بأنه عالِم في بعض العلوم، لكنه كان إمامَ العربية ومالكَ زمامها، يقول: « كان عالماً في عدة علوم لا سيما العربية فهو فارسها ومالكُ زمامها» (النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ١٣٦/١٠) .

أما ابن حجر العسقلاني فذكر تفرّدَه في علوم اللغة، مع فرط الاطلاع وعجيب الاستدراك وقدرة التعبير، مع دماثة الخُلق والتواضع وانفرد بالفوائد الغريبة والمباحث الدقيقة، والاستدراكات العجيبة، والتحقيق البالغ، والاطلاع المُفرط، والاقتدار على التصرف في الكلام، المَلَكة التي كان يتمكن من التعبير بها عن مقصوده بما يريد، مع التواضع والبر، والشفقة، ودماثة الخلق، ورقة القلب،(الدرر الكامنة ٣٠٩/٢) .

وفي ذات السياق أثنى عليه الشَّوكاني بأنه بلغ في العلم شأواً قصّر عن مداه غيرُه، وطار صيتُه في الآفاق وانتشرت مؤلفاتُه في سائر الأقطار، وطارت مصنفاتُه في غالب الديار،(البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني ٤٠٢/١).

ولم أقف لابن هشام على شعرٍ يمكن تصنيفُه فيه على أنه شاعر محترف، وإنما وقفتُ على بيتين إن صحّت نسبتُهما له، فهما من شعر الحكمة، (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٩٥/٣) .

وَمن يصطبر للْعلم يظفر بنيلـه
وَمن يخْطب الْحَسْنَاء يصبر على الْبَذْل
وَمن لم يذل النَّفس فِي طلب الْعلَا
يَسِيـرا يَـعـش دهــراً طَويــلا أخــا ذُلّ

توفي ابنُ هشام سنة، (٧٦١هـ)، ورثاه ابنُ نباتة بقوله، (البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع ١/ ٤٠٢) .

سقى ابْن هِشَام فِي الثرى نور رَحْمَة
تجرّ علــى مثــواه ذيل غـمــام
سأروي لَهُ من سيرة الْمَدْح مُسْندًا
فَمَا زلت اروي سيرة ابْن هِشَام

مؤلفاته

ذكرت كتبُ التراجم أكثر من خمسين كتاباً لابن هشام، بعضها مفقود، وبعضها ما زال مخطوطاً وقسم ثالث منشور بتحقيق بعض الباحثين، ومن أشهرها« مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» اشتهر في حياته وأقبل الناس عليه، وقد أضاف إليه حاشية وشرحاً لشواهده، و « التوضيح على الألفية» و «رفع الخَصاصة عن قُراء الخُلاصة» و «عُمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب» و «التحصيل والتفصيل لكتاب التكميل والتذييل» و « شرح التسهيل» و «شرح الشواهد الكبرى والصغرى» و «الجامع الكبير» و «الجامع الصغير» و « شرح اللَّمحة البدرية» لأبي حيان، وسمى شرحه الكواكب الدرية، و «قطر الندى وبلّ الصدى» و « شذور الذهب» و «شرح بانت سعاد» و « شرح البردة» وغير ذلك، (راجع مقدمة تحقيق كتاب المغني ١/ ١١- ١٦) .

أثر ابن هشام في الدراسات النحوية

لم يكن ابنُ هشام من النُّحاة الذين يرددون آراء سابقيهم، وينقلونها كما هي، بل كان يأخذ ويعطي، ويردّ وينتقد، ويتفحّص آراء سلَفه من النُّحاة بعقل وروية، فإن بدا له صحتُها سلّم لها وأجازها، وإن بدا له خطؤها ردَّها وأقام الحُجّة على ذلك وعزّز آراءه بالشواهد اللغوية التي تقطع الحُجة وتقيمُ الدليل على مذهبه

ابن خلدون

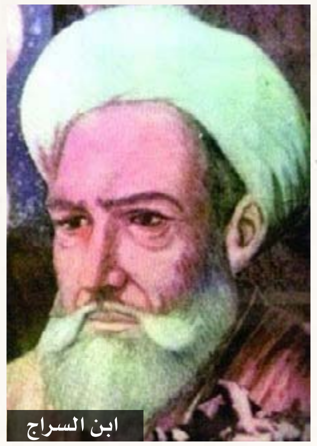
ابن السراج

. ويمكن أن نلْتمس بعضَ آثار هذه الاستقلالية الفكرية في جملة من تعليقاته، ومناقشاته للنحاة السابقين، بالرغم أنّ ابن هشام كان من تلامذة أبي حيان الأندلسي، وقد طالع كتبَه واستفاد منها، وشرح كتابه المسمى« اللّمحة البدرية» غير أنه لم يمنعْه ذلك من انتقاده وتعقُّب آرائه إذا ما بدا له موجبُ ذلك، فقد خطَّأه في اعتراضه على ابن مالك في قوله بأن«حرى» فعل، واستدل على ذلك ببيت أنشده اللغويون مستدلاً به على فعليتها، وهو قول الأعشى :

إِن تَقُلْ هنَّ من بني عبد شمس
فَحَرَىً أَن يكونَ ذاكَ وَكَانَا

وخطّأه كذلك منتصراً لابن مالك في قوله إن الباء تُزاد في الحال المنفي عاملُها، وأنشد:

فما رَجعت بخائبةٍ رِكابٌ
حكيمُ بنُ المسيِّب مُنتهاها

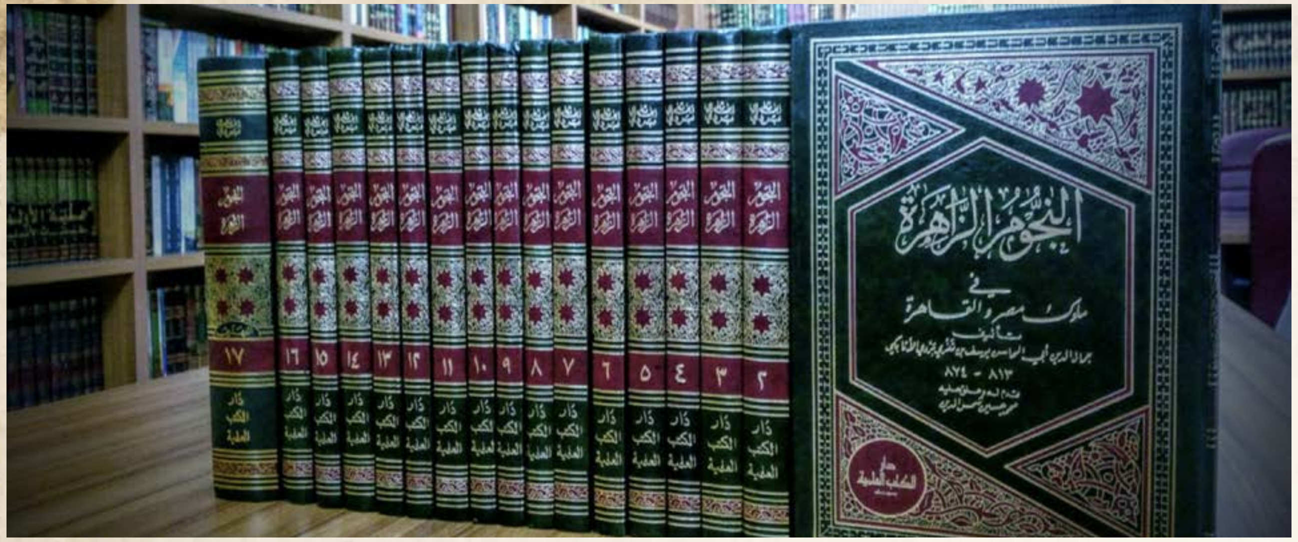

بينما يرى أبو حيان أنّ التقدير« بحاجة خائبة» واستدلّ ابنُ هشام على رأيه المؤيِّد لابن مالك المخالِف لأبي حيان بآية قرآنية وبيت شعر وأدلة لغوية أخرى، (مغني اللبيب ١/ ١٥٠) .

ومن المسائل التي نسب فيها ابنُ هشام أبا حيان إلى الغلط، عطفُ الخبر على الإنشاء، حيث قال : « أما ما نقله أبو حيان عن سيبويه فغلط... إلى أن قال: فتصرف أبو حيان في كلام الصفار فوهم فيه ولا حجة فيما ذكر الصفار»، (المغني ١/ ٣٦٠).

وإذا كان ابنُ هشام من أكثر الناس وفاءاً لابن مالك، حيث أكثر مَن الردّ عنه في اعتراضات أبي حيان عليه، كما كان من أكثر العلماء خدمةً لكتب ابن مالك، فقد شرح الخلاصة أكثرَ من شرح، وشرح التسهيل، غير أنـه لم يمنعْه ذلك من بعض الاعتراضات عليه، فقد ذكر في المغني مسائلَ كثيرةً عزاها لابن مالك، وكان يناقشُه في بعض المسائل، ويتبعه في بعضها، وفي بعض الأحيان يَنسبُه للسهو أو الوهم، بل والخطأ، (تاريخ النحو العربي، ص ٣٣٨) .

ومن أمثلة اعتراضه على ابن مالك ونسبتِه للوهم قولُه في المغني» وتوهَّم ابنُ مالك أنه أراد بالغلط الخطأَ فاعترض عليه بأنـاً متى جوّزنا ذلك عليهم زالت الثقةُ بكلامهم وامتنع أن نثبت شيئاً نـادراً لإمكـان أن يقال في كل نـادر إنّ قائله غلط» (المغني ١/ ٦٦٢).

ونسبه للسهو في حال المؤكدة لعاملها حيث قال :» ومثل ابنُ مالك وولده بتلك الأمثلة المؤكدة لعاملها وهو سهو» (المغني ١/ ٦٠٦) .

ونسبه للوهم في موضوع الإسناد اللفظي وأجمل معه في هذا الوهم أبا حيان حيث قال معقباً : « وممن قلد ابنَ مالك في هذا الوهم أبو حيان » المغني ١/ ٨٧٤) .

وذهب إلى أبعد من ذلك حيث نسبَه إلى خرق إجماع النحويين في أنّ « أم» المنقطعة لا تدخل على المفرد، قال في المغني« وخرق ابنُ مالك في بعض كتبه إجماعَ النحويين فقال لا حاجة إلى تقدير مبتدأ وزعم أنه تعطف المفردات كـ (بل)، وقدّرها هنا ببل دون الهمزة واستدل بقول بعضهم إن هناك لإبلا أم شاء بالنصب » (١/ ٦٨) .

خاتمة

لا يخفى أنّ ابنَ هشام كان عالِماً موسوعياً، لم يقتصر على فن واحد، ولا على مذهب واحد، فبالرغم أنه كان إماماً في اللغة والنحو، فإنه قد يتصدر في التدريس في الفقه الشافعي، ثم انتقل إلى المذهب الحنبلي وتصدّر فيه كذلك، كما كان مشاركاً في علوم القرآن والتفسير، وحسبه أن شهد له أبرزُ علماء عصره في المغرب شهاداتٍ جعلته بحق فريدَ عصره، يقول ابن خلدون» ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالِم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه» .

اتِّجَاهَاتٌ حَدِيثَةٌ في صِنَاعَةِ المَعَاجِمِ اللُّغَوِيَّةِ

نَحْوَ بِنَاءِ مُعْجَمٍ مُوَحَّدٍ لِلُّغَةِ العَرَبِيَّةِ

محمد اسماعيلي علوي
جامعة محمد الخامس (المغرب)

لقد أصبح علم المعجم اليوم بفضل تطور الأنظمة الرقمية وحوسبة اللغة علمًا واسعًا ذا جوانب عديدة، وأصبحت له نظريات تتناول أسسَ صناعته، وأصبحت الدّراساتُ المعجمية تحتلُّ حيزًا كبيرًا من الدّراسات اللغويّة الحديثة، ولم يقتصر هذا العلم على صناعة المعجم كما كان يغلب على الجهود السّابقة، بل أصبحت هذه الصناعة تخضع لقواعد وأسس دقيقة، وصارت تُوزن بمعايير ثابتة تدلّ على نضج هذا العلم. ومما أسهم في نضجه تلاقح الدّراسات حول هذا الفنّ لدى العديد من الشّعوب بلغاتهم المختلفة، فقد كانت صناعة المعجم عند علماء العربية نابعةً من التّراث العربيّ دون غيره، ولذا عُدّ إبداعًا من إبداعات علماء العربيّة، أمّا في عصرنا الحاضر فقد أصبحت صناعة المعجم عالميّةً أسهم في تطويرها لغويّون من بلادٍ شتّى ولغاتٍ مختلفة. فلم يعد من الوارد – إذا شئنا أن نواكب التّحولات العلميّة– أن نحصرَ هدفَ البحث المعجميّ في تجميع الوحدات اللغويّة من متون الكتب وغيرها، وترتيبها ترتيبًا صناعيًا بمراعاة الأبجدية أو غيرها، وإرفاق كل وحدة لغويّة بمعلومات عنها تتضمّن معناها أو معانيها بما يتيسّر وكيفما تيسّر.

إن التّأليف المعجميّ في الثقافة العربية حظي بنصيبٍ وافرٍ من العنايةِ والاهتمام، منذ القرون الأولى للهجرة؛ حيث انكبَّ العديدُ من الباحثين العرب على جمع اللغة العربيّة في معاجم عامّة ومتخصصة، انطلاقًا من ثلاثة مراجع أساسيّة وهي، القرآن الكريم، والأحاديث النّبويّة الشّريفة، والشّعر الجاهليّ. فكان الخليل بن أحمد الفراهيديّ (١٧٥هـ) رائد هذا الصّنف من المؤلفات، حيث وضع في زمن مبكّر «معجم العين»، الذي مازال حتى اليوم مرجعًا أساسيًّا في نهجه وموضوعه، لتأتي بعده مصنّفات عديدة أخرى، نذكر من بينها على الخصوص «الجمهرة» لابن دريد والتّهذيب للأزهريّ، والمحيط للصّاحب بن عباد، والمجمل لابن فارس، والصّحاح للجوهريّ، والعباب للصّغاني، والمحيط للفيروزآبادي...، وغيرها كثيرًا، ممّا حول المعجم العربيّ إلى صناعة علميّة في الثّقافة العربيّة، في وقت لم تكن هذه الصّناعة معروفة أو متداولة، سوى عند أقدم الحضارات الإنسانيّة، ونعني بها الصّينية والهنديّة. فبالرّغم من هذا الكم الهائل من المعاجم؛ فقد بين ابن منظور أنّ المعاجم العربيّة لم توفّق بين حسن الجمع وحسن الوضع والعكس بالعكس، إذ يقول: «ورأيت علماءها بين رجلين: أمّا من أحسن جمعه فإنّه لم يحسن وضعه، ومن أجاد وضعه فإنّه لم يجد جمعه فلم يفد حسن الجمع مع إساءة الوضع ولا نفعت إجادة مع رداءة الجمع[١]. فما عسى أن توفّر تلك المعاجم القديمة[٢] من إمكانات لتحديث اللغة العربيّة؟ إنّ قيمتها التّاريخيّة جديرةٌ بالعناية لأنّها تحتوي على مادّة وافرة. إلّا أنّ «إبراهيم مذكور» يرى أنّها لا تفي بحاجات العصر وضروراته؛ لأنّ شروحها غامضة، وبعض تعريفاتها خاطئة. وكثيرًا ما تنسخ معاجم لاحقة في معاجم سابقة دون أن تأتي بجديد. «ولقد سعى أصحابها إلى أن يحصروا اللغة في حدود زمانيّة ومكانيّة. فلم تبق تلك المعاجم على صلة بالحياة والتّطور. وانتهى بها المطاف إلى أن أصبحت لا تعبّر حتّى عن العصر الذي وُضعت فيه»[٣]. فالسؤال الذي تفرضه هذه المراجعة السريعة: هل تكون هذه المجهودات الجبارة التي بذلت والتي تبذل حتى الآن لتطوير الصناعة المعجمية، كافية لإنقاذ اللغة العربيّة من التّراجع؟ أم أنّنا في أمسّ الحاجة إلى معجم عربيّ تاريخيّ يُوحّد معجم هذه اللغة بما يتماشى مع تطوّر الرّقمة؟ فكيف يمكنُ الاستفادة من النّظريات اللسانيّة الحديثة في صناعة المعاجم اللغويّة خاصة بناء معجم موحد تاريخي للغة العربية؟

في العصر الحديث، كان من الطبيعي أن تفسح الصناعةُ المعجميةُ العربيةُ الكلاسيكيةُ المجالَ للمعجم العربي الحديث، لا سيما بعد الاحتكاك الذي حدث للثقافة العربية سياسيًا واقتصاديًا بالغرب وحضارته خلال القرون الثلاثة الماضية، والذي انعكس سلبًا وإيجابًا على اللغة العربية. «فقد جاءت الإشارات الأولى لتطوير الصناعة المعجمية العربية في مطلع القرن الثامن عشر

(١) ابن منظور «لسان العرب»، (٢٠١٠)، ص ٧

(٢) لقد أكد الإسكندري، أحمد على قيمة المعاجم القديمة وإن كان فيما مضى قد شدد النكير عليها لاحتوائها على المعربات والدخيلات، ورأى أنه لا حاجة إلى الرجوع إلى المصادر الأمهات، لأن المعاجم التي يعتبرها حجة، قد سجلت رواية كلام العرب. (أحمد الإسكندري، ص٢٣٢-٢٣٤).

(٣) مذكور، إبراهيم (١٩٦٤)، مجمع اللغة في ثلاثين سنة. ص ٦١

على يد ثلةٍ من العلماء والباحثين العرب، الذين رافقوا وتتبعوا عن كثب الحملاتِ الفرنسيةَ والايطاليةَ والبريطانيةَ على العالم العربي، خلال هذه المدّة من التاريخ»(٤).

ويؤكد الباحثُ «أحمد شفيق الخطيب» (عضو شرف في مجمع اللغة العربية بـالأردن)، «أنّ أعمال المستشرقين كانت حيويةً وبناءةً في تطوير الصناعة المعجمية العربية، بما اتّسمت به من منهجية علمية في البحث والتدقيق والتحقيق، ومراجعة الأصول، وخاصة في استقراء آلاف الكلمات المستعملة بعد عصر واضعي المعاجم، واستخلاص معانيها، فكان هؤلاء المستشرقُون القدوةَ الحسنةَ للرواد من المعجميين العرب المجددين»(٥).

١- اللسانيات وصناعة المعاجم اللغوية

إن ما راكمته اللسانيات العربية من أبحاث ودراسات، وما حققته من نتائج نوعية أثرت في تطوير النظريات اللسانية، الصوتية والمعجمية، والدلالية، والتداولية... ويكفي هنا أن نذكر بمشروع الدكتور «عبد القادر الفاسي الفهري» الرامي إلى ما يسميه بناء وصف نسقي شامل للغة العربية، وبمشروع الدكتور «أحمد المتوكل» الرامي إلى بناء نحو اللغة العربية الوظيفي، وهي أعمالٌ عربيةٌ استطاعت أن تزاوج بكثير من النجاح بين البعدين العام والخاص(٦). إلى جانب عدد كبير من الأبحاث التي استهدفت وصف ظواهر متعددة من اللغة العربية، شملت المعجمَ والأصواتَ والصرفَ والتركيبَ والدِّلالةَ والتداولَ. إلا أن هذه الأعمال لم يُعمد إلى تطبيقها على الرغم من قيمتها العلمية العالية. فكثيرًا ما تمّ الحديث عن المعجم الذهني وكيفية بنائه وطريقة تمثيل المعلومات داخله، إلى غير ذلك من المسائل المتعلقة به، ولكن أحدًا لم يبادر إلى الشروع في بناء معجم من هذا القبيل. والنتيجة أننا لازلنا لا نملك معجمًا جديدًا يمثل لقدرة المتكلّم العربي المعجمية. فالصناعة المعجمية اليوم في

(٤) السلاوي، محمد أديب (٢٠١٥) «اللغة العربية والصراعات المتداخلة»، ص: ٣٩
(٥) نفسه، ص: ٣٩
(٦) غلفان، مصطفى «اللسانيات العربية – أسئلة المنهج–»، ص: ٣٤.

حاجة ماسة إلى النتائج التي توصلت إليها اللسانيات عمومًا في تحليلها للغة، خاصة اللسانيات العربية.

٢- نحو تطوير حوسبة المعجم العربي

لقد استطاعت الدراسات اللسانية تحقيق تقدّم ملموس ظهرت نتائجه على شكل معاجم آلية قابلة للاستعمال العادي من جهة الباحثين والمتعلمين؛ إذ تساعد حوسبةُ المعجم العربي على تسهيل معجمية الرصيد اللغوي العربي الثريّ بحافظاتٍ برمجيةٍ جاهزةٍ للتسيير وفق الأغراض المعجمية المنشودة، من حيث الإحصاء والوصف والتعدّد الدلالي والتوزع اللغوي الصوتي، أو الصرفي أو النحوي أو البلاغي أو الاصطلاحي والمجالات الإبلاغية والاتصالية(٧). فحوسبة معجم اللغة العربية دليل آخر على «قابلية اللغة العربية للمعالجة الآلية على صعيد المعجم، وهو دليل آخر على قابلية هذه اللغة للانخراط في سياقات المعاصرة الالكترونية»(٨). وهذا دليل يوضح أن العربية قابلة للتطوير، وقابلة لأن تستفيد من مستجدات الدرس اللساني الحديث من الناحية الديداكتيكية، ومن ناحية الإفادة من مفاهيمها لتدريس وفهم مستوياتها.

ويعدُّ «نبيل علي» من أبرز الباحثين الذين استطاعوا وضع نموذج معلومياتي «لمعالجة اللغة العربية». وقد أصدر في هذا الشأن كتابا هاما تضمن تصوره لمعالجة اللغة العربية إضافة إلى مشاركته في العديد من الندوات والمؤتمرات الدولية التي انعقدت حول اللسانيات الحاسوبية. فقام بإبراز خصائص اللغة العربية وخلص إلى فكرة مؤداها أن اللغة العربية لغة طبيعية قابلة للحوسبة والمعالجة الآلية شأنها في ذلك كشأن اللغات الطبيعية الأخرى.

إنّ أيّة محاولة لبناء معاجم آلية للغة العربية يجب أن تبدأ من الوصف اللساني لنظام هذه اللغة، فاللسانياتُ – كما يقول

(٧) عبد الله أبو الهيف (٢٠٠٤) «مستقبل اللغة العربية: حوسبة المعجم العربي ومشكلاته اللغوية والتقنية»، ص: ١١٤.
(٨) صديقي، عبد الوهاب «اللسانيات وتدريس اللغة العربية»، ٢٠١١، ص:٧٥.

محمّد الحنّاش – هي وحدها القادرة على إعطاء الوصف الصحيح لنظام اللغة؛ وذلك لأنّها تتبع العملية الإبداعية اللغوية في أصلها لتبني لها بذلك قواعد صورية قادرة على توليد سائر بنيات اللغة، وقد برهنت الدراسات اللسانية عن كفاءة عالية في هذا الصدد، لكن هذا لا يلغي دور المعلوميات في الاشتراك في هذا الانجاز، فقد أصبح يفرض في اللساني تمكّنه من القواعد الأساسية لأنظمة المعلوميات المعاصرة؛ ذلك لأنّها أداة فعّالة تدفع باللساني إلى تكييف اقتراحاته لغاية المعالجة الآلية لنظام اللغة، هذا كلّه يدعو إلى التعاون بين اللسانيين والحاسوبيين العرب من أجل بناء معاجم آلية للنظام اللغوي العربي(٩).

إننا اليوم أمام نهضة كمية في المجال المعجمي، يشارك في إذكائها الفقهاء والخبراء والعلماء والكتاب والجامعات والأكاديميات ومجامع اللغة العربية في القاهرة ودمشق وبغداد وعمان، ومكتب تنسيق التعريب بالرباط، حيث تحتضن المكتبة العربية اليوم عشراتٍ، بل مئاتِ المعاجم العامّة والمتخصصة، بعضها وضع بمناهج علمية متطوّرة وبعضها الآخر استفاد من التجارب المتراكمة في صناعة المعجم العربي. فهل يكفي ذلك لإنقاذ اللغة العربية من التراجع، وإعادتها إلى ساحة العمل العلمي في المدارس والجامعات والمعاهد والإدارات والمقاولات، بوصفها لغةً تستجيب لمتطلبات العولمة وشروطها الموضوعية؟.

وبالنظر إلى التطورات المتلاحقة التي عرفتها الصناعة المعجمية

(٩) محمّد الحنّاش «مشروع نظرية حاسوب» لسانية في بناء معاجم آلية. ص: ٤١.

في العصر الحديث، يلاحظ أنّ المعاجم العربية، قديمها وحديثها ورغم تطورها الكمي والنوعي، مازالت في حاجة ماسة إلى وضع جديد، يلائم عصر العولمة مازالت في حاجة إلى تصحيح وتنقيح وتوضيح حتى تكون وافية بالغرض ويستفاد منها. فهي في نظر بعض العلماء، مازالت عاجزة عن الوصول إلى الهدف، قاصرة عن الوفاء بما يراد منها من صحة ودقة وجلاء، خاصّة في العلوم والصناعات والفنون والآداب. فبالرغم من أقدمية المعجم العربي واتساعه وشموليته، مازال يعاني من العديد من السلبيات، كونه صار على قاعدة مملة، ينقل بعضه عن بعض بتقيد شديد. ثم إنّ بعض كلمات هذه المعاجم مازالت تُفسّر في المعجم العربي تفسيرًا لا يُفهم، كما تفسّر الكلمات تفسيرًا دوريًا، أو تفسّر بكلمات أشدّ غموضًا.

فلا تأتي غالبية المعاجم العربية بأمثلة لتوضيح المعنى وتغفل الكثير من صيغ الأفعال، وبعضها لا يفرق بين الصفة والاسم.

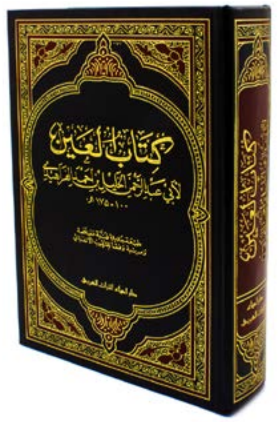

اضْطِرابُ المُصْطَلَحِ النَّحويِّ

الجُملُ الّتي لا مَحلَّ لَها مِنَ الإعْرابِ أُنْمُوذَجًا

حسن الربيح

تمثال الخليل

بوّابةٌ للأسئلة

المصطلَحُ في دلالتِهِ العامّةِ: (لفظٌ علميٌّ يُؤدّي المَعْنى بوضوحٍ تامٍّ. ويَتّفقُ عَليهِ عُلماءُ عِلمٍ مِنَ العلومِ، أَوْ فَنٍّ مِنَ الفُنونِ). مُحمَّد التّونْجيّ وآخرونَ، المُعجَمُ المُفَصَّلُ في عُلومِ اللّغة، ج:٢، ص: ٥٨٩.

تِلْكَ هِيَ وظيفةُ المُصطلحِ في أيِّ علمٍ، حَيثُ يُشترَطُ فيهِ الوُضوحُ دُونَ غُموضٍ في مُفرداتِهِ، أَوِ اضْطرابٍ في استِعمالِهِ، ولا بُدَّ مِن اتّفاقِ أهلِ ذَلِكَ العِلمِ في جَوهرِهِ، وإلّا كانَ مُصطلَحًا ضَعيفًا مَصيرُه الفناءُ.

والنّحوُ كأيِّ علمٍ كثُرتْ فيهِ المُصطلَحاتُ، وتَبدّلَ بَعضُها بِحُكمِ التّطورِ للدرسِ النّحويّ، وبقيَ مِنْها ما بقيَ، وأُهمِلَ مِنْها ما أُهمِلَ في تُراثِنا اللّغويّ.

هَذِهِ مُحاولةٌ للاقترابِ مِنَ المُصطلحِ النّحويِّ

مِنْ خِلالِ عَرضِ الأسْئلةِ، والنَّظرِ في مُفرداتِ المُصطلحِ ودلالاتِها، ومَدى انطِباقِ هَذِهِ الدّلالاتِ بِحَسبِ مَنطقِ الاستِعمالِ اللّغويّ، والاحْتكامِ إلى النّحوِ نفسِهِ مُمثَّلًا في الآراءِ المَبثُوثةِ في الكُتبِ، وبَعْضِ الدّراساتِ الحديثةِ، وسأقِفُ عَلى مِثالٍ واحِدٍ لِهَذِهِ الظّاهِرةِ.

يَضْطربُ المُصطلَحُ النّحويُّ حِينَ يَظهرُ الخِلافُ بَينَ النّحاةِ في تحديدِ ما يَدخُلُ ضِمنَ هَذا المُصطلحِ، وما يَمتَنِعُ دُخولُهُ، وكذَلِكَ في اخْتلافِ التّسميةِ نفْسِها مِن مَدرسةٍ نَحويّةٍ إلى أُخرى، وهَذا ما يُؤكّدُ لنا أنَّ نَشأةَ المُصطلحِ النّحويِّ خاضِعةٌ لِلتّطوّرِ القائِمِ عَلى التّشذيبِ والإضافةِ وتغييرِ المُسمّى، وحينَ يُصاغُ المُصطلَحُ حَرفيًّا، فإنَّ إطْلاقَهُ لا يَتناسَبُ مَعَ حيويّةِ بَعْضِ الجُملِ ومجازاتِها، وقَدْ لا يَدلُّ دلالةً دقيقةً على المعْنى، فتظهرُ استثناءاتٌ هُنا، وشُذوذٌ عَنِ المُصطلحِ هُناكَ والأمْثلةُ في هَذا كثيرةٌ.

خلصَ الدّكتورُ سامحُ كمال في دِراستهِ عَنِ اضطرابِ المُصطلحِ النّحويّ إلى أسبابٍ هيَ: (نتيجةٌ لوجودِ العشوائيّةِ في وضْعِ دُروسِ النّحوِ، وافتقادِ التّدرّجِ والتّكاملِ بَينَ المراحلِ الدّراسيّةِ... اشتراكُ المصطلَحِ النّحويِّ مَعَ علومٍ أُخَرَ). مجلّةُ بُحوثِ الشّرقِ الأوسَطِ، ع: ٤٨. سامح كمال السّيد حسن، الرّطانةُ الاصطلاحيّةُ والمصطلحُ النّحويُّ، ص: ٢٤٧.

ولنا أنْ نسْألَ: أليسَ الإعرابُ في اللّغةِ يعني الإبانةَ والوُضوحَ؟

فكيفَ هُوَ حِينَ دخلَ في النّحوِ، وراحَ في مساربِ النّحاةِ حَتّى أصبحَ مُبهَمًا؟

إنَّ مُتابعةَ تبلوُرِ مَفهومِ الإعرابِ في الكُتبِ القديمةِ حَتّى وصولِهِ في الدّراساتِ الحَديثةِ يتطلّبُ جُهدًا كبيرًا لا قُدرةَ لي عَليهِ، ولكنَّهُ مَوضوعٌ جديرٌ بالاهتمامِ، ففِي التّفاصيلِ مَجالٌ لفتحِ نافذةٍ نحويّةٍ جديدةٍ تتنفّسُ مِن خِلالها اللّغةُ، وخاصّةً في الآراءِ الّتي خرجَتْ عَلى السّائدِ في تراثِنا اللّغويِّ القديمِ، ولَيسَ لي في استِقْصائِها إلا السّبرُ اليَسيرُ، والصّبرُ القصيرُ.

والعِبارةُ الاصطلاحيّةُ: (جملٌ لا مَحلّ لَها مِنَ الإعرابِ)، مِن هَذا النّوعِ الّذي يتطلّبُ سَبرًا وصَبرًا.

فمَنْ أوّلُ مَن صاغَ هَذا المصطلحَ؟ وما الّذي يقْصدونَهُ مِنْ هَذه العبارةِ؟ وهلْ هُوَ محلُّ قَبولٍ تامٍّ؟

(الكتابُ) لسيبَويهِ (ت ١٨٠هـ) هُوَ أقدَمُ كتابٍ نحْويٍّ، وهُوَ إحياءٌ لعلمِ الخليلِ بنِ أحمدَ الفراهيديِّ (ت ١٧٥هـ) على حدِّ تعبيرِ سيبويهِ نفسِهِ، لَمْ يَكُنِ الكتابُ يتَطرّقُ إلى تحديدِ المُصطلحِ النّحويِّ وتعريفِهِ بقدرِ ما كانَ يَشرحُهُ، ويَستفيضُ في ذكرِ الشّواهدِ عَليهِ، مِن هُنا كانَ لزامًا على الباحثِ أنْ يستقصيَ الكتابَ لفَرزِ المُصطلحِ النّحويِّ واستنتاجِهِ مِنْ خِلالِ الأمثلةِ.

وهَذا ما قامَ بِهِ الباحِثانِ العراقيانِ د. ليثُ الوائلي، ود. سلامُ الزّبيدي في بحثٍ مطوّلٍ بعُنوانِ: «مَفهومُ الإعرابِ في كتابِ سيبويهِ: دراسةٌ في تَحليلِ الكَلامِ وارتباطِهِ بالمَعنى»، وقَدْ توصّلا إلى النّتيجةِ الآتيةِ: (مفهُومُ الإعرابِ عِنْدَ سيبويهِ أقربُ مِن أنْ يُوصَفَ أنّه علاقةٌ تركيبيّةٌ سِياقيّةٌ تُظهرُ مقاصدَ المتكلّمينَ، وللمُتكلّمِ أثرُه الرّئيسُ في التّغييراتِ الإعرابيّةِ، إذْ هِيَ

عمليةُ اشتراكِ العاملِ والمُتَكلِّمِ، ومراعاةِ المَعْنى لإظْهارِ العلامةِ الإعرابيَّةِ المناسِبةِ). مجلَّةُ الكليَّةِ الإسلاميَّةِ الجامِعة، النَّجف، ع: ٤١، مجلد:١، ١٩٩٧م.

ولكنْ هل المُرادُ بجُملٍ لا مَحلَّ لَها مِنَ الإعرابِ أيْ لا محلَّ لَها مِنَ المَعنى؟!

على ضِفافِ الجواب

صِيغَ مُصطلحُ الجُملِ، وجُمِّعتْ أجـزاؤُهُ في وقتٍ متأخِّرٍ وتحديدًا في القرنِ الثَّامنِ الهجريِّ، ولَمْ يَكُنْ متداولًا عِنْدَ النُّحاةِ القُدماءِ بشكلٍ جليٍّ، ولكنْ لا يعني هَذا أنَّ المَسألةَ غيرُ مُثارةٍ مِنْ قَبْلُ، فالآراءُ فيها مُتناثِرةٌ في الكُتُبِ ضِمنَ فُصولِ النَّحوِ المُتفرِّقة، وبسببِ التَّوسُّعِ في مصنَّفاتِ النَّحو ظهرتْ هَـذِهِ المسألةُ على السَّطحِ، وهَذا ما يُؤكِّدُه لنا د. طه مُحسن عبدُ الرَّحمنِ حيثُ يَقولُ: (لم يُفرِدْ أحدٌ مِنَ النُّحاةِ – فيما أعلمُ – قَبْلَ المُراديِّ (ت ٧٤٩هـ) مُصنَّفًا يبْحثُ فيه الجُملَ؛ إذ لَمْ أجِد ما يُشيرُ إلى ذلِكَ، كما لَمْ يَصلْ إلينا شيءٌ مِنَ المُصنَّفاتِ الَّتي تبْحثُ الموضوعَ مُستقلًّا). الجُملُ الَّتي لَها محلٌّ مِنَ الإعرابِ والتَّي لا محلَّ لها، المُقدِّمة، ت: طه محسن عبدالرَّحمن، ص: ٤٢٦، ٤٢٧.

تعلَّمنا في المَدارسِ أنَّ الجُملَ الَّتي لا محلَّ لَها مِنَ الإعرابِ هِيَ الجُملُ الَّتي لا يُمكِنُ تأويلُها بمُفردٍ، بعَكسِ الجُمَلِ الَّتي لَها مَحلٌّ مِنَ الإعرابِ تِلْكَ الَّتي تُؤَوَّلُ بـالمُفردِ.

وهَكذا يتمُّ التَّفريقُ بَينَ ذَلِكَ في جُملةِ الصِّلةِ والجُملةِ الوصفيَّةِ عَلى سبيلِ المِثالِ:

مررْتُ برجلٍ يضحكُ، فالجملةُ الوصفيَّةُ (يَضحكُ) في محلِّ جرٍّ صفةٌ لرجُلٍ، ومِنَ المُمكنِ أن نؤوِّلَها: برجُلٍ ضاحكٍ، فَهِيَ جُملةٌ لَها محلٌّ مِنَ الإعرابِ.

مررْتُ بـالرَّجلِ الَّذي يَضحكُ، فجُملةُ الصِّلةِ لا يُمكنُ تأويلُها بالمُفردِ هكَذا: (الَّذي ضاحِكٌ)، فَهِيَ لا محلَّ لَها مِنَ الإعرابِ على هَذا المقياسِ، وبـالتالي فَهِيَ لا تأخُذُ حُكمًا إعرابيًّا.

هَذا توضيحٌ تقريبيٌّ لمَعْنى (جملةٌ لا مَحلَّ لَها مِنَ الإعرابِ).

لنْ أُعدِّدَ الجملَ الَّتي لا محلَّ لَها مِنَ الإعرابِ فَهِيَ مذكورةٌ في

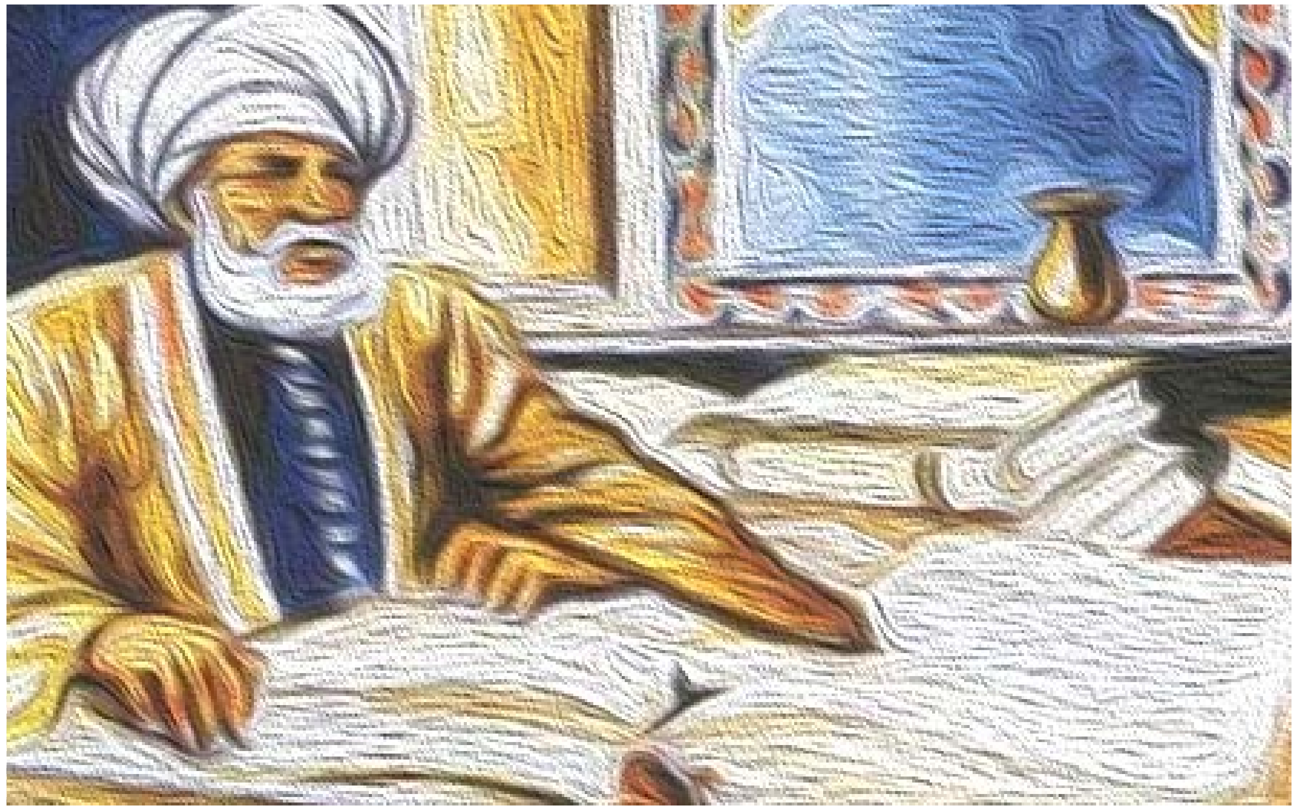

كتبِ النَّحوِ عَلى اختلافٍ في عددِها هل هِيَ اثنتا عشْرةَ كما يذهبُ أبو حيَّانَ الأندلسيّ (ت٧٤٥هـ) في (ارتشافِ الضَّرَبِ من لسانِ العَرَبِ)، أم هِيَ سبعٌ كما يذهبُ ابنُ هشامَ (ت ٧٦١هـ) في (مُغني اللَّبيبِ)؟

وهُناكَ اختلافٌ آخرُ في اعتبارِ بَعْضِ هَذِهِ الجملِ ضمنَ الجُملِ الَّتي لَها محلٌّ مِنَ الإعرابِ، فهَذا ابنُ هشامٍ يوردُ رأيًا لعالمٍ لا يذكُرُه في جملةِ صلةِ الموصولِ، حَيثُ يذهبُ صاحبُ هذا الرَّأيِ إلى أنَّ صِلةَ الموصولِ لها محلٌّ مِنَ الإعرابِ، لكنَّ ابنَ هشامٍ يختلِفُ معه: (... «جاءَ الَّذي قامَ أبوه»، فالَّذي في موضِعِ رفعٍ، والصلةُ لا محلَّ لها، وبلَغني عَنْ بعضِهِم أنَّهُ كان يُلقِّنُ أصحابَه أنْ يقولوا: إنَّ الموصولَ وصلتَهُ في موضِعِ كَذا؛ مُحتجًّا بأنَّهما ككلمةٍ واحدةٍ، والحقُّ ما قدَّمْتُ لكَ.. إلخ). ابنُ هشام، مغني اللبيبِ، ت: محمَّد محيي الدِّين عبد الحميد، ج: ٢، ص: ٤٠٩.

فهَذا مثالٌ واحدٌ عَلى الاختلافِ في جُملةِ صلةِ الموصولِ، ومِنَ المُحتملِ أنَّنا سنقعُ عَلى آراءٍ مُختلفةٍ في إعرابِ الجملِ الأخرى كالجُملةِ المؤكِّدةِ؛ وجُملةِ جوابِ القسمِ، والجُملةِ التَّفسيريَّةِ، والجملةِ الابتدائيَّةِ لو توسَّعْنا في البحثِ، إلَّا أنَّ هَذا الاختلافَ يُناقِشُ أجزاءَ المُصطلحِ، ولا يرفُضُ المُصطلحَ نفسَهُ، وبـالطَّبعِ فإنَّ هَذِهِ الآراءَ المُختلفةَ بَينَ النُّحاةِ تحتاجُ في فحصِها وتحقيقِها إلى (وقوفِ شحيحٍ ضاعَ في التُّربِ خاتمُهُ)، وأنا لا يَشغلُني البحثُ عَنِ الخواتمِ الضَّائعةِ، ولكنْ وجودُ مثلِ هَذِهِ المُناقشاتِ بَينَ القَبولِ والرَّدِّ في أجزاءِ المُصطلحِ ينبئُ عَنْ أنَّ وراءَ الأكَمَةِ ما وراءَها مِن آراءٍ نحويَّةٍ إنْ لَمْ تُزلزِلْ كيانَ هَذا المُصطلحِ، فَقَدْ تُعيدُ النَّظرَ في مُسمَّاهُ الاعتباريِّ.

للجملةِ وظيفةٌ ضِمنَ سياقِ التَّركيبِ تقومُ عَلى خِدمةِ المَعْنى العامِّ، والإعـرابُ والمَعْنى بينَهما تلازمٌ كبيرٌ، فكَيفَ نقبلُ في الجُملةِ مصطَلَحَ (لا مَحلَّ لها مِنَ الإعرابِ) وقَدْ أدَّتْ وظيفتَها، بدليلِ لو تمَّ حذفُها لاختلفَ المَعْنى عَنِ السَّابقِ؟!

وأقوى دليلٍ عَلى هَذا بيتُ طَرفةَ بنِ العبدِ الشَّهيرِ:

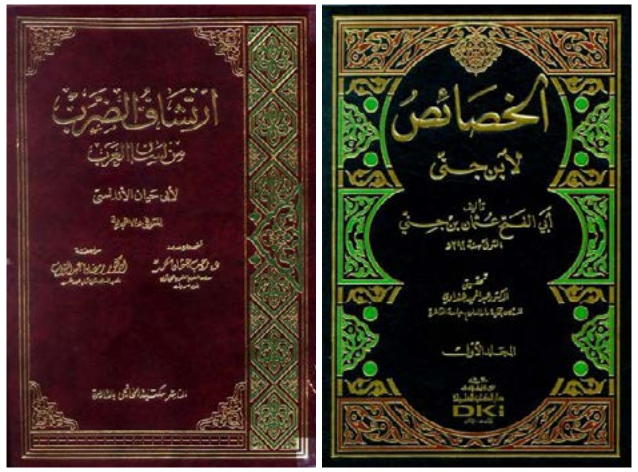

فسقى بلادَكَ - غيرَ مُفسدِها
صَوبُ الغَمامِ، ودِيـمـةٌ تَهمي

هَذِهِ الجملةُ الاحترازيَّةُ (غير مفسدها)، الَّتي تعدُّ نحويًّا جملةً لا محلَّ لَها مِنَ الإعرابِ، فَهِيَ معترضةٌ بَينَ المفعولِ بِهِ والفاعلِ، لو تمَّ حذفُها لتحوَّلَ مَعْنى الخيرِ إلى الضِّدِّ وهُوَ الخرابُ، فبقاؤُها في البَيْتِ الشِّعريِّ ضروريٌّ لإبانةِ المعنى، ولا يُمكنُ الاستغناءُ عَنْهُا. وهكَذا الحالُ في بقيَّةِ الجُملِ الَّتي وضَعوا لهَا هَذا المصطلحَ المبهَمَ، فَهِيَ جملٌ تُضفي مَعْنًى في السِّياقِ، وبما أنَّها تؤدِّي وظيفةً فلها نصيبٌ مِنَ الإعرابِ الَّذي يميِّزُها عَنْ غيرِها، ألَيسَ الإعرابُ فرعَ المعنى؟

تواشُجُ الإعرابِ والمَعنى

أفردَ ابنُ جنِّي (٣٩٢هـ) في كتابهِ الخصائصِ بابًا سمَّاه: (في تجاذبِ المعاني والإعرابِ) مؤكِّدًا هَذا التَّلازمَ، كما أنَّه عرَّفَ الإعرابَ وقالَ: «هو الإبانةُ عَنِ المعاني بالألفاظِ، ألا ترى أنَّكَ إذا سمعتَ: أكرمَ سعيدٌ أباهُ، وشكرَ سعيدًا أبوهُ، علِمتَ برفعِ أحدِهما ونصبِ الآخرِ الفاعلَ مِنَ المفعولِ، ولو كانَ الكلامُ شرَجًا (نوعًا) واحدًا لاستُبهِمَ أحدُهما من صاحبِه». ابنُ جنِّي، الخصائص، ت: محمَّد عليّ النَّجار، ج: ١، ص: ٣٥.

ابنُ جنِّي جعلَ الإبانةَ عَنِ المعاني عُنصرًا مهمًا في التَّعريفِ، وهَذا يَعني أنَّ اقتصارَ مفهومِ الإعرابِ عَلى إظهارِ العلامةِ فقطْ،

أوِ البحثِ عَنِ الحالةِ رفعًا أَوْ نصبًا أَوْ جزمًا، مفهومٌ ناقِصٌ ما لَمْ نضعِ اعتبارًا لِلمَعْنى الّذي تؤدِّيه أيّةُ جملةٍ.

ولكِنْ هل لِلإعرابِ مقاصدُ أخرى حينما قالوا: (لا محلَّ لَها مِنَ الإعرابِ)؟

بالعودةِ إلى بحثِ د. ليث الوائلي، ود. سلام الزّبيدي، اللّذينِ أشارا إلى جملةِ مقاصدِ التّعريفاتِ، نجدُ أنّهما توصّلا إلى أربعةِ تعريفاتٍ، وهيَ:

الإعراب: عمليّةُ إظهارِ الحركاتِ عَلى آخرِ الكلمِ الّتي يُحدثُها العامِلُ، ويَدخلُ في ذَلِكَ تمييزُ المُعرب مِنَ المبنيّ.

الإعراب: العلاقةُ القائمةُ بَينَ الحركاتِ والمعنى، ويدخلُ في ذَلِكَ إشاراتُ السِّياقِ وأغراضُ المتكلِّمين.

الإعراب: بيانُ الوظيفةِ لعناصرِ التّركيبِ، مِنَ (الفاعِليّةِ والمفعوليّةِ..).

الإعراب: العمليّةُ التّركيبيّةُ القائمةُ عَلى مفهومِ البناءِ أَوِ الإسنادِ، وهيَ عمليّةٌ تحليليّةٌ تعتمدُ المفهومَ المنطقيَّ في تحليلِ أجزاءِ الكلامِ وجلْبِ المَقولاتِ وعرْضِ مفهومِ الجملةِ الفعليّةِ والاسميّةِ.

وإذا حاولْنا تطبيقَ مفهومِ مصطلحِ (لا محلَّ لَها مِنَ الإعرابِ) عَلى المقاصدِ الأربعةِ فَإنَّ المقصدَ الأوّلَ خارجٌ عَنْها كونَه يتعلّقُ بإعرابِ الكلمةِ لا الجُملِ، والمقصدُ الثّاني ينقُضُ المصطلَحَ؛ لأنَّ المَعْنى طرفٌ أساسٌ في الإعرابِ، والمقصدُ الثّالثُ ينقضُ المصطلحَ أيضًا؛ ذَلِكَ لأنَّ كُلَّ جملةٍ لها وظيفةٌ في النّصِ؛ أمّا المقصدُ الرّابعُ فَهُوَ يؤكِّدُ الإسنادَ، ونَحْنُ نعرفُ أنَّ الجملةَ تقومُ عَلى الإسنادِ، ومن هنا فإنَّ المُصطلَحَ مِنْ خِلالِ تعريفِ الإعرابِ بالمقاصدِ السّابقةِ فيهِ غموضٌ.

رأيٌ متفرِّدٌ

مِنْ أوائلِ مَن رفضَ مُصطلحَ الجُملِ الّتي لا محلَّ لَها مِنَ الإعرابِ، أبو العَلاءِ المَعرّيّ (ت ٤٤٩هـ)؛ فَهُوَ يرفُضُ أجزاءَ

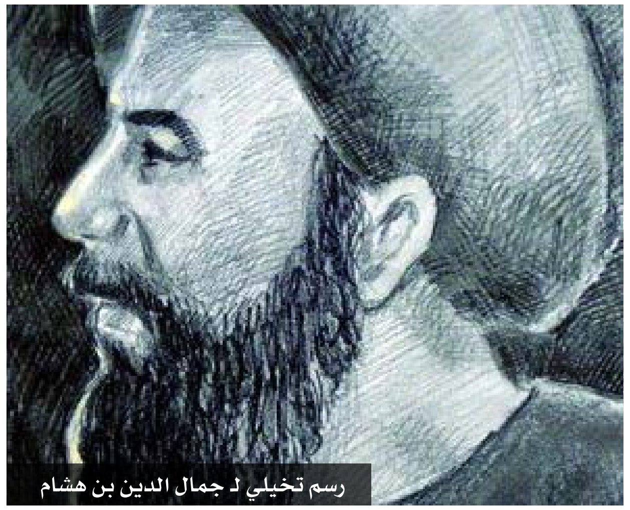
رسم تخيلي لـ جمال الدين بن هشام

المصطلحِ كُلَّها، وقدْ أشارَ الدّكتورُ الهادي الجطلاوي مُستنتجًا، فَقالَ:

«ولعلَّ مِن أبرزِ ما نذكرُهُ في هَذا المقامِ أنَّ أبا العلاءِ لَمْ يتقيَّدْ في مباشَرتِهِ النّحويةِ لشِعْرِ أبي تَمّام بالتقسيمِ الثّنائيِّ النّظريِّ لِلجملةِ المركَّبةِ عِنْدَ العَرَبِ؛ فهُم يرونَ أنَّ مِنَ الجمل ما لَهُ محلٌّ مِنَ الإعرابِ، ومِنْها ما لَيسَ لَهُ محلٌّ مِنَ الإعرابِ.

غيرَ أنّنا لا نجد لهَذا التّقسيمِ صدًى في عمله؛ فجميعُ الجُملِ عِنْدَهُ ذاتُ محلٍّ مِنَ الإعرابِ، عَلى أساسِ أنَّ كلَّ جملةٍ إنّما يُؤتى بِها في الحقيقةِ لتؤدّيَ وظيفةً مُهمّةً في الكلامِ البشريِّ.

وهَذا – والحقُّ يُقالُ– تعديلٌ في مفهومِ الجملةِ المركَّبةِ لَمْ يشهدْهُ النّحوُ العَرَبيّ إلّا حديثًا. الهادي الجطلاوي، خصائصُ الشّروحِ العَرَبيّةِ عَلى ديوانِ أبي تمام، ص: ١٤٩.

هَذا الاستنتاجُ في كشفِ رأيِ المَعرّيّ قَدْ يَكونُ في محلِّهِ، ولكنَّ التّقسيمَ الثّنائيّ لِلجملةِ لَمْ يتحدَّدْ بعدُ في موضوعٍ مُستقلٍّ مِن كتُبِ النّحوِ إلا عِنْدَ المُرادي (ت ٧٤٩هـ) كما أشارَ الدّكتورُ طه مُحسن عبد الرّحمن مِنْ قَبْلُ، ولو أفرَدَ المَعرّيُّ عنوانًا لهَذا المُصطلَحِ لكانَ رأيُهُ جليًّا لا لَبسَ فيهِ، ومع ذَلِكَ لا نستبْعدُ رفْضَ المَعرّيِّ لِلمصطلَحِ، صحيحٌ أنَّ المسألةَ في عصْرِهِ لَمْ تكُنْ ضمنَ التّصنيفِ، ولكنّها كانَتْ مُوزَّعةً، وتَرِدُ ضمنَ التّعليقاتِ والشّروحِ إذا لزِمَ الأمرُ.

نتيجـةٌ

يُمكنُ لنا بَعدَ هَذِهِ الجولةِ في الآراءِ تحليلًا ونقدًا القولُ: إنَّ مصطلَحَ (جملٌ لا محلَّ لَها مِنَ الإعرابِ) فيهِ مِنَ الغموضِ والاضطرابِ، فالجملةُ العَرَبيّةُ تؤدّي وظيفةً في الكلامِ، والوظيفةُ الدّلاليّةُ لِلإعرابِ مسألةٌ جوهريّةٌ، ولا يُمكنُ لنا أن نتخيَّلَ جملةً بلا مَعْنًى إنْ في نفسِها، أَوْ ضِمنَ السّياقِ العامِّ، وحَتّى لو افترضْنا معنًى سالبًا لِلجملةِ، فَهيَ تؤثِّرُ؛ ممّا يجعلُنا نُعيدُ النّظرَ في هَذا المُصطلحِ الاعتباريِّ، وتبقى هَذِهِ النّتيجةُ في صيغةِ تساؤلٍ؛ فالإعرابُ والمَعْنى متلازمانِ، وإنَّهُ لَمِنَ الحيرةِ أنْ نقولَ: لا محلَّ لَها مِنَ الإعرابِ، وقَدْ أدَّتْ معنًى.

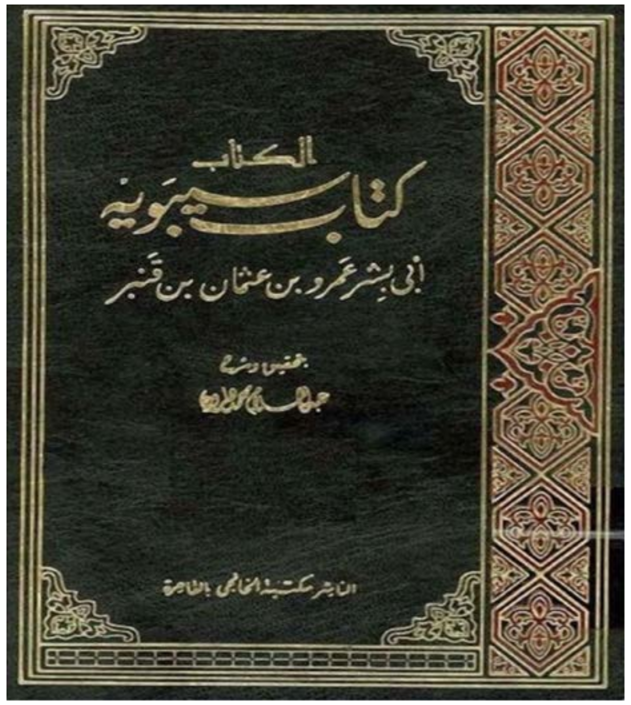

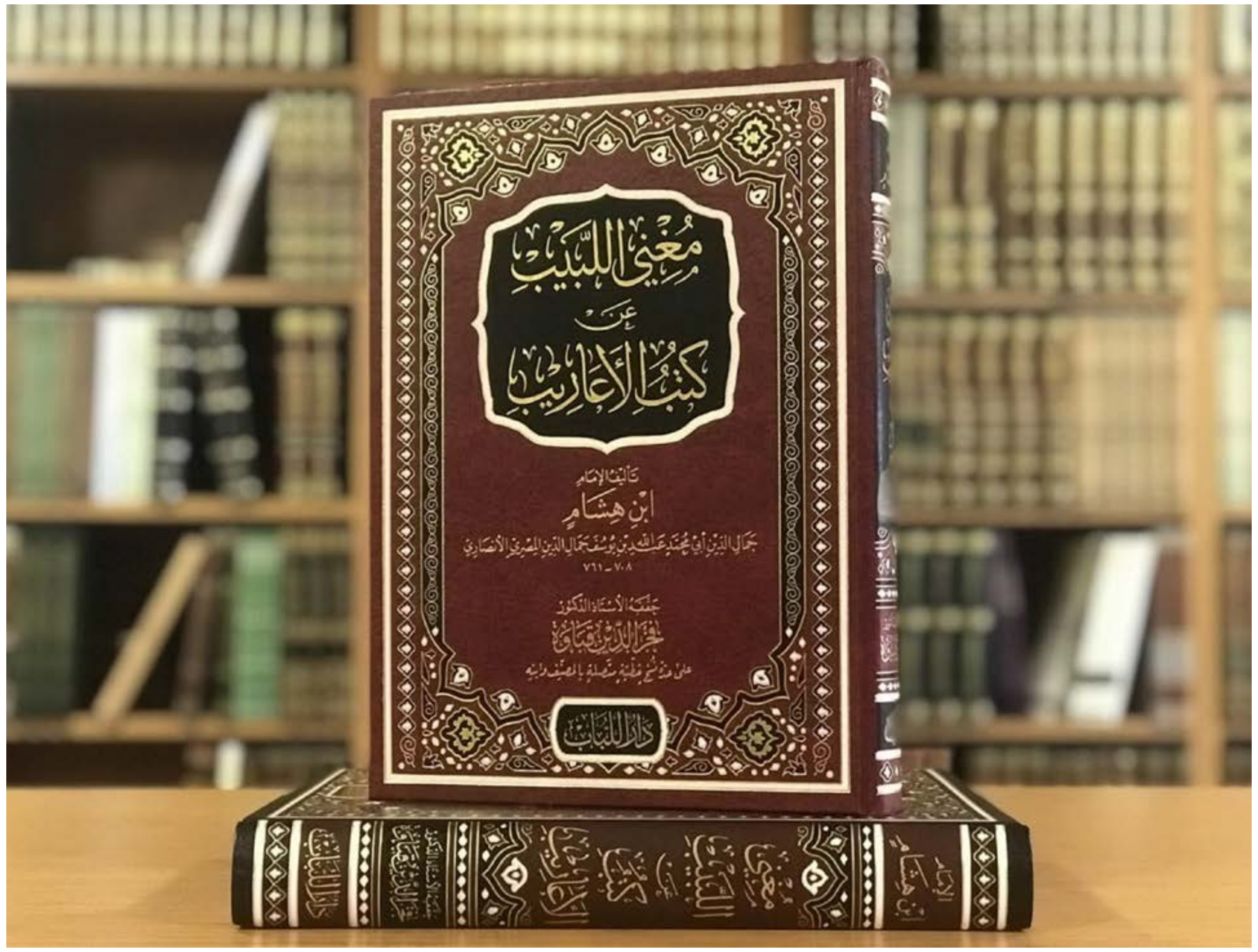

العَرَبـــيّـــةُ
لُـغـةُ الفـطـرةِ

د. عـمـر بــورنــان
جامعة العقيد أكلي محند أولحاج

مدخل: بِسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ، والصّلاةُ والسّلامُ عَلى مُحمَّدٍ خاتَمِ الأنْبياءِ والمُرسلينِ، وعلى آلهِ الطّيبَينَ الطّاهرينَ، وعلى أصْحابِهِ الغُرِّ المَيامينِ، وعلى مَنِ اتَّبعَهُ بإحسانٍ إلى يومِ الدّينِ، أمّا بعدُ:

فَقَدَ لاحظَ بَعْضُ الدّارسينَ أنَّ ثَمّةَ تشابهًا بَينَ اللُّغةِ والكائنِ الحيِّ، من حَيثُ نشأتُها وتطوُّرُها شيئًا فشيئًا، ومِنْ حَيثُ بَعْضُ خَصائصِها، فمِنهُمْ مَنْ يَنسبُ إلَيها أفعالًا مجازًا فيَقولُ: تفعلُ اللُّغةُ كَذا ولا تَفعلُ كَذا، ما يجعلُ القارئَ يتصوَّرُها كائنًا حيًّا يُولَدُ ويَمرُّ عبرَ مراحلَ ليصبحَ كبيرًا، ثُمَّ يُصيبُه الضَّعفُ والهُزالُ وأخيرًا يَموتُ، وهُوَ أثناءَ حياتِهِ يُنجزُ أفعالًا مُخْتلفةً، وبَعضُهُم يذكرُ ذَلِكَ صراحةً كَجُرجي زيدان صاحبِ كتابِ (اللُّغةُ العَرَبيّةُ كائنٌ حيٌّ)، إلّا أنَّ المُحقِّقَ في الموضوعِ، والمُتفحِّصَ في أقوالِ العُلماءِ قديمًا وحديثًا، يَستنتِجُ لا محالةَ أنَّ هَذا الكائنَ الحيَّ هُوَ كائنٌ عاقلٌ، وذَلِكَ أن الأفعالَ المَنسوبةَ إلَيهِ تَحتاجُ قدرًا مِنَ الوعيِ، وشيئًا مِنَ الفِكرِ، ونَصيبًا مِنَ التّأمُّلِ، وقسطًا مِنَ الذّكاءِ، وذَلِكَ لِما أذكُرُ من خصائِصِها في اللّاحِقِ مِنَ المقالِ بإذنِ اللهِ.

الحُرِّيّةُ: لمّا كانَ الإنْسانُ يميلُ إلى الحُرِّيّةِ بفطرتِهِ السّليمةِ، وشاركَهُ الحَيوانُ في ميلِهِ هَذا، لارتكازِها في نُفوسِ المَخلوقاتِ، تَجَسَّدَ ذَلِكَ في نظامِ اللُّغةِ العَربيّةِ الّذي يَسمَحُ لِلكلماتِ بالحركةِ في الجُملةِ بِكُلِّ حُرِّيّةٍ اعتمادًا عَلى ظاهرةِ الإعرابِ، قالَ مهدي المخزوميُّ: «مِنْ خَصائِصِ العَربيّة أنَّ الكلمةَ فيها تَحملُ مَعَها ما يدلُّ عَلى قيمتِها النَّحويّةِ، وأنّ لَها مِنْ أجْلِ ذَلِكَ حُرِّيّةً أوسعَ في التّقديمِ والتّأخيرِ» ولمّا كانَتِ الكلمةُ حُرّةً طليقةً في الجُملةِ، كانَتِ الجملةُ لذَلِكَ حُرّةً طليقةً أيضًا، وفي هَذا يَقولُ رمضانُ عبد التّواب: «لهَذا كُلِّهِ نَرى أنَّ الإعرابَ كانَ مِنَ الأمورِ الّتي تُساعِدُ عَلى حُرِّيّةِ الجُملةِ العَربيّةِ، وأنَّ الجملةَ العَربيّةَ لهَذا السَّببِ كانَتْ تُقالُ بأوجهٍ عدّةٍ» والحَقيقةُ أنَّ نظامَ العَربيّةِ يمنحُ الإنْسانَ (المُتَكَلِّمَ) الحُرِّيّةَ عِنْدَ توظيفِهِ لِلتَّعبيرِ عَنْ أغراضِهِ، وما قالَه مهدي المَخزوميُّ ورمضانُ عبدُ التّوابِ من بابِ المَجازِ، وقَدْ عبَّرَ فاضل صالح السّامرائيُّ عَنِ المَعْنى نفسِهِ تَعبيرًا مُباشرًا فَقالَ: «إنَّ الإعرابَ يُعطي المُتَكلِّمَ سِعةً في التّعبيرِ، وحُرِّيّةً في الكَلامِ ليُقدِّمَ ويُؤخِّرَ

من دونِ لبس، إذ يَبقى الكلامُ مفهومًا، وذلِكَ لِأنَّ المُفردةَ تحملُ مَعَها ما يدلُّ عَلى وظيفتِها اللُّغويّة، وهذا ما حُرمَتْ منْهُ اللُّغاتُ المبنيةُ»، فوافقَ نظامُ اللُّغةِ العَربيَّةِ الفطرةَ الإنْسانيَّةَ السّليمةَ في اتِّصافِهِ بـالحُرِّيَّةِ الّتي فاتَتِ الكثيرَ مِنَ اللُّغاتِ، ولا بدَّ مِنْ أنَّ تِلْكَ السِّمةَ قدْ وافقتْ ميلَ العَربيِّ إلى الحُرِّيَّةِ والعزّةِ، قالَ عَنترةُ بنُ شدّادٍ:

لا تَسْقِني ماءَ الحَياةِ بِذِلَّةٍ
بَلْ فاسْقِني بالعِزِّ كأسَ الحَنْظَلِ
ماءُ الحَياةِ بِذِلَّةٍ كَجَهَنَّمٍ
وَجَهَنَّمٌ بالعِزِّ أَطْيَبُ مَنْزِلِ

التَّضحيةُ: مِنَ الفطرةِ الإنْسانيَّةِ الّتي لا تختلفُ فيها الأممُ، وجوبُ التّضحيةِ بأفرادٍ من أجلِ سلامةِ الأمّةِ، والتّضحيةُ بعضوٍ مِنْ أجلِ سلامةِ الجِسمِ، وهذا عَينُهُ ما تفعلهُ اللُّغةُ العَرَبيَّةُ، إذْ تُضحّي بِبَعْضِ القرائنِ – إنْ لَمْ يؤدِّ ذلِكَ إلى لَبسٍ– للمحافظةِ على قرائنَ أخرى هِيَ أهمُّ مِنْ غيرِها في ذلِكَ السِّياقِ، كأنْ «تُضحّي بِبَعْضِ القوانينِ والقِيَمِ، مِثْلِ التَّضحيةِ بقيمةِ الصِّفةِ فيما أُطلقَ عَليهِ الجَرُّ بالمجاورةِ، وحَذفِ المَفعولِ بِهِ، أوْ عائدِ الصِّلةِ، أوِ المُضافِ إليهِ، أوِ المَخصوصِ بالمدحِ أوِ الذّمِ، أوْ لامِ الفعلِ المُضارعِ مُعتلِّ الآخرِ لغيرِ جازمٍ، في الفَواصلِ القُرآنيّةِ للمحافظةِ عَلى التّناسبِ الصّوتيِّ بينَها»، لذَلِكَ قدْ تُضحِّي العَربيَّةُ بالإعرابِ – مَعَ أهميته وعلوِّ شأنِه– مِنْ أجلِ تحقيقِ مَطلبٍ آخرَ هُوَ أكثرُ أهَمِّيَّةً مِنْهُ في ذلِكَ المقامِ لتأديةِ المَعْنى، أوْ لإلزامِ المستمعِ الحجّةَ، أوْ لجذبِ الانْتباهِ، أوْ للمحافظةِ على جمالِ النَّصِّ، قالَ الباحثُ أحمدُ علم الدِّين الجندي في مقالٍ لَهُ مبررًا الرَّفعَ في (هذانِ) مِنْ قولِهِ تعالى: «قالُوا إِنْ هَذانِ لَساحِرانِ» (طه: ٦٣): «تَضافَرَتْ قرائنُ: البِنيةُ والتّضامُّ والرّتبةُ فأمِنَ اللّبسُ، فأهدرَتِ القرينةُ اللفظيَّةُ، وهِيَ العلامةُ الإعرابيّةُ ولَمْ يَعُدْ لَها مِنَ الأَهمِّيةِ ما يُحتِّمُ الاحْتفاظَ بها، لِتكونَ هُناكَ مناسبةٌ صوتيةٌ في (هذانِ، ساحرانِ، يريدانِ)» وذلِكَ لِأنَّ العَرَبيَّ مُرهفُ السَّمعِ يميلُ بفطرتِهِ إلى الألفاظِ المُتناسبةِ مِنْ حيثُ أصْواتُها وأوزانُها وذلِكَ جليٌّ في أشعارِهِم لا يَخفى.

الشَّجاعةُ: نظرًا لِما تَتَّصفُ بِهِ العَرَبيَّةُ مِنْ قرائنَ لِلإبانةِ، ووسائلَ لِلتَّوضيحِ، وتملكه مِنْ قُدرةٍ عَلى الإفْصاحِ والإيضاحِ، تُمَكِّنُ المُتكلِّمَ مِنَ الإقدامِ عَلى التَّصرُّفِ في كَلِماتِها وجملِها، وذلِكَ ما سمّاهُ ابْنُ جني (شجاعةَ العَربيّةِ) وشرحَ المَقصودَ مِنْها بِقولِهِ: «اعلمْ أنَّ مُعظمَ ذلِكَ إنَّما هُوَ الحَذفُ، والزِّيادةُ، والتَّقديمُ، والتّأخيرُ، والحَملُ عَلى المَعنى، والتَّحريفُ» وذلِكَ لِسعةِ هَذهِ اللُّغةِ، وبُعْدِ غورها، ولُطفِ إشاراتِها، وكثرةِ أدواتِ الإفهامِ فيها، ودلالةِ بَعْضِ مكوِّناتِ جُملِها عَلى بَعضٍ، ما يَتيحُ لِلمُتكلِّمِ الحَذفَ والزِّيادةَ والتّقديمَ والتّأخيرَ وغيرَ ذلِكَ، ويساعِدُ في الوقتِ نفسِهِ المُستمِعَ عَلى فهمِ مرادِهِ دونَ أيِّ لَبسٍ أوْ إبهامٍ، وإنْ كانَتِ اللُّغةُ العَرَبيَّةُ تُوصفُ بالشَّجاعةِ مِنْ أجلِ هَذِهِ الخاصيَّةِ، فَإنَّ ذلِكَ دَليلٌ عَلى شَجاعةِ العَرَبيِّ، وقدْ أكثرَ الشُّعراءُ مِنَ الفَخرِ بشجاعتِهِمْ، كقولِ عمرو بنِ كلثوم:

وَأَنّا النّازِلونَ بِكُلِّ ثَغْرٍ
يَخافُ النّازِلونَ بِهِ المَنونا

وقولِ أبي فراس الحَمدانيِّ:

وَنَحْنُ أُناسٌ لا تَوَسُّطَ عِنْدَنا
لَنا الصَّدرُ دونَ العالَمينَ أَوِ القَبرُ

وذلِكَ مُقتضى الفِطرةِ السَّليمةِ لتتمكَّنَ الأُمّةُ مِنَ الدِّفاعِ عَنْ مُقوِّماتِها والذَّودِ عَنْ كيانِها، ولا تكونُ الشَّجاعةُ في شَخصٍ إلّا لِوجودِ الثِّقةِ في النّفسِ، ولا يَثِقُ في نفسِهِ إلّا بَعدَ علمِهِ بقدرتِهِ عَلى ما هُوَ مُقبلٌ عليهِ، وكلُّ ذلِكَ يَصدقُ عَلى اللُّغةِ العَرَبيَّةِ، إذ تُتيحُ لِلمُتكلِّمِ الحذفَ، والتّقديمَ والتَّأخيرَ، والحَملَ عَلى المَعْنى والحَملَ عَلى اللَّفظِ، والتَّحريفَ وما شابَهَ ذلِكَ، ثقةً مِنْها بأنَّها قادرةٌ عَلى إيضاحِ المَعْنى لِثَراءِ نظامِها وتَعدُّدِ وسائلِ التَّبيينِ عِنْدَها.

الاقتصادُ: يَميلُ الإنْسانُ ذو الفِطرةِ السَّليمةِ إلى الإنفاقِ عَلى نفسِهِ وأهلِهِ، ويعملُ في الوقتِ نفسِهِ عَلى المُحافظةِ عَلى مالِهِ، ولا يَتحقّقُ لَهُ الأمرانِ إلّا بـالتزامِ الوسطِ، فَلا يُسرفُ ولا يَبخلُ، وذلِكَ هُوَ الاقتصادُ في الإنفاقِ الّذي أمَرَ بِهِ اللهُ تعالى نَبيَّهُ صَلّى اللهُ عَليهِ وسلَّمَ فقالَ: «وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا» (الإسراء: ٢٩) ومَدَحَ بِهِ المؤمنينَ فَقالَ عزَّ وجلَّ: «والَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوامًا» (الفرقان: ٦٧)، وذلِكَ ما حقّقتْهُ اللُّغةُ العَرَبيَّةُ في الاستعمالِ، إذْ تُعبِّرُ عَنِ المَعاني بأقلِّ عَدَدٍ مِنَ الكلماتِ حِفاظًا عَلى جهدِ المُتكلِّمِ، وتجنُّبًا لتشتُّتِ فِكرِ المُستمعِ، ومِنَ الأمثلةِ عَلى هَذا الاقتصادِ اللُّغويِّ أنَّها لا تَجمعُ بَيْنَ (أل) التَّعريفِ والإضافةِ، ولا بَيْنَ علامتَي تأنيثٍ، ولا بَيْنَ حَرفَي عطفٍ، ولا تُتْبِعُ علامةَ تأكيدٍ علامةَ تأكيدٍ وما شابَهَ ذَلِكَ، كَما أنَّها تَلجأُ في كَثيرٍ مِنَ المواضعِ إلى الحذفِ والإضمارِ لتحقيقِ مبدأ الاقتصادِ.

الاستعارةُ: مِمّا هُوَ مَركوزٌ في الطّبيعةِ البَشريّةِ السَّويّةِ، والسَّجيّةِ الإنْسانيّةِ البريئةِ، مُساعدةُ الجارِ جارَهُ، وتزويدُهُ بِما يَحتاجُهُ، وطلبُ المَعونةِ مِنْهُ دونَ انقباضٍ أوْ خجلٍ أوْ حياءٍ، لِقُوّةِ ترابطِ حَبلِ المودّةِ بَيْنَ الجيرانِ، وزوالِ الحَواجزِ بَينَهُمْ وارتفاعِهِمْ إلى درجةِ الإخوانِ، وقدْ كانَ الإحسانُ إلى الجيرانِ مِنْ مَفاخرِ العَربِ، وفي هَذا يَقولُ السّموألُ:

تُعَيِّرُنا أَنّا قَليلٌ عَديدُنا
فَقُلْتُ لَها: إِنَّ الكِرامَ قَليلُ
وَما ضَرَّنا أَنّا قَليلٌ وَجارُنا
عَزيزٌ وَجارُ الأَكْثَرينَ ذَليلُ

هَذِهِ الخصلةُ الحميدةُ، والخلّةُ الطَّيّبةُ موجودةٌ في اللُّغةِ العَرَبيَّةِ، إذْ نجدُ ألفاظَها تَستعيرُ معاني بَعضِها بَعضًا، كَما يَستعيرُ الجارُ مِنْ جارِهِ بَعْضَ أغراضِهِ، وذلِكَ ما بيّنَهُ البلاغيّونَ بـالتَّفصيلِ في بابِ الاستعارةِ، قالَ ابنُ الأثيرِ: «المُشاركةُ بَيْنَ اللفظينِ في نقلِ المَعْنى مِنْ أحَدِهِما إلى الآخرِ كالمعرفةِ بَيْنَ الشَّخصَينِ في نقلِ الشَّيءِ المستعارِ مِن أحدهما إلى الآخرِ»، فوافقتِ اللُّغةُ العَرَبيَّةُ في استعارةِ ألفاظِها المعانيَ بعضِها مِن بَعْضِ الفطرةِ الإنْسانيّةِ، فكأنَّها مُجتمعٌ مُنظَّمٌ تَنْظيمًا دقيقًا.

التَّأثُّرُ بالمجاورةِ: رَأينا في العُنصرِ السّابقِ أنَ العَرَبيّةَ تتماشى والفطرةَ البَشريَّةَ في استعارةِ الألفاظِ المعانيَ بعضِها مِن بعضٍ، ولما رسخَتْ فيها هَذِهِ الصِّفةُ، وتحقّقَتْ تحقّقًا تامًّا حَتّى أصْبحَتْ مِنَ المسائلِ المشهورةِ فيها المَعلومةِ بـالضَّرورةِ عِنْدَ مَنْ لَهُ أدْنى معرفةٍ بِسُنَنِ العَربِ في كلامِها، تَجاوزَتْها إلى ما هُوَ أكثرُ مِنْها التحامًا بـالجارِ، فأصْبحَتْ ألفاظُها يَتأثَّرُ الجارُ مِنْها بجارِهِ في الإعرابِ والحَركاتِ والوزنِ الصَّرفيِّ كَما يَتأثَّرُ الجارُ مِنَ البَشرِ بجارِهِ في أخلاقِهِ وتصرُّفاتِهِ، وذلِكَ كقولِهِمْ: (هَذا جُحْرُ ضَبٍّ خَربٍ)، و(هَنَأَني ومَرَأني) والأصلُ: أمْرَأني، و(هو رِجْسٌ نِجْسٌ) بكسرِ النّونِ وسكونِ الجيمِ، والأصلُ (نَجِس) وفي الحَديثِ: (ارْجِعْنَ مَأزوراتٍ غَيرَ مَأجوراتٍ) والأصل (مَوزورات) بالواوِ؛ لأنَّهُ مِنَ الوزرِ وغيرُها كَثيرٌ.

الاقتراضُ: لا تَتوقّفُ العَرَبيَّةُ عِنْدَ استعارةِ ألفاظِها المعانيَ بَعضِها من بعضٍ، وإنَّما تتجاوزُ ذَلِكَ إلى استيرادِها كلماتٍ هِيَ في حاجةٍ إليها مِن لغاتٍ أجْنَبِيّةٍ عَنْها، وذلِكَ ما تُقرُّهُ الفِطرةُ الإنْسانيَّةُ، إذْ يَستوردُ المُجْتَمعُ ما لا يَملكُهُ كالخُبراتِ والآلاتِ والأغذيةِ والألبسةِ مِنَ المُجْتَمعاتِ الأخْرى في إطارِ التّعاملِ الإنْسانيِّ القائمِ عَلى المَحبّةِ والتّعاونِ، ولا عَيبَ في ذَلِكَ ولا ضررَ، بَل وجعلَتِ العَرَبيَّةُ تِلْكَ الكلماتِ المُقترضةَ بَعدَ إخضاعِها لِنظامِها عَربيّةً اعتمادًا عَلى مبدأ «ما قيسَ عَلى كَلامِ العَربِ فَهُوَ مِنْ كَلامِ العَربِ» مِنْ ذَلِكَ: البُستانُ والدِّينارُ والبُندقُ والدَّورقُ والبِطيخُ والطَّيلسانُ وغيرُها.

الحياءُ: مِنَ الأخلاقِ الّتي تستوجبُها الفطرةُ السَّليمةُ الحياءُ، وهُوَ أشهرُ مِنْ أنْ أبَيِّنَ أهميتَهُ أوْ أنْ أذكرَ فَضلَ صاحبِهِ، واللُّغةُ العَرَبيَّةُ لُغةٌ حَيِيَّةٌ تَنفِرُ مِنَ الكلماتِ الفاحشةِ، والعباراتِ السّاقطةِ، والأساليبِ السّوقيّةِ البَذيئةِ، فَإنِ احتاجَ المُتَكلِّمُ بِها إلى التَّعبيرِ عَنْ مَعْنًى يُستحى مِن ذِكرِهِ، ذَلَّلَتْ لَهُ السَّبيلَ بتوجيهِ عبارتِهِ إلى ترْكِ التَّصريحِ إلى التّلميحِ، وفَتَحَتْ لَهُ بابَ الكِنايةِ عَنِ المَعنى الّذي يُريدُه بلفظٍ مُتَقبَّلٍ، وذلِكَ ما نَجدُهُ في كثيرٍ من آياتِ القُرآنِ الكريمِ، قالَ ابْنُ أبي الأصبعِ مُعرِّفًا الكِنايةَ: «وهِيَ أنْ يُعبِّرَ المُتكلِّمُ عَنِ المَعْنى القبيحِ باللَّفظِ الحَسنِ، وعَنِ الفاحشِ بـالطّاهِرِ، كَقولِهِ سُبحانَهُ: «كانا يأكلانِ الطَّعامَ» كِنايةً عَنِ الحَدَثِ. وكَقولِهِ تعالى: «أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغائِطِ» كنايةً عَنْ قضاءِ الحاجةِ، وكقولِهِ: « وَلَكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا» كنايةً عَنِ الجماعِ» ويَحصلُ المَعنى المُرادُ بالكِنايةِ دونَ المَساسِ بشعورِ المُستمعِ أوِ الإساءةِ إلى حِسِّهِ خاصَّةً إنْ كانَ الخطابُ مُوجَّهًا إلى مُستمعينَ يَستحي بَعضُهم مِنْ بَعضٍ.

التَّسامُح: لِلُغةِ قواعدُ صوتيَّةٌ وصرفيَّةٌ ونحويَّةٌ يَحترِمُها المُتكلِّم عِنْدَ مُخاطبتِه غيرَه، تِلْك القواعدُ هِيَ الّتي تمكِّنُ المستمعَ مِنَ الفَهم، غيرَ أنَّ اللُّغةَ العَربيَّةَ تتسامحُ في كثيرٍ مِنَ الحالاتِ الّتي يُخالِفُ فيها المُتكلِّمُ قواعدَها لمساعدتِه على تحقيقِ هدفٍ جماليٍّ في أغلبِ الحالاتِ، فتتسامحُ مَعَ الشّاعِرِ ليُحافِظَ على وزنِ قصيدتِه وقافيةِ بيتِه، لِذَلِكَ قيلَ: «قد يَجوزُ لِلشّاعِرِ مِنَ الكلامِ ما لا يَجوزُ لغيرِه لا للاضطرارِ إليه، ولكنْ للاتساعِ فيه، واتِّفاقِ أهْلِه عَليه، فَيحذفونَ ويَزيدونَ»، ومِمّا تتسامحُ فيه اللُّغةُ في الشِّعرِ: صرفُ ما لا ينصرفُ، وحذفُ ما لا يُحذَفُ، ومَدُّ مِثلِ مساجد ومنابر فيقولونَ: مساجيدُ ومنابيرُ وغيرُ ذَلِكَ كثيرٌ، هَذا التَّسامحُ الّذي تَتَميَّزُ به اللُّغةُ العَربيَّةُ ميزةٌ إنسانيَّةٌ فطريَّةٌ، تغنَّى بها الشّعراءُ العَرَبُ إذ قالَ خفافُ بنُ ندبةَ السَّلميُّ:

وَأصفَحُ عَمَّنْ لَو أشاءُ جَزَيتُهُ — فَيَمنَعُني رُشدي ويُدرِكُني حُلْمي
وَأغفِرُ للمولى وإنْ ذو عظيمةٍ — على البَغيِ منها لا يَضيقُ بها جُرمي
فَهَذي فِعالي ما بَقيتُ وإنَّني — لَموصٍ بها عَقبي وقَومي وذا رَحمي

خاتمة: هَذِه كلمةٌ مختصرةٌ، ومقالةٌ مقتضبةٌ، ومُحاولةٌ بَسيطةٌ، أردتُ مِنْ خلالها بيانَ مُسايرةِ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ للفطرةِ السَّليمةِ الّتي اكتسبتْها مِنْ أخلاقِ العَرَبِ بصفةٍ عامَّةٍ، إذِ اللُّغةُ في حقيقةِ أمرِها مرآةٌ عاكسةٌ لِلمُجتمعِ، وصورةٌ واضحةٌ عَنْهُ تكشفُ ثقافتَهُ ومبادئَهُ، مِنْ خِلالِ كثرةِ نوعٍ مِنَ الألفاظِ وقلّةِ نوعٍ آخرَ، ووجودِ نمطٍ مِنَ التَّراكيبِ وانْعدامِ نمطٍ، كُلُّ ذَلِكَ راجعٌ في الأساسِ إلى طريقةِ تفكيرِ أفرادِ ذَلِكَ المُجتمعِ، وسأُشيرُ في النّقاطِ الآتيةِ إلى أهمِّ ما ذكرتُهُ في هَذا المَقالِ بلفظٍ مُختصرٍ ليسهُلَ عَلى القارئِ الكريمِ الإلمامُ بزُبدةِ ما أشرتُ إليه:

١. تَتَميَّزُ اللُّغةُ العَرَبيَّةُ بِالحُرِّيَّةِ لِسعةِ نظامِها وكثرةِ قرائنِ الإبانةِ فيها، فَلا يَجِدُ المُتكلِّمُ بها حرجًا في التَّعبيرِ عمّا في نَفْسِه.

٢. تُوافِقُ اللُّغةُ العَربيَّةُ الفطرةَ الّتي جُبِلَ عَليها البَشرُ في

تَضحيتِها بِبَعْضِ القرائنِ مِنْ أجلِ تَحقيقِ هدفٍ ما، غالِبًا ما يَكونُ جماليًّا، وذَلِكَ في حالةِ أمْنِ اللَّبسِ.

٣. تُقدِمُ العَرَبيَّةُ بكلِّ شجاعةٍ على الحَذفِ والتَّقديمِ والتَّأخيرِ والتَّحريفِ وغيرِ ذَلِكَ، ثقةً مِنْها بقدرتها على الإفهامِ.

٤. تَقْتَصِدُ اللُّغةُ العَرَبيَّةُ قدرَ الإمْكانِ، إذْ تُؤدِّي المَعْنى بأقلِّ عددٍ مُمكنٍ مِنَ الألْفاظِ، وتِلْكَ ميزةٌ فطريَّةٌ في البَشَرِ.

٥. تَستعيرُ ألفاظُ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ المَعاني بَعضها مِنْ بَعْضٍ كَما يَستعيرُ الأشْخاصُ الأشياءَ بعضُهُم مِنْ بَعضٍ، وذَلِكَ دَلالةٌ عَلى مُوافقتِها الفِطرةَ الإنْسانيَّةَ.

٦. تَتأثَّرُ ألفاظُ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ بَعضُها بِبَعْضٍ كَما يَتأثَّرُ الصَّاحِبُ بِصاحِبِه والجارُ بِجارِه، وتِلْكَ ميزةٌ أُخْرى تُوافِقُ الفِطرةَ الإنْسانيَّةَ.

٧. تَقترِضُ اللُّغةُ العَرَبيَّةُ الألفاظَ مِنْ لُغاتٍ أُخرى كَما تَستوردُ الدُّوَلُ ما لا تَملِكُهُ مِنَ السِّلَعِ، وهَذا تَصرُّفٌ واعٍ ناتِجٌ عَنْ حُسنِ تدبيرٍ، وقُدرةٍ عَلى سَدِّ ما تَحتاجُه مِنْ ألفاظٍ.

٨. تُساعِدُ اللُّغةُ العَرَبيَّةُ المُتَكلِّمَ عَلى تَجنُّبِ ما فَحُشَ مِنَ اللَّفظِ، وتُمَكِّنُهُ مِنَ التَّلميحِ بَدَلًا مِنَ التَّصريحِ، لاتِّصافِها بالحياءِ الخُلُقِ المَحمودِ الّذي هُوَ مِمّا يُفطَرُ عَلَيهِ الإنْسانُ ما لَمْ تَفسُدْ فِطرتُهُ.

٩. تَتَسامَحُ اللُّغةُ العَرَبيَّةُ مَعَ المُتَكلِّمِ والشّاعِرِ خاصَّةً، لِتمكِّنَه مِنَ الحِفاظِ عَلى جَمالِ نَصِّه، وتَمْنَحُهُ فُرصةً لِتَحقيقِ ما يَتَطلَّبُهُ مِنْهُ الإبْداعُ.

هَذِهِ أهمُّ المِيزاتِ الّتي وافقَتْ فيها اللُّغةُ العَرَبيَّةُ الإنْسانَ ذا الفِطرةِ السَّليمةِ، وقَدْ يَكونُ بَعضُها مُشتركًا بَيْنَها وبَينَ لُغاتٍ أخرى، غَيرَ أنِّي استنتجْتُها مِنْ دِراسةِ خَصائصِ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ دُونَ غَيرِها، واللهُ المُوفِّقُ والهادي إلى سَواءِ السَّبيلِ.

فهرس المصادر والمراجع:

- المصحف الشّريف برواية حفص عَنْ عاصم.
- إبراهيم جميل محمد إبراهيم، أثر التّناسب الصّوتي في الإعراب دِراسة تطبيقية عَلى آيات مِنَ القُرْآن الكَريم، ط١. المملكة العَرَبيّة السّعودية: ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، مكتبة المتنبي.
- ابن أبي الأصبع، تحرير التّحبير في صناعة الشّعر والنثر وبيان إعْجاز القُرْآن، تح حفني محمد شرف، دط. القاهرة: دس، المجلس الأعلى لِلشؤون الإسْلاميّة.
- ابن الأثير، ضياء الدّين، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تقديم أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط٢. مصر: دس، دار نهضة مصر للطبع والنشر.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخَصائص، تح محمد علي النّجار، دط. مصر: دس، دار الكتب المصرية.
- ابن عاشور، محمد الطّاهر، تفسير التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسية لِلنشر، دط، تونس، ١٩٨٤م.
- ابن كلثوم، عمرو، ديوان عمرو بن كلثوم، تح إميل بديع يعقوب، ط٢. بيروت: ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، دار الكتاب العَرَبيّ.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدّين، مغني اللبيب عَنْ كتب الأعاريب، تح عبد اللطيف محمد الخطيب، ط١. الكويت: ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، المجلس الوطني لِلثقافة والفنون والأدب.
- أحمد مختار عمر وآخرون، مُعْجَم الصّواب اللّغويّ دليل المثقف العَرَبيّ، ط١. القاهرة: ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، عالم الكتب.
- التبريزي، الخطيب، شرح ديوان عنترة، تقديم مجيد طراد، ط١. بيروت: ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، دار الكتاب العَرَبيّ.
- الجرجاني، علي بن عبد العزيز، الوساطة بيْنَ المُتنبّي وخصومه، تح محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ط١. بيروت: ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، المكتبة العصرية.
- الجندي، أحمد علم الدّين، «علامات الإعراب بيْنَ النَّظَريّة والتّطبيق»، مجلة معهد اللّغة العَرَبيّة جامعة أم القرى، مكة المكرمة، العدد الثّاني ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.
- الجواليقي، أبو منصور موهوب بن أحمد، المعرب مِنَ الكَلام الأعجمي عَلى حُرُوف المُعْجَم، تح ف. عبد الرّحيم، ط١. دمشق: ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، دار القلم لِلطباعة والنشر والتّوزيع.
- حسن مصطفى عبد المعطي، علم نفس النّمو، دط. القاهرة: دس، دار قباء لِلطباعة والنشر والتّوزيع.
- الحمداني، أبو فراس، ديوان أبي فراس الحمداني، شرح خليل الدّويهي، ط٢. بيروت: ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، دار الكتاب العَرَبيّ.
- الخفاجي، شهاب الدّين أحمد بن محمد، شفاء الغليل فيما في كلام العَرَب مِنَ الدّخيل، تح: محمد كشاش، ط١. بيروت: ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، دار الكتب العِلْميّة.
- خفاف بن ندبة السّلمي، شِعْر خفاف بن ندبة السّلمي، جمع وتحقيق نوري حمودي القيسي، دط. بغداد: ١٩٦٧م، مطبعة المعارف.
- رمضان عبد التّواب، فصول في فقه العَرَبيّة، ط٦. القاهرة: ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، مكتبة الخانجي.
- السامرائي، فاضل صالح، الجملة العَرَبيّة والمعنى، ط٢. الأردن: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، دار الفكر.
- السموأل، ديوان السّموأل، تح واضح الصّمد، ط١. بيروت: ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، دار الجيل.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيبويه، تح عبد السّلام محمد هارون، دط. القاهرة: دس، مكتبة الخانجي لِلطباعة والنشر والتّوزيع.
- السيوطي، جلال الدّين، الأشباه والنظائر في النّحو، تح عبد الإله نبهان، دط. دمشق: ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، مطبوعات مجمع اللّغة العَرَبيّة بدمشق.
- القيرواني، القزاز، ما يجوز لِلشاعر في الضّرورة، تح رمضان عبد التّواب وصلاح الدّين الهادي، دط. القاهرة: دس، مطبعة المدني.
- المخزومي، مهدي، في النّحو العَرَبيّ نقد وتوجيه، ط٢. بيروت: ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، دار الرّائد العَرَبيّ.

اللُّـــغــةُ العَـرَبيّـــةُ
وقدرتُها على تَعريبِ التِّقنيّةِ

أميرة الشّناوي كيوان
كاتبة وباحثة تربوية

لُغَتنا كائنٌ حيٌّ، ومِنْ أجلِ أنْ تأخذَ مَكانتَها بَينَ اللُّغاتِ الأجْنَبيّةِ الّتي خَطَت في مِضْمارِ التِّقنيّةِ أشواطًا كبيرةً، وهُوَ تَحوُّلٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ أثرٌ فاعلٌ في بِدايةِ القَرنِ الثّامنَ عشَرَ، فدِراسةُ البَحثِ اللّغويِّ كانَتْ تَعتمِدُ على مسائلَ مُحَدَّدةٍ تتعلّقُ بالبِنيةِ والأسلوبِ، أمّا تاريخُ الدّراسةِ اللّغويّةِ المَنهجيّةِ عِنْدَهُم فَكانَ مَردُّهُ إلى احتِكاكِهم بالشُّعوبِ الأخرى ومَعرفةِ لُغاتِها.

«ومَعَ كثرةِ احتكاكِ الغربيِّينَ بدولِ العالَمِ أخَذَتِ الدِّراسةُ اللغويّةُ في التّقدُّمِ، ومَعَ البِعثاتِ التّبشيريّةِ سادَ البَحثُ اللُّغويُّ، وإحياءُ الدِّراسةِ اللُّغويّةِ والاهْتِمامُ بها، حتّى ظَهَرَ عِلمُ اللُّغةِ الحَديثُ في بِدايةِ القَرنِ التّاسعَ عشَرَ (علم اللُّغة، د/ محمود السّعران طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٢ص٣٥٨).

واستمرَّتْ مَناشطُ البَحثِ العِلْميِّ لِنَشأةِ اللُّغةِ على أساسٍ بَعيدٍ عَنِ الافتِراضِ والحَدسِ، شَأنُها شَأنُ البُحوثِ العِلْميّةِ القائمةِ على إظهارِ الحَقائقِ ذاتِ الوَصفِ الدّقيقِ.

لَقَدْ خَصَّصَ العُلماءُ حِينَئذٍ أنْفسَهم على سَبيلِ التّفرُّغِ لِدراسةِ كُلِّ فرعٍ مِنْ فروعِ اللُّغةِ عَلى حِدةٍ – حَتّى يُتقِنُوهُ، ويَصِلوا فيهِ إلى نَتائجَ يَكونُ لَها المُقوِّماتُ الأساسيّةُ، فَنَهضَتْ بذَلِكَ الدِّراسةُ اللُّغويّةُ حَيثُ اعتمَدَتْ على فروعٍ استكملَتْ بِها تِلْكَ الدِّراسةُ وهِيَ:

عِلمُ الأصْواتِ (الفوناتيك) – وعِلمُ اللَّهجاتِ (الدّياليكتولوجيا) – وعِلمُ الدّلالةِ (السّيمانتيك) – وعِلمُ النّفسِ اللُّغويُّ (السّيكولوجية اللُّغويّة) – وعِلمُ الاجْتِماعِ اللُّغويُّ (السّوسيولوجيا اللُّغويّة) .

أمّا فيما يتعلّقُ بلُغَتِنا فإنَّها أسْهَمَتْ في نُهوضِ الأمّةِ العَرَبيّةِ والإسْلاميّةِ وعَكسَتْ رُقيَّ حضارتِها مِنْ حَيثُ كونُها الوِعاءَ الحافِظَ لتراثِها، ولمّا كانَ لِسانُ الأمّةِ جُزءًا مِنْ وطنيّتِها، أصْبحَ – والحالُ هَذِهِ – الفَيصلَ العادلَ في تَقييمِ واحتِرامِ الآخرينَ لَها مَحلّيًا وقوميًا وعالميًا، فلا غرْوَ، أنْ تَتسنَّمَ مَركزَ الرِّيادةِ بَينَ لُغاتِ الأجانبِ الّتي ظَلَّتْ رَدحًا مِنَ الزّمنِ تَغفُو في ظلامٍ دامسٍ وسُباتٍ عَميقٍ.

تعريف

لَقَدْ عَرّفَ علماؤُنا القُدامى اللُّغةَ بأنّها أصْواتٌ يُعبِّرُ بِها كُلُّ قومٍ عَنْ أغراضِهم، كَما وردَ على لِسانِ ابْنِ جني في الخَصائصِ، فَهِيَ – ضِمنَ هَذا التّعريفِ – تَشمَلُ تُراثًا هائلًا مِنَ القَواعدِ المُعْجَميّةِ والنَّحويّةِ والصّرفيّةِ والدّلاليّةِ في مَجالِها المِعياريِّ.

أما عُلماءُ الاجْتِماعِ فَقَدْ عَرَّفوها بوصفِها نِظامًا مِنْ رموزٍ مَلفوظةٍ عُرفيّةٍ يَتعامَلُ ويَتعاوَنُ بواسطتِها أعضاءُ المَجمُوعةِ الاجْتِماعيّةِ المُعيَّنةِ.

إنّنا حِينَما نَضمُّ جَميعَ التّعريفاتِ اللُّغويّةِ إلى بَعضِها، إضافةً إلى تاريخِ التّرجمةِ والتّعريبِ عِنْدَ الأسلافِ يَسهلُ السَّيرُ في دَربِ تقنيَّتِها، لا سِيّما وأنَّ المُصطلحَ العِلْميَّ اللُّغويَّ إبّانَ القَرنِ العِشرينَ وما يَليهِ أصبحَ مِطواعًا بيدِنا، يَنحو إلى مَنهجٍ لُغويٍّ تَطبيقيٍّ يَستنِدُ بالأساسِ إلى تِقنيّةٍ مُعرَّبةٍ كالّتي حَفلَتْ بِها المَناهجُ في أوروبا بَعدَ نَهضتِها واستعمَلَتِ الأجهزةَ العَمليّةَ والّتي ساعدَتِ الباحثَ إلى الوُصولِ إلى مُبتغاهُ في عَصرِ اعْتَمدَ عَلى الدّرسِ العِلْميِّ التّحليليِّ، المُعتمِدِ على الحَقائقِ، وعلى هَذا الأساسِ «فيُمكِنُ درسُ ظاهِرةٍ لغويّةٍ في لُغةٍ ما بِاستحضارِ العَيِّناتِ اللُّغويّةِ وتَحليلِها والوقوفِ على القَوانِينِ الّتي تَحكُمُها» (علم اللُّغة بَينَ القديمِ والحديثِ، د/ عبد الغفار حامد هلال، الطّبعة الثّانية سنة ١٩٦٨، ص٧١) .

إنَّ بَحثَنا يَنصبُّ عَلى مَفهومِ المُصطلحِ اللّغويِّ الّذي يعدُّ مِفتاحَ العُلومِ التّطبيقيّةِ ومَجمعَ حقائقِها المَعْرفيّةِ في عالمِ المَعلوماتيّةِ.

«وليسَ مِنْ مَسلكٍ يَتوسَّلُ بِهِ الإنْسانُ إلى مَنطقِ العِلمِ غَيرُ ألفاظِهِ الاصْطلاحيّةِ، حَتّى لَكأنّها تَقومُ مِنْ كُلِّ عِلمٍ مَقامَ جِهازٍ مِنَ الدّوالِ لَيستْ مَدلولاتُهُ إلّا مَحاورَ العِلمِ ذاتِهِ ومَضامِينَ قدرِهِ مِن يَقينِ المَعارفِ وحَقيقِ الأقوالِ» (المسدي) قاموس اللّسانيّاتِ ص١١).

إذًا لا مَندوحةَ مِنَ اسْتِخْدامِ المُصطلحاتِ فَهِيَ لُغةُ العِلمِ،

وليسَ المُصْطلحُ عِندَ العربِ حديثًا فقدْ ظَهرَ أمرُهُ عَلى يدِ إمامِ النحوِ سيبويهِ الَّذي ضَمَّنَهُ أوَّلَ منظومةٍ متكاملةٍ مِنَ المُصْطلحاتِ ويكفينا الدِّراساتُ الَّتي قامَ بها الخليلُ في (العَينِ)، وسيبويهِ في (الكِتابِ)، وأبو عليٍّ الفارسيُّ في كتبِهِ، وتلميذُه أبو الفتحِ عُثمانُ بْنُ جنِّي الَّذي استطاعَ بعقلِهِ الفَذِّ ودراستِهِ العِلْميَّةِ أنْ يُقيمَ عمدَ الدِّراسةِ العِلْميَّةِ اللُّغويَّةِ، وأنْ يُوطِّدَ أركانَ (عِلمِ اللُّغةِ) بدراستِهِ للصَّوتيَّاتِ، وسَبقَ الأوربيِّينَ بما وصلَ إليْهِ مِن نَتائجَ كأصْواتِ اللِّينِ، ومَقاييسِها، والَّتي سَبقَ بها « دانيالَ جونزَ الإنجليزيَّ » ومعرفتِهِ للفُونيمِ ونظريَّتِهِ قَبْلَ هَذا العالِمِ الأوروبيِّ (علم اللُّغة مرجع سابق ص٥٤، ٥٥) .

وللحقيقةِ فإنَّنا لا نُنكرُ أسبقيَّةَ المُصْطلحِ العِلْميِّ التَّطبيقيِّ عِنْدَ عُلماءِ الغَربِ، في حِينٍ ظَلَّ يراوحُ عِنْدنا في دائرةٍ ضيِّقةٍ لِفقرِنا إلى الآلاتِ الحَديثةِ الَّتي تمكّنَ الغربُ مِنَ الأخْذِ بناصيتِها، يَقولُ دو سوسير: « إنَّ علمَ اللُّغةِ في الغربِ لَمْ يَعدْ موضوعَ إنكارٍ » فالبحوثُ العَربيَّةُ اليومَ نظريَّةٌ أوْ تطبيقيَّةٌ يُعترَفُ بها بحوثًا أكاديميَّةً لَها أهميتُها في ذاتِها، وليسَ ثمَّةَ مُهتمٌّ باللُّغةِ، ابتداءً مِنَ القارئِ العادي إلى المُدرِّسِ إلى مهندسِ الاتِّصالاتِ يمكنُهُ أنْ يَتجاهلَها (سوسير رائد اللُّغة الحديث . د/ محمد محسن عبد العزيز، دار الفِكْرِ العَربيِّ، القاهرة ص١٥٩) .

إنَّ قضيَّةَ تعريبِ التِّقنيَّةِ لَمْ تعدْ إشكاليَّةً في التَّطبيقِ، فالتَّعريبُ حقيقةٌ واقعةٌ لَها تاريخُها، والمُصْطلحُ هُوَ الآخَرُ ولو توفّرتِ الإمكاناتُ في عَهدِهِ السَّحيقِ كما هُوَ الحالُ اليومَ، لأصْبحَتْ لُغتُنا هِيَ السّابقةُ في عالَمِ المَعرفةِ التِّقنيِّ، ولتَمكَّنَّا مِن مَيكنةِ الحَرفِ العَربيِّ وتَصْييرِهِ حَرفًا ضَوئيًّا في عالَمِ النّورِ، ولُغتُنا -كما هُوَ مَعْروفٌ – تُؤمنُ بالتَّطوُّرِ مِنْ حيثُ كونُها تُؤثِّرُ وتتأثَّرُ -إنَّ اللُّغةَ تتغيَّرُ أوْ تتطوَّرُ تحتَ تأثيرِ كُلِّ القوى الَّتي يُمكنُ أنْ تُؤثِّرَ في الألفاظِ أوِ المَعاني، فالتَّطوُّرُ أمرٌ لا مَحيدَ عَنْهُ، وليسَ ثمَّةَ لُغةٌ في العالَمِ تستطيعُ أنْ تُقاومَهُ (سوسير ص١٦٠) .

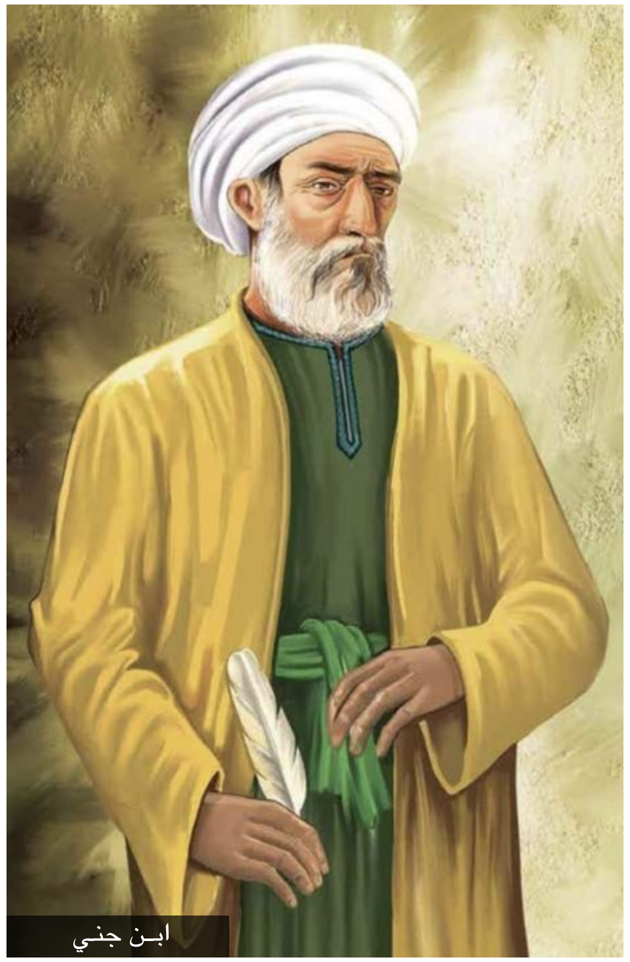
ابـن جنـي

إنَّ التَّطوُّرَ عاملٌ مهمٌّ في إثراءِ اللُّغةِ شريطةَ ألَّا يَمسَّ البُنيةَ التَّحتيَّةَ للُّغةِ، ومِنْ هَذا فإنِّي لا أتَّفقُ مَعَ بَعْضِ الَّذين يَرونَ عِنْدَ مُعالجةِ الجانبِ اللُّغويِّ الآتي:

إهْمالُ التَّشكيلِ كليًا في مَنظومةِ الكِتابةِ العَربيَّةِ، إنَّنا لا نَرى ضَررًا في تِقنيَّةِ اللَّفظةِ المُعربةِ مِنْ تَشكيلِها، وإهمالُ التَّشكيلِ قَدْ يُحدِثُ فَجوةً بَيْنَ مَنهجِ اللُّغةِ النَّظريِّ ومَنهجِها التِّقنيِّ التَّطْبيقيِّ، مَعَ الأخذِ بعينِ الاعتبارِ دِقَّةَ الأجْهزةِ الحاسوبيَّةِ وحَلِّها لِكثيرٍ مِنَ الأمورِ المُستعصيةِ .

أمّا قولُهُم: إعادةُ صياغةِ قَواعِدِ ومبادئِ الصَّرفِ العَربيِّ، والَّذي يَرتكزُ عَليها عِلمُ الأصْواتِ وعِلمُ النَّحوِ وعِلمُ المُعْجَماتِ، فإنِّي أرى أنَّ إعادةَ الصِّياغةِ من شأنها إلغاءُ الكثيرِ مِنَ الأسُسِ الثّابتةِ في هَذينِ الرُّكنينِ الفاعلينِ في لُغتِنا، ففي النَّحوِ يَحصلُ

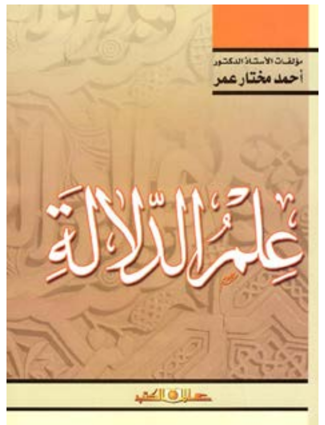

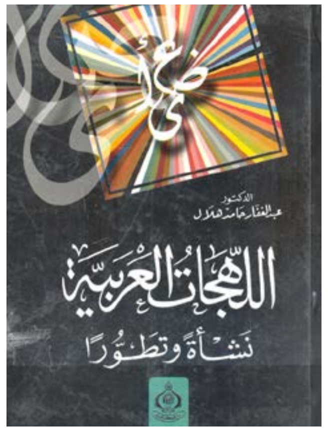

إرباكٌ في السِّياقِ، وقَدْ يُؤدِّي إلى مَعْنًى مُغايرٍ لمُتطلباتِ النَّصِّ، وفي الصَّرفِ تَحصلُ خلخلةٌ في بِناءِ الكلمةِ ومِنْ تَغييرٍ في مِيزانِهِ الصَّرفيِّ، ومِنَ المَعلومِ أنَّ العلاقةَ البَيانيَّةَ والدَّلاليَّةَ مُلازمانِ لِعلمَي النَّحوِ والصَّرفِ .

تَطويرُ المُعْجَمِ العَرَبيِّ

أمّا فيما يتعلّقُ بتَرتيبِ المُعْجَمِ العَربيِّ وتَحديثِهِ وتَطويرِهِ، وإعادةِ صياغتِهِ تَبويبًا ومَضمونًا، وكذَلكَ إغناؤُهُ بالكلماتِ الجَديدةِ المُعرَّبِ مِنْها والدَّخيلِ والمُستحدَثِ، فإنَّنا نرى أنَّ الكثيرَ مِنْ مُعْجَماتِنا الحَديثةِ سارتْ على نَهجٍ يَتماشى والعِلمَ المُعْجَميَّ الحَديثَ من حَيثُ التَّبويبُ والمَضمونُ.

وليسَ بَعيدًا عَنّا جُهودُ المَجامعِ اللُّغويَّةِ في رَفدِ المُعْجَماتِ قديمِها وحَديثِها بالكلماتِ المُعرَّبةِ والدَّخيلةِ والمُستحدثةِ؛ بحَيثُ أصْبحَتْ في تَناولِ يدِ الباحثِ والدّارسِ والطّالبِ المُبتدئِ .

إنَّنا لا نُنكرُ دورَ مُعْجَماتِنا القَديمةِ مِنْ حَيثُ ثروتُها اللُّغويَّةُ، ونُظمُ التَّطبيقِ والتَّعاملِ، مِنْ هَذا كلِّهِ فإنَّ مَسألةَ تَعريبِ التِّقنيَّةِ في عَصرِ المَعلوماتيَّةِ بواسطةِ (الحاسوبِ) لَيسَ بالأمرِ الصَّعبِ، فلُغتُنا تَملكُ مُقوِّماتِ البَقاءِ والتَّحدِّي في عَصرٍ لا يَصحُّ بِهِ إلّا المُتقَنُ الصَّحيحُ، ونَحْنُ قادرونَ عَلى إضفاءِ ثَوبِ التَّحديثِ التِّقنيِّ عَليها مُستندينَ إلى الحَقائقِ الآتيةِ:

شُموليَّتُها لِكُلِّ أنواعِ المَعرفةِ (علومُ اللُّغةِ).

قدرتُها على التَّطوُّرِ والتَّغييرِ مُجاراةً لسُنَّةِ التَّطوُّرِ.

حُصولُها على قَصبِ السَّبقِ في مَسألتَي التَّعريبِ والتَّرجمةِ.

تَنوُّعُ دلالاتِ مُفرداتِها وتَنوُّعُ مَظاهرِها اللُّغويَّةِ مِن (اشتراكٍ، وتَضادٍّ، وحقيقةٍ، وغيرِها)

تَقعيدُها لألفاظِها

دَورُ المَجامعِ اللُّغويَّةِ في مُسايرةِ النَّهضةِ العِلميَّةِ اللُّغويَّةِ الحَديثةِ:

إنَّ الخلاصةَ الَّتي نَستنتجُها مِنْ تعريبِ التِّقنيَّةِ – وما قدمتُهُ بإيجازٍ – هِيَ قُدرتُنا على تَطويعِ آليَّةِ اللُّغةِ لِتُواكبَ عَصرَ الحَضارةِ، ولَنا في تقدُّمِ الأوربيِّينَ في هَذا المِضمارِ حافزٌ للعَملِ نكونُ قَدْ قدَّمْنا لِلُغتِنا القوميَّةِ خدمةً نَتوصَّلُ مِنْ خِلالِها إلى الحَقائقِ، والانْتقالِ مِنَ المُلاحظةِ الشَّخصيَّةِ والتَّذوُّقِ اللُّغويِّ النَّظريِّ إلى عالَمِ المَعلوماتيَّةِ المُتوفِّرِ.

حَوْلَ أَصَالَةِ ومَتَانَةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ

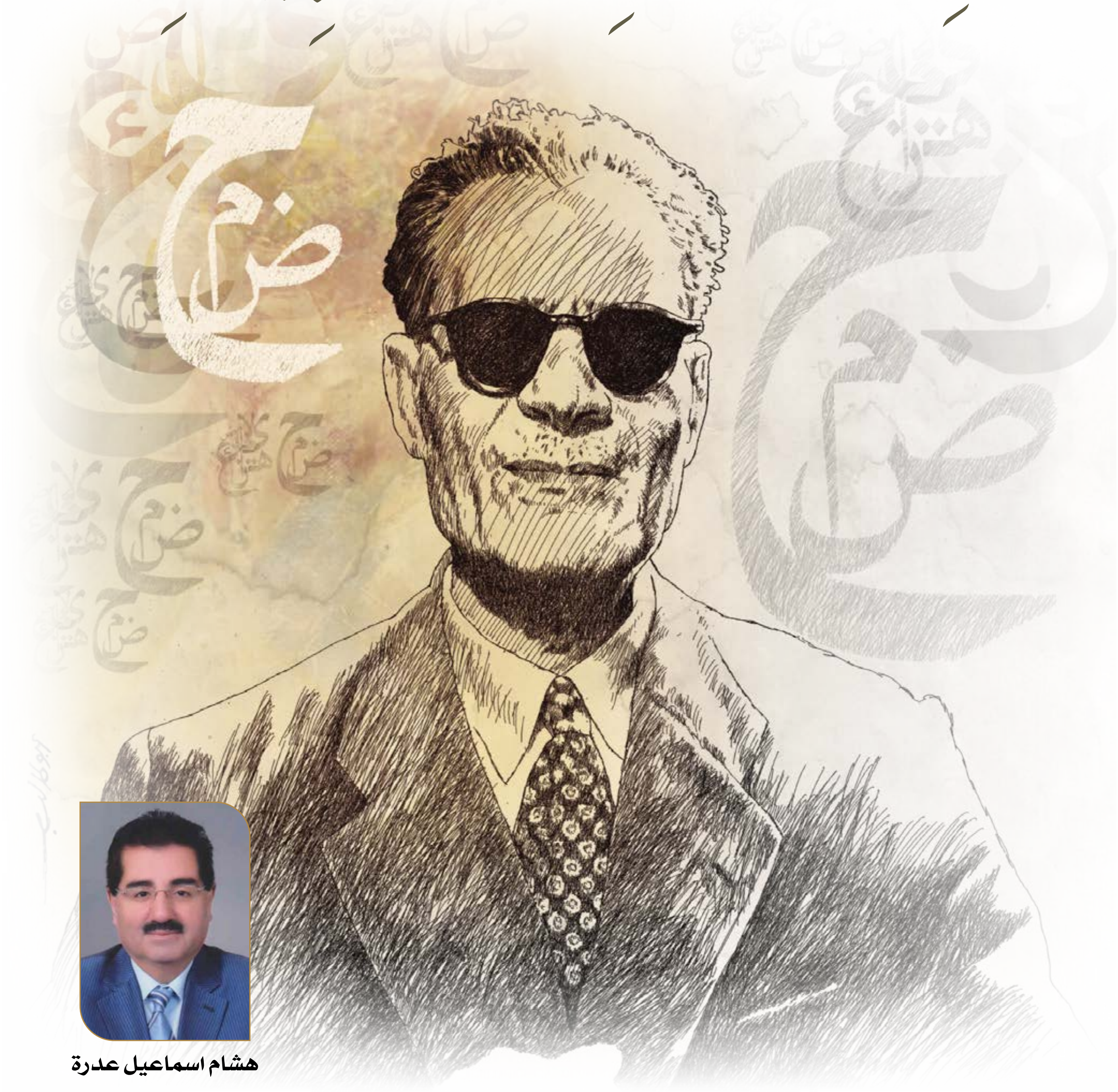

هشام اسماعيل عدرة

أنيس فريحة

قاسم أمين

أحمد أمين

على مدى سنواتٍ وعقودٍ سابقةٍ تعرّضت اللغةُ العربية لعدد من المحاولات الهادفة لتغيير بِنيتها من جهةِ مفكّرين وباحثين وَكُتَّاب عربٍ قصدوا من خلالها ـ حسْب زعمهم ـ إصلاحَها وإزالةَ الصعوبات التي يزعمون أنها تعرقل انتشارَها وتعلّمَها كصعوبة كتابة الحرف العربي وفَقر اللغة العربية بالاشتقاقات والمرادفات والمصطلحات وغير ذلك، من اتهامات لا أساس لها، فسقطتْ محاولاتُهم وظلّت اللغة العربية بمفرداتها وجمالياتها وحروفها الرّاقية وخطوطها البديعة تتوهّج على مستوى العالم.

إنَّ بعض الكتّاب والباحثين والأدباء عابَ على العربية (جمودَها) وعدمَ قابليتها للتّصرُّف والاشتقاق.. ولعمري إنه جِنَايَةٌ على هذه اللغة.. فبعضُ هؤلاء يَنعى على العربية المفرداتِ الغنيةَ بالمعاني والمرادفاتِ التي هي بمثابة روافدَ لجدول اللغة، يُورد هؤلاء بعضَ الأمثلة ومنها مثلاً الفعل (أحب)، ويقولون إن الإنسان العربي يستخدم هذا «الفعل» في الحبّ في شتّى أنواعه وفي حبّ الأشياء المختلفة. فالعربي «يحبّ» فتاةَ أحلامه، و«يحبّ» الملوخية، و«يحبّ» الطعامَ الطيّب والماء البارد العذْب وغيرَ ذلك.. إنّه يحبّ هذه الأشياء وكما يقول هؤلاء ليس له من تعبير لفظي غير «الفعل» «أحبّ»، ويَقرن هؤلاء الفعلَ المذكور في العربية إلى مثله في الإنجليزية، فالإنجليزية كما يرى بعضهم أوسع اشتقاقاً من لغتنا؛ لأنّ الفعل"love" يعبّر عن الحبّ الروحي والإنساني والفعل "like" يستعمل لاستعذاب أشياء واستملاح معان غير معاني الحب...

أصحيح لا يوجد في العربية غيرُ الفعل «أحب» لنعبّر به عن حبّنا للملوخية والجمال وروائع المخلوقات؟...

قد تكون اللهجة العامية خِلواً من مرادف حقيقي أو مجازي لهذا الفعل، ولكن تعالوا لنزور رحابَ الفصحى ونسبر هيكلَها الضّخم التالد، ونلج حرمَها الزاخر الغنيّ، فإننا نجد:

«أحبّ» للحبّ السامي بمعناه الرفيع.

« استمرأ» للطعام الطيّب وأيضاً استذوق.

«استعذب» للماء النمير.

«استطيَبَ» لأشياء أخرى.

« استلطف» للأخلاق والسلوك القويم.

« استأنس.. استذوق».

إذاً نلاحظ حقيقةَ استعداد العربية الفصحى للعطاء والمنح والتعبير، وهذا يفنِّد مزاعمَ بعضهم بأنَّ اللغة العربية لغةٌ هَرِمةٌ فقيرةٌ خاليةٌ من الاشتقاقات اللغوية الضرورية والمرادفات.

في أواسط القرن الماضي ركب الباحثُ المصري الراحل (سلامة موسى) موجةَ نقدِ اللغة العربية، ووجوبِ التجديد فيها كما كانت محاولاتُ الكاتب والشاعر اللبناني الذي توفي مؤخراً (سعيد عقل) والذي طالب باستبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني، في حين

اقترح سلامة موسى الأخذَ برأي العالِم السيكولوجي الانجليزي (أوجدن) في ما سماه« الانجليزية الأساسية» ويتلخص رأيُ هذا العالم بتحديد الأسماء والأفعال والنعوت في اللغة الانجليزية بحيث جعلها(٩٤٦) كلمة، إلا أنَّ اقتراح العالِم أوجدن لم يلقَ أيَّ استجابة، خصوصا وأنَّ اللغة حين نسخرها فقط من أجل العلوم والمخترعات العلمية على حساب الروح نُميت النفس ونستبدل أجواءَ مادية بحتة بأجوائنا اللطيفة والروحية الرقيقة.

كذلك هناك من اقترح إثباتَ أحرُف المدّ في الكتابة بمزاعمِ صعوبة كتابتها، وأيّدهم في ذلك الكاتبُ الراحل طه حسين، إنّ حروف المدّ هذه ليست بمُستصعَبة الكتابة فلكلٍّ منها قاعدةٌ إملائية ثابتةٌ يستعين فيها القارئ والكاتب على رسمها رسماً صحيحاً، فمثلاً هناك حروف وأسماء وأفعال تنتهي بحروف المدّ المذكورة، تقابلها حروف متشابهة في لغات أخرى، ومن حُسن حظ لغتنا أنَّ هذه الحروف والأسماء والأفعال فيها، محدودةٌ، معدودة، أما الأفعال والأسماء فثلاثيةٌ ورباعية وخماسية وسداسية، وكلٌّ منهما ينتهي بقاعدة ثابتة، الثلاثية مما يسبق آخرَها ياءٌ مفتوحة تكتب بألف ممدودة:« يحيا، استحيا...» وما لا يسبق بهذه الياء يرسم بألف لينة على صورة ياء غير منقطة:«استولى، استوحى، اجتبى...» أمّا الأفعال الثلاثية فسهلة الكتابة حين نعلم أنّ حرف المدّ منقلِب عن حرف «ي» أو« و».

سما	يسمو	اسم
دعا	يدعو	ادع
رمى	يرمي	ارم
وقى	يقي	قِ
دنا	يدنو	ادن

في اللغات الأخرى هناك حروفٌ تُكْتَبْ وتُقْرَأْ حيناً، وتكتب ولا تقرأ حيناً آخر؟.. في الأفعال الإنجليزية المتصرفة من صيغة الأمر إلى المضارع إلى الماضي إلى الماضي التام، ليس لتصريف هاتيك الأفعال قاعدةٌ ثابتة كما في العربية؟.. وهذه أمثلة:

Past tense	Present tense	Past participle tense
laid	lay	lie
cost	cost	cost
driven	drove	drive
regretted	regretted	regret

ألسنا نرى أنّ الانجليزية التي آثرها بعضهم على غيرها من اللغات، يُصطدم بكثير من الصعوبات حين يُرَاد تصريفُ أفعالها إلى الأزمان المختلفة؟.

فإنّ حروفاً (ed)ومع أنّ علامة الفعل الماضي في الإنجليزية هو .لا عدَّ لها ولا حصر تأتي في نهاية الفعل دالة على الزمن الماضي

فالصفة في العربية تلازم الموصوف في كلّ حركاته، فيما نجدُ أنَّ سائر اللغات تفتقر لهذه المزيّة التي هي من أسس محسّنات العربية وسهولة كتابتها وإعرابها.

فالفعل« كسر» مثلاً في العربية يكتب هكذا في حالتي البناء للمعلوم وللمجهول والمتعدي، وانكسر في اللازم، بينما تضاف إليه حروف وكلمات في الإنجليزية حتى يؤدي نفس المعنى:

Have,had braken up….. braken Break

إنّ ثمة مصاعبَ لغويةً موجودةٌ في اللغات العالمية، وإنّ الحرف العربي في حالته الراهنة حرف له رونقُه الخاصّ على الخط العربي نتيجةَ قواعدَ ثابتةٍ.

لنتخيّلْ مثلاً أن تكتب الكلمات العربية حسب نطقها كما اقترح بعضُ الأدباء في القرن المنصرم، ومنهم الراحل طه حسين، وليس الكلمات المنتهية بحروف مدّ فحسْب، ولسوف تكتب هكذا:

فعل ماض مفرد	مضارع مفرد	أمر مفرد
كان	يكــــون	كن
تصبح: كانا	ياكونو	كون
أو تسكن: كانْ	يكـــــونْ	كنْ
جاء	يجـــيء	تعال
تصبح: جاءا	ياجيئو	تاعالا
أو تسكن: جاءْ	يجـــيءْ	تعالْ
زار	يــــزور	زر
تصبح: زارا	يـازورو	زور
أو تسكن: زارْ	يــــزورْ	زرْ

والأمثلة على ذلك كثيرة!..

سلامة موسي

قــواعــد اللغــة العربيــة

هناك أيضاً من نادى بتبسيط قواعد العربية ومنهم (الكاتب الراحل أنيس فريحة) بحجة صعوبتها، وحتّى وصل ببعضُهم الدعوة إلى إسقاط الإعراب عن قواعد اللغة العربية وإلغائه (الكاتبين الراحلين قاسم أمين وأحمد أمين)، والسؤال هنا: أين صعوبة الإعراب في قواعد اللغة العربية؟ نحن نعلم أنّ للصعوبة مفاهيمَ اجتماعيةً، وأخرى فكرية واقتصادية عامة، تنشأ من إيهام وغموض وجهل، وللصعوبة مصدرٌ هو تفككُ العملِ بانعدام المناهج والبرامج وطُرق التربية والتعليم المتبنّاة سبلاً ووسائلَ، والصعوبة تَنجُم من الأساليب البدائية في الحياة، فهل العربيةُ ذاتُ غموض وإبهام وجهل، وذاتُ قواعدَ متعثرةٍ ملتوية لا نهج لها ولا قاعدة؟.

من المعروف أنَّ قواعد العربية مبنيةٌ على أسس سليمة سوية تساعدُها على التصرّف والاشتقاق والتركيب وليس الإعرابُ إلاّ الضابطَ المنطقي والميزانَ الحسّاس للغة.. به نميّزُ بين معاني الكلمة ومراميها أو به تكونُ الأفكار المُتبنّاة.. وبه تَسترسل اللغة بسلاسة وتعبير وجمال.

وقواعدُ العربية واسعةٌ.. هذه حقيقة لا تنكر.. إلا أنَّ هذا الاتّساعَ ليس دخيلاً عليها أو زائداً عن حاجاتها التعبيرية !..فلا خيرَ في حذفه. فلكلِّ قاعدة فيها أساسٌ ثابت في تكوينها، ولكلِّ قاعدة رسمٌ بيّنٌ يتجاوب تركيباً مع المعنى المقصود فيكون الوضوح.

أخيراً فإنّ اللغة العربية تلقّت دعماً لا محدود من جهةِ دول عربية وإسلامية، ومؤسساتٍ ومجالسَ بحثيةٍ وعلمية للحفاظ عليها، وهي لغةُ القرآن الكريم التي اصطفاها الله عزّ وجل من بين لغات العالم لتكون لغةَ كتابه المقدَّس وحاضنةً للعرب والمسلمين في كل أصقاع الدنيا.

حَولَ مَوسُوعَة الوَقْفِ والابْتِداءِ في القُرآنِ الكَرِيمِ

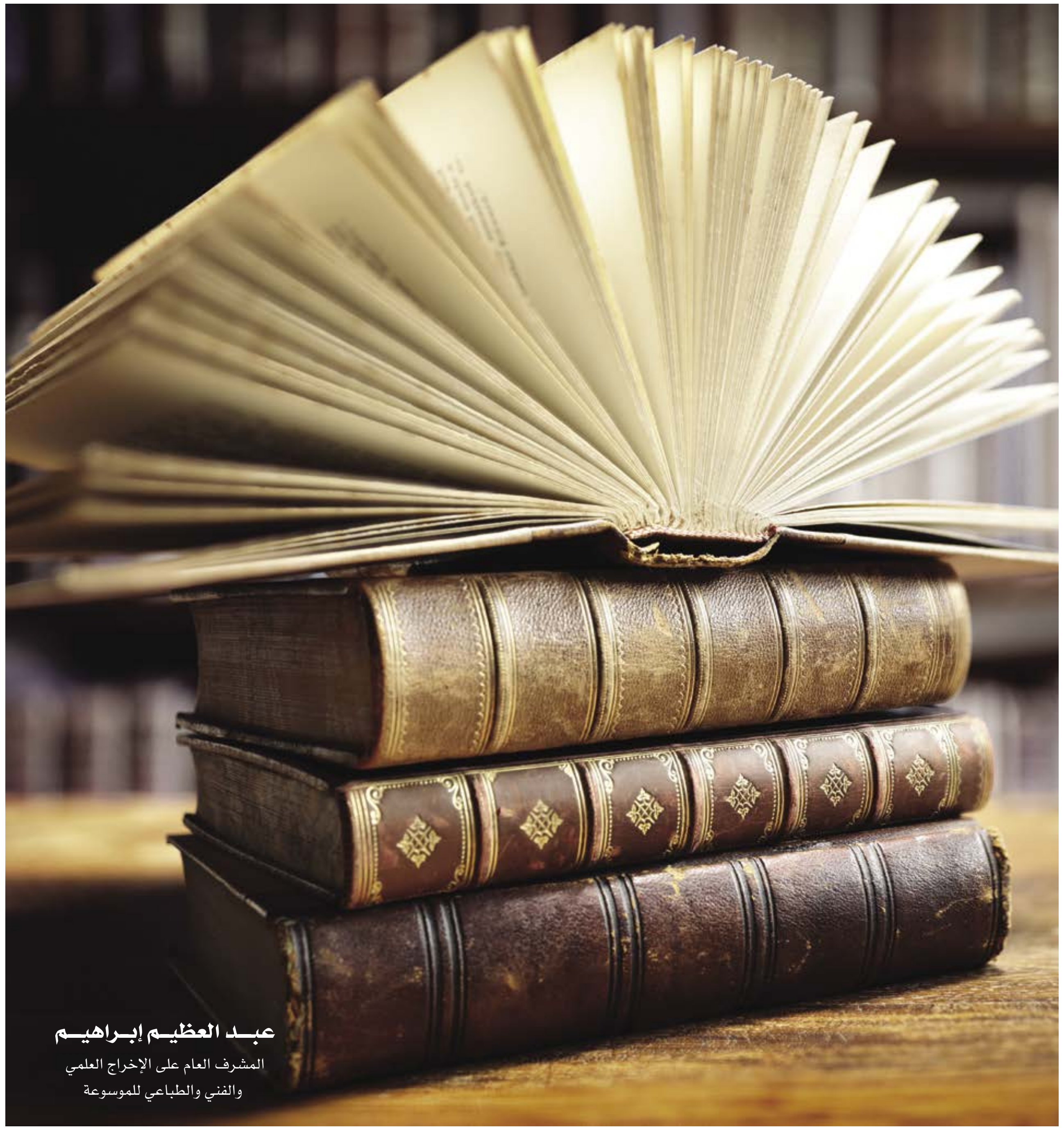

عبـد العظيـم إبـراهيـم
المشرف العام على الإخراج العلمي والفني والطباعي للموسوعة

الحَمْدُ للهِ وحدَه، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى مَنْ لا نَبيَّ بَعدَه. وبَعْدُ:

فإنّ مِنْ وظائِفِ المَوسوعاتِ: أنَّها تَرْصُدُ أشْتاتًا كَثيرةً فَتَقْبضُها في مَعينٍ واحدٍ، وتُصيبُ فَجواتٍ كَبيرةً فَتَملؤُها وتُسدُّها وتُعالِجُها بِمُعطياتٍ جامِعةٍ وشامِلةٍ وأصيلةٍ مِنَ القَواعِدِ المُتماسِكةِ والعُلومِ المُتشابكةِ حَتّى تَنسبكَ بِها ومَعَها فَيَتجلّى حِينَئذٍ مَظْهرُ السَّبيكةِ الضّخْمةِ، والقِطْعةِ الواحِدةِ العَظيمةِ الّتي يُخيَّلُ إليكَ في وهْلةِ النَّظرِ الأُولى أنَّها شَيءٌ واحدٌ، وعِنْدَ التّحقيقِ تَراها أشْياءَ عَدَدًا، فَهِيَ إذَنْ –أيِ: المَوسوعةُ– أشياءُ في باطِنِ شَيءٍ، وشَيءٌ يَنْطوي عَلى أشْياءَ.

ولِأنَّ المَوسوعاتِ تُغَطّي مَساحاتٍ عَريضةً وغَيرَ مَسبوقةٍ فيما تَبحثُهُ مِنَ القَضايا والمَوضوعاتِ، اعتمدتْ في مَنْهَجِها عَلى الاسْتِقراءِ التّامِّ الّذي لا يَفوتُهُ شَيءٌ مِنْ مُكوّناتِ ما تَبحثُهُ وتُعنى بِهِ.

=وما سبق من توصيفٍ لِلحالةِ الّتي تَخْتَصُّ بِها الأعْمالُ المَوسوعيّةُ يَنْسَحِبُ ويَنطَبقُ عَلى عَملٍ مَوسوعيٍّ فَخمٍ ومَجهودٍ بَحثيٍّ ضَخمٍ في واحِدٍ مِنْ أبْرزِ وأهَمِّ المَيادينِ في الدّراساتِ القُرْآنيّة عامّةً والنَّصِّ القُرْآنيّ خاصّةً، وهُوَ عِلْمُ الوَقْفِ والابتِداءِ في كِتابِ اللهِ، وهُوَ بَداهةً عِلمٌ لَهُ مِنَ الصّلةِ المُباشرةِ والمَوثوقيّة المُلْتحِمةِ بِالكَلامِ الإلَهيِّ ما لا يُحْتاجُ إلى تَنْبيهٍ عليه؛ فَعِلمُ الوَقْفِ والابْتِداءِ يَصدُرُ مِنْ كَلامِ اللهِ ويَصدُرُ إلى كَلامِ اللهِ، يَصدُرُ مِنْهُ لِأنَّ النّصَّ المُقدَّسَ هُوَ وِعاءُ هَذا العِلمِ الشَّريفِ ومحلُّ انْتزاعِهِ واسْتخراجِهِ، ويَصدُرُ إلَيهِ لِأنَّ الوَقفَ والابْتِداءَ يَرتدُّ ويَفيءُ إلى النّصِّ كَرّةً أخرى بِإجْرائهِ وتَطبيقِهِ عَلَيهِ وإعمالِهِ فيهِ. وهَذا تَمامًا ما انْتهجَتْهُ هَذِهِ المَوسوعةُ المُباركةُ وأبانَتْ عَنْهُ، فَهِيَ قَدْ تَصَدَّرَتْ بِتَأصيلٍ جامِعٍ، وتَقْعيدٍ مُحرّرٍ يَرسمُ مَعالمَ هَذا البابِ، ويُحَدِّدُ أُطرَهَ، وعلائقَهُ، وموقعَهُ المُحدِّدَ لأهميّتِهِ ومكانتِهِ وتاريخِهِ في الممارَسةِ والتّأليفِ والاسْتقلالِ، وغَيرَ ذَلِكَ مِمّا يُعَدُّ دَسْتورًا جامِعًا وقانونًا مُفصَّلًا لِكلِّ ما يُحتاجُ الإنباءُ عَنْهُ في هَذا العِلمِ القُرْآنِيّ الهادي، ثُمَّ بَعدَ هَذا السَّفَرِ في دروبِ الوقْفِ والابْتداءِ النَّظَريّةِ التّأصيليّةِ تَرحلُ بِكَ هَذِهِ المَوسوعةُ إلى فَصلِ الخِطابِ مِنها وثَمرةِ الحَصادِ مِنْ تَأسيسِها والشُّروعِ فيها، وهُوَ الاسْتِعراضُ التَّطْبيقيُّ المُفصَّلُ الّذي يُجْري قواعِدَ هَذا العِلْمِ ومُنطلقاتِهِ وقَوانِينَهُ وأجزاءَهُ المَعْرفيّةَ وتَفاصيلَهُ النَّظَريّةَ عَلى نَصِّ الكِتابِ العَزيزِ تَطبيقًا وإجراءً تامًّا عَلى آياتِ القُرْآنِ كاملًا. فالمَوسوعةُ هَذِهِ تَكْفيكَ زادًا وإمدادًا بِما تُقدِّمُهُ مِنْ تِلكَ الإحاطةِ الكاملةِ بكتابِ اللهِ تَطبيقًا تفصيليًا عَلى كُلِّ آيةٍ وكلّ كَلمةٍ بينَ دَفَّتَي المُصحفِ الشَّريفِ.

ما يَميزُ موسوعةَ الوَقفِ والابْتداءِ في القُرْآنِ الكَريم

***الإحاطةُ والشُّمولُ:** فَهِيَ مُستوعِبةٌ ومُستغرقةٌ وحاصرةٌ لِلتَّطبيقاتِ التّوجيهيّةِ لِلوَقفِ والابْتداءِ عَلى كُلِّ آيةٍ مِنْ آيِ القُرْآنِ.

* **التّتبُّعُ والتَّفصيلُ:** فَفِيها تَتبعٌ لِتفاصيلَ كثيرةٍ كَعَدِّ الآيِ، والقراءاتِ، والأعاريبِ، ومعاني ألفاظِ القُرْآنِ، وتَفسيرِ التّراكيبِ، واسْتنباطِ الدّلائلِ وتَرجيحِ التَّوجيهاتِ؛ ذَلِكَ أنَّ هَذِهِ الجُمَلَ مِنَ العُلومِ الَّتي تَسبحُ في مَدارِ الوَقْفِ والابْتِداءِ ويَرتكِزُ عَلَيها في مَجالِهِ الرَّحْبِ.

* **ذِكْرُ الخِلافِ وتَعليلُهُ:** فَيتمُّ تَناوُلُ مواضعِ الوَقْفِ والابْتِداءِ مِنْ خِلالِ الطَّبعاتِ المَشْهورةِ لِلمُصحفِ، مَعَ بيانِ ما اتُّفِق عَلَيهِ وما اختُلِفَ فيهِ وذِكْرِ مَنْ قالَ بِالوقْفِ مِنَ العُلماءِ مَعَ بيانِ عِلّةِ الوَقْفِ وعِلّةِ الوَصلِ اعْتِمادًا عَلى المَصادِرِ الأَصْيلةِ في الوَقْفِ والابْتِداءِ وغَيرِها في العُلومِ الأخرى الخادمةِ لَهُ.

* **الإحْصاءُ المُقارنُ:** عَنْ طَريقِ الرّصْدِ والمُقارنةِ بَينَ عَددٍ مِنَ المَصاحفِ المَطبوعةِ في عَلاماتِ الوَقْفِ مَعَ ذكرِ العلامةِ المُناسبةِ، وهِيَ طَبعةُ مُصحَفِ المَلكِ فُؤادٍ بِمراجعةِ الشَّيخِ/ محمد خلف الحسيني، ومُصحفٍ طُبِعَ بِدارِ المَعارفِ المَصريّةِ بِمراجعةِ الشَّيخِ/ محمد علي الضّباع، والشَّيخ/عامر السّيد عثمان، بِالإضافةِ إلى طَبْعةِ الشّمرلي، وطَبْعتَي مُجَمَّعِ المَلكِ فَهدٍ، وطَبْعةِ مُصْحَفِ الكُويتِ، وطَبْعةِ مُصحفِ الشَّيخِ/ ابْنِ مَكتومٍ بِدولةِ الإماراتِ، وطَبْعةِ مُصحَفِ الأَزْهرِ، وطَبْعةِ مُصحَفِ البَحرَينِ.

* **الإضافةُ والتَّجديدُ والمُرونةُ:** فَقَدْ تَمَّتْ دِراسةُ مَواضعَ كثيرةٍ مِمّا جاءَ في كُتُبِ الوَقْفِ والابْتِداءِ، وإنْ لَمْ تُعتمَدْ كَمَواضِعَ لِلوَقْفِ في الطّبعاتِ المَشهورةِ لِلمُصحفِ، مَعَ ذِكرِ العَلامةِ المُناسبةِ لَها مِنْ عَلاماتِ الوَقْفِ.

* **الاتِّساعُ في التَّوجيهِ:** وذَلِكَ مِنْ خِلالِ رَصْدِ القِراءاتِ القُرْآنيّة الواردةِ في مَوضعِ الوَقْفِ مَعَ ذكرِ أثرِ ذَلكَ عَلى الوَقْفِ ونَوعِهِ، ولا يَخفى أنَّهُ بِتَعددِ القِراءاتِ تَتَعدَّدُ المعاني فَتتسعُ لذَلِكَ حَلْقَتا التّوجيهِ والتّأثيرِ.

* **العنونة المَوضوعيّةِ لِلفِقراتِ التَّطبيقيّةِ:** فَيَتمُّ تَقسيمُ السّورةِ إلى مَواضعَ، كُلُّ موضعٍ يَضُمّ حِزْمةً مِنَ الآيات يسبقها عنوان يدلُّ عَلى موضوعها ومحتواها بحسب السّياق والمقام الّذي يجمعها، ثمّ يتم فرز ومناقشة وتوجيه كُلّ موضع لِلوَقْفِ في هَذِهِ الآيات ذات الموضوع الواحد وهكذا.

* **التَّفسيرُ الإجماليُّ لِلقُرآنِ:** فعِنْدَ كُلِّ بيانٍ لِتَطبيقاتِ الوَقْفِ في الآياتِ يُصدَّرُ ذَلِكَ بِبَيانِ المَعْنى العامِّ لِلآياتِ ومَقاصدِها وأغْراضِها في سُورَتِها، وهُوَ مَدخلٌ مُهمٌّ وجُزءٌ أساسٌ مُعتَبرٌ لِيكونَ كالتَّمهيدِ لِفهمِ تَفاصيلِ التَّوجيهِ لِلمواضعِ بَعدَ ذَلِكَ، وإذا كانَتِ المَوسوعةُ قَدْ شَمِلَتْ القُرْآنَ كُلِّهِ، فَبِالنَّظرِ إلى بَيانِ المَواضِعِ كُلِّها يَحصلُ لَكَ أنّ القُرْآنَ الكَريمَ كُلَّهُ جيء بِتَفْسيرِهِ كاملًا تَفْسيرًا إجمآليًّا في هَذِهِ المَوسوعةِ، وهَذِهِ خَصيصةٌ عَظيمةُ تَنْضمُّ إلى أخَواتِها مِنْ مَيْزاتِ هَذِهِ المَوسوعةِ المُباركةِ.

* **العَملُ الجَماعيُّ:** فَهَذِهِ المَوسوعةُ هِيَ حَصيلةُ مَجهوداتٍ دَؤوبةٍ لِفَريقٍ مِنْ صَفوةِ باحثي جامعةِ الأَزْهَرِ وقَدْ كانَتْ في أصلِها مَشروعًا أكاديميّا حَصلوا بِهِ عَلى الماجستيرِ والدّكتوراه، فالمَوسوعةُ إذَنْ هِيَ نِتاجُ كَتيبةٍ مِنَ المُتَخصِّصينَ في الدّراساتِ القُرْآنيّةِ وعَلى إحاطةٍ بِالقراءاتِ واللُّغةِ تَحتَ إشْرافِ ثُلّةٍ مِنَ الأساتذةِ الكِبارِ في الجامعةِ، فَهِيَ عَملٌ مؤسّسيٌّ جَماعيٌّ مُتكافِئٌ ومُتماسكٌ.

وبَعدُ: فَمَهْما يَكُنْ مِنْ شَيءٍ فإنَّ ما سَبَقَ قَولُهُ حَولَ هَذِهِ المَوسوعة غَيضٌ مِنْ فيضٍ، وتَطوافةٌ سَريعةٌ ومُوجزةٌ تَقصُرُ في الوَصفِ والتّعبيرِ عَنْ مِقدارِ المَجهودِ الّذي بُذِلَ فِيها، ولَيسَ المُخْبَرُ كالمُعاينِ، فَلا يَكفي في الإخبارِ عَنْها والدّرايةِ بِشأوِها إلّا مُطالعتُها والنَّظرُ فِيها بإمعانٍ وتُؤدةٍ وإقبالٍ. وسَوفَ يُسَرُّ القارئُ الكَريمُ–بإذنِ اللهِ– مِمّا سَيجدُهُ مِنْ تَحقيقاتٍ وتوجيهاتٍ وتطبيقاتٍ وِفقَ دِراسةٍ تَتَّسمُ بِالمُقارنةِ والتَّحليلِ والوصفيّةِ والمَوضوعيّةِ، وعِنْدَ الصَباحِ يَحْمَدُ القَومُ السُّرى. والحَمدُ لِلهِ الهادي إلى سواءِ السّبيلِ.

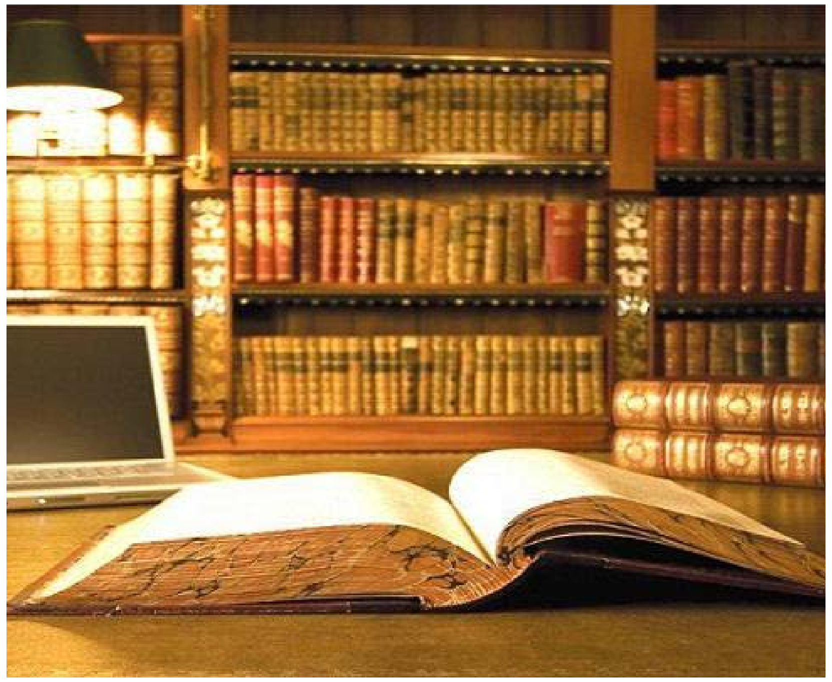

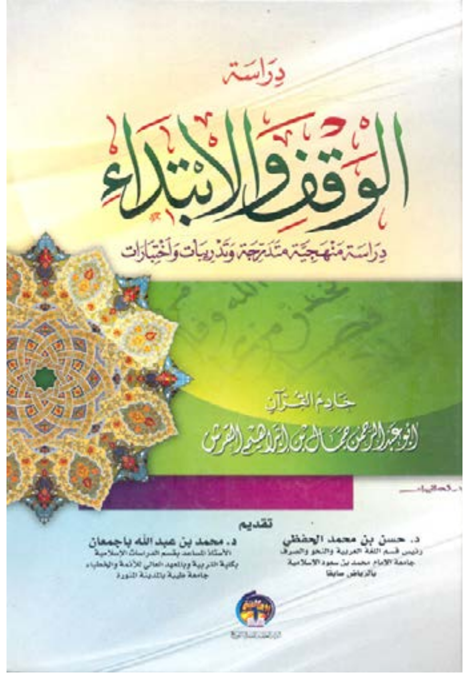

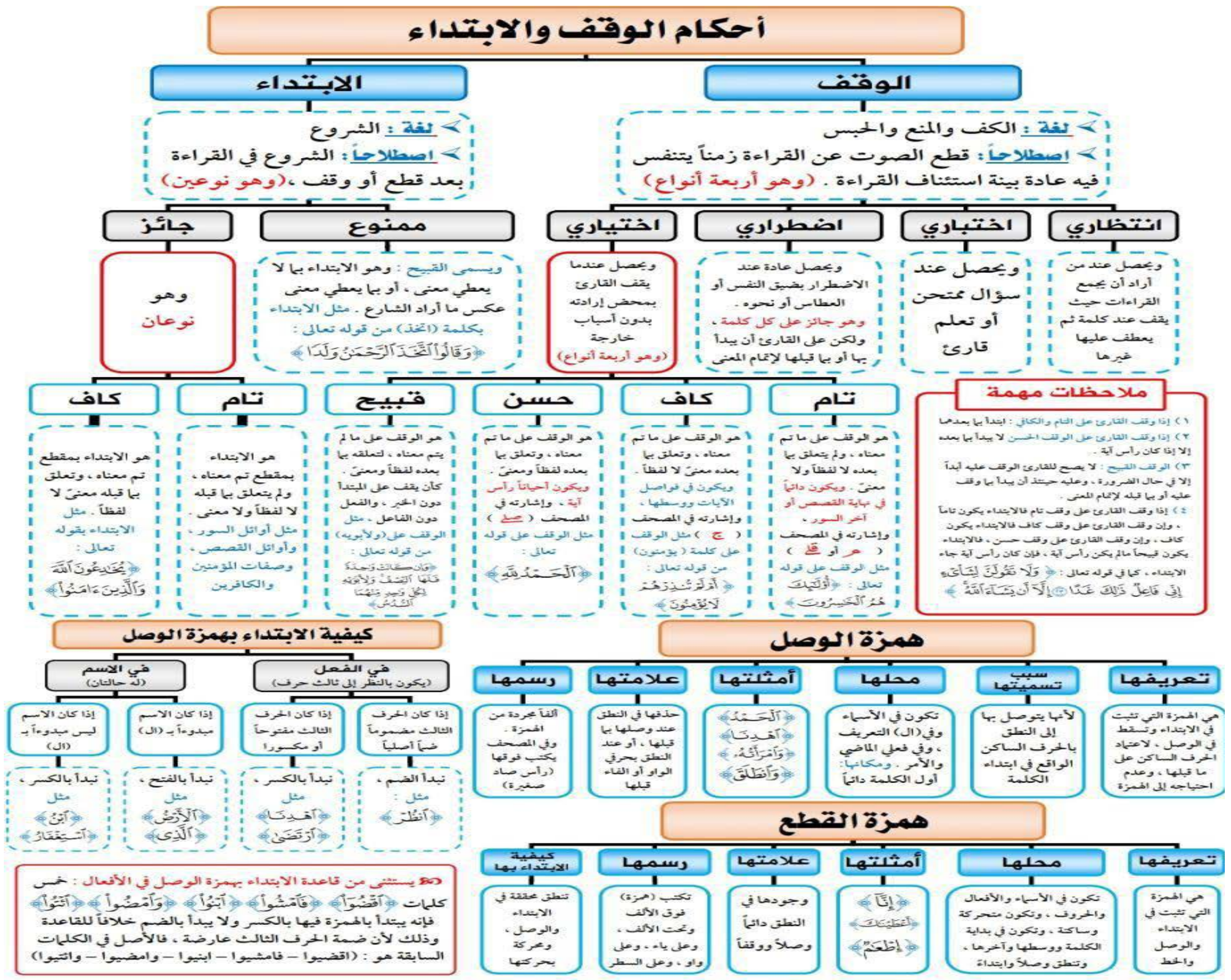

طرائف عَربيّة

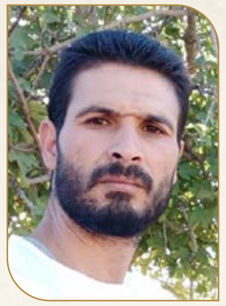

محمد ادعيكل
باحث في الدّراسات الشّامية والأديان

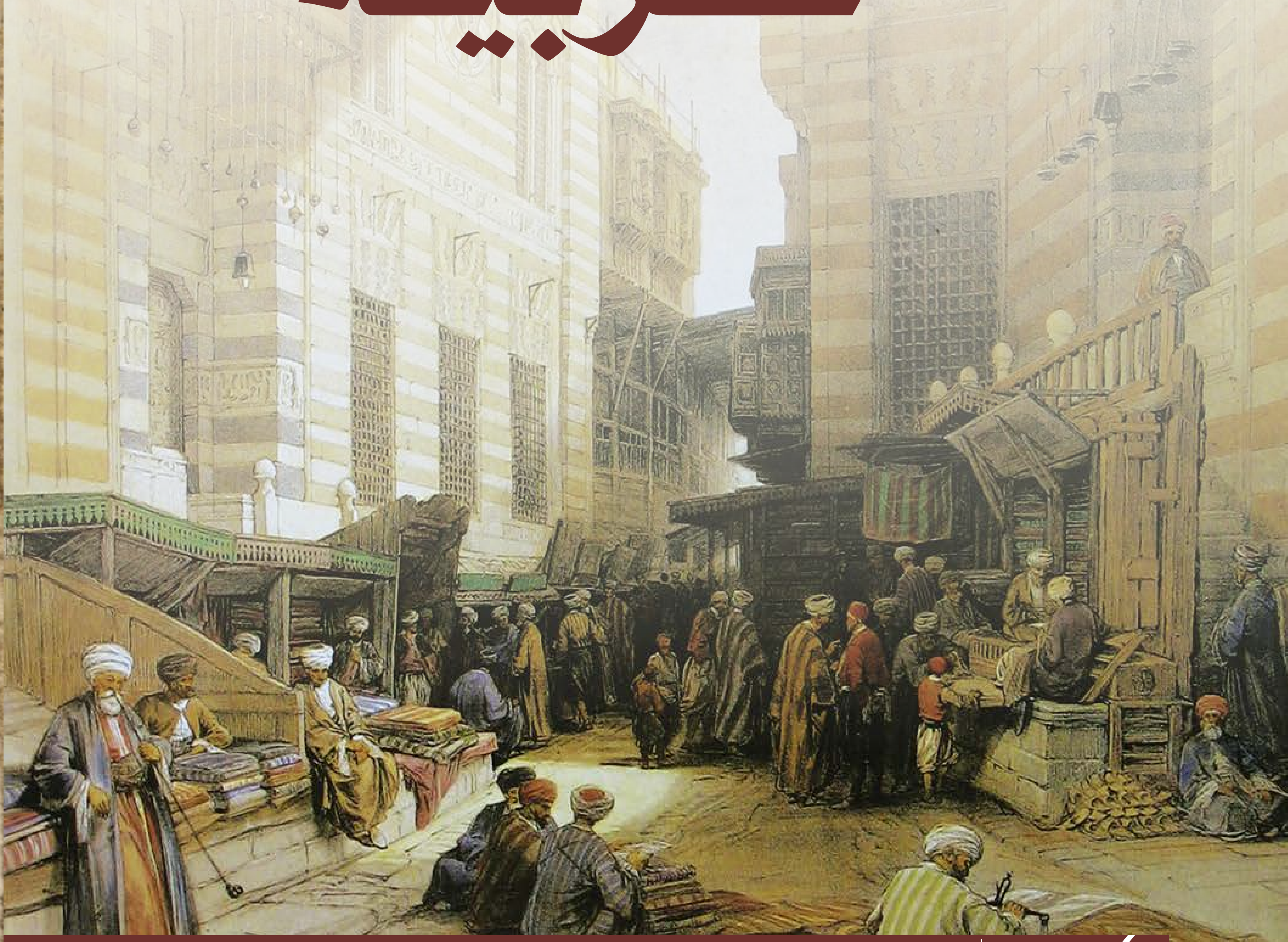

قِصّةُ أبي جَواليق المَدينيِّ الأعرابيّ والحِمار

خرجَ أبو جَواليق المديني يشتري حِمارًا؛ فلَقِيَهُ صديقٌ لهُ؛ فَقالَ: أين تُريدُ؟ قالَ: أُريدُ السّوقَ أشتري حِمارًا؛ قالَ: قُلْ إنْ شاءَ اللّه؛ قالَ: لَيسَ هَذا مَوضِعَ إنْ شاءَ اللّه! الدّراهمُ في كُمّي، والحِمارُ في السّوقِ؛ فبينا هُوَ يَطلبُ الحِمارَ إذ طرّتْ دراهِمُهُ فرَجعَ حَزينًا؛ فَلَقيَهُ صاحبُهُ؛ فَقالَ: ما صَنَعْتَ؟ قالَ: سُرِقَتْ دراهمي إنْ شاءَ اللّه!

مُوظَّفٌ مُخْتلِسٌ

وَلّى يوسفُ بنُ عمرَ الثّقفيُّ صاحِبُ العِراقِ أعرابيًّا عَلى عَمَلٍ لَهُ؛ فأصابَ عَلَيهِ خِيانةً فَعزلَهُ؛ فَلَمّا قَدِمَ عَلَيهِ قالَ لَهُ: يا عدوَّ اللّهِ أكَلْتَ مالَ اللّهِ! قالَ الأعرابيُّ: فمالُ مَنْ آكلُ إذا لَمْ آكلْ مالَ اللّهِ؟ لَقَدْ راوَدْتُ إبلَيسَ أنْ يُعطيَني فِلْسًا واحِدًا فَما فَعلَ! فَضحِكَ مِنْهُ وخَلّى سبيلَهُ!

دِينارٌ يَلِدُ

وجَدَتِ امْرأةُ أشْعبَ دِينارًا فَأتَتْهُ بِهِ، فَقالَ: ادْفَعيهِ إليَّ حَتّى يَلِدَ لَكَ في كُلِّ أسْبوعٍ دِرهمَينِ، فدفعَتْهُ إلَيهِ، فصارَ يَدفَعُ إلَيها في كُلِّ أسبوعٍ دِرهمَينِ؛ فَلَمّا كانَ في الأسبوعِ الرّابعِ طلبَتْهُ مِنهُ، فَقالَ لَها: ماتَ في النِّفاسِ، فَقالَتْ: ويلي عَلَيكَ! كَيفَ يَموتُ الدّينارُ؟ فَقالَ لَها: الويلُ لَكَ عَلى أهلِكِ! كَيفَ تُصدِّقينَ بِولادَتِهِ وتُنْكِرينَ مَوتَهُ في نِفاسِهِ.

كَثْرةُ الشُّكرِ

أخَذَ الحَجّاجُ أعْرابيًّا لِصًّا بالمَدينةِ فأمَرَ بِضربِهِ فكانَ كُلَّما قَرَعَهُ بِسَوطٍ، قالَ: يا رَبِّ شُكرًا، حَتّى ضَرَبَهُ سَبعَمئةِ سَوطٍ. فَلقِيَهُ أحَدُ الظُّرفاءِ، فَقالَ لَهُ: أتَدْري لَمْ ضَرَبَكَ الحَجّاجُ سَبْعَمئةِ سَوطٍ؟ قالَ: لِماذا؟ قالَ: لِكثرةِ شُكرِكَ، إنَّ اللّٰه تَعالى يَقولُ ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قالَ: وهَذا في القُرْآنِ؟ قالَ: نَعَمْ. فَقالَ الأعْرابيُّ:

يا رَبِّ لا شُكرَ فَلا تَزِدْني　　　أسَأتُ في شُكرِي فاعْفُ عَنِّي

باعِدْ ثَوابَ الشّاكرينَ مِنِّي

غَفْلَةٌ

مَرَّ رَجلٌ بِإنْسانٍ وعَلى عاتِقِهِ عَصا في طَرفَيها زَنْبيلانِ قَدْ كادا يُحَطِّمانِه، في أحَدِهِما بُرٌّ وفي الآخَرِ تُرابٌ. فَقالَ: لَمْ فَعلْتَ هَذا؟ قالَ: عَدَلْتُ البُرَّ بِالتُّرابِ، لِأنَّهُ كانَ قَدْ أمالَني إلى أحَدِ جَنبَيَّ؛ فأخَذَ الرَّجلُ زَنبيلَ التُّرابِ وقَلَبَهُ وقَسمَ البُرَّ نِصفًا في الزَّنبيلَينِ. وقالَ: الآنَ فاحمِلْ، فَحمَلَهُ فَخَفَّ عَلَيهِ؛ فَقالَ: ما أعْقَلَكَ مِنْ شَيخٍ!

فَزَعُ لِصٍّ

ذَهَبَتْ ثِيابُ رَجلٍ في الحَمّامِ، فَجَعلَ يَقولُ: أنا أعْلمُ، أنا أعلَمُ، واللِّصُّ يَسْمَعُهُ؛ فَفَزِعَ وظَنَّ أنَّهُ قَدْ فَطِنَ بِهِ؛ فَرَدَّها. وقالَ لَهُ: إنِّي سَمِعْتُكَ تَقولُ: أنا أعْلَمُ، فما الّذي تعلَمُ؟ قالَ: أعلمُ أنَّهُ إنْ عَدِمْتُ ثِيابي مِتُّ مِنَ البَرْدِ.

رِسالةٌ مِنَ البَصرةِ

كَتَبَ رَجلٌ مِنْ أهْلِ البَصرةِ إلى أبيهِ يَقولُ: أكْتبُ إلَيكَ يا أبَتِ، نَحْنُ كَما يَسُّرَكَ اللّٰه عَونَهُ وقُوَّتَهُ، لَمْ يَحْدُثْ لَنا بَعْدَكَ إلّا كُلُّ خَيرٍ، إلّا أنَّ حائِطًا لنا وقَعَ عَلى أمِّي وأخي الصَّغيرِ وأخْتِي والجارِيةِ والحِمارِ والدِّيكِ والشّاةِ ولَمْ يُفْلِتْ أحدٌ حَيًّا غَيرِي!

فِطْنةُ أعْرابِيٍّ

قالَ الشَّيبانيُّ: خَرجَ الحَجّاجُ مُتَصيِّدًا بِالمَدينةِ؛ فَوقَفَ عَلى أعرابيٍّ يَرْعى إبِلًا لَهُ؛ فَقالَ: يا أعرابيُّ؛ كَيفَ رأيتَ سيرةَ أميرِكمُ الحجّاجِ؟ فَقالَ الأعرابيُّ: غَشومٌ ظلومٌ! لا حيّاهُ اللّٰه ولا بيّاهُ!؛ فَقالَ: فَلِمَ لا شَكوتُموهُ إلى أميرِ المُؤمنينَ عَبدِ المَلكِ؟ قالَ: فَأظلمُ وأغْشمُ؛ فبَينَما هُوَ كذَلِك إذ أحاطَتْ بِهِ الخَيلُ؛ فَأومأَ الحَجّاجُ إلى الأعرابي فأُخِذَ وحُمِلَ؛ فَلَمّا صارَ مَعَهُ قالَ : مَنْ هَذا؟ قالُوا لهُ: الأميرُ الحَجّاجُ؛ فَعَلِمَ أنَّهُ أُحيطَ بِهِ؛ فَحَرَّكَ دابَّتَهُ حَتّى صارَ بالقُربِ مِنْهُ ثُمَّ ناداهُ: يا حَجّاجُ! قالَ: ما تَشاءُ يا أعرابيُّ؟ قالَ: أحِبُّ أنْ يَكونَ السِّرُّ الّذي بيني وبَينَك مَكْتومًا ! فَضَحِكَ الحَجّاجُ مِنْهُ وخَلّى سَبيلَهُ.

هُروبٌ مِنَ الإمامِ

صلّى أعرابيٌّ خلفَ إمامٍ فَقَرَأَ الإمامُ : ﴿أَلَم نهلك الأولينَ﴾ وكانَ في الصّفِ الأوَّل فتأخرَ إلى الصّفِ الآخرِ، فقرا الإمام: ﴿ثُمَّ نتبعهم الآخرين﴾ فتأخَّرَ، فَقَرَأَ الإمامُ: ﴿كذلك نفعل بالمجرمين﴾ وكانَ اسمُ الأعرابيِّ مُجرمًا، فَتَركَ الصَّلاةَ وخَرَجَ هاربًا، وهُوَ يَقولُ: واللّٰهِ ما المَطلوبُ غَيري، فوجَدَهُ بَعْضُ الأعرابِ، فَقالُوا لَهُ: ما لَكَ يا مُجرمُ؟ فَقالَ: إنَّ الإمامَ أهْلكَ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وأرادَ إنْ يُهلكَني في الجُملةِ، واللّٰهِ لا رأيتُهُ بَعدَ اليَومِ .

أعْمى كَصُندوقٍ فـارغٍ

دَعا بَعضُهُم ضَريرًا إلى دارِهِ، فَلَمّا رَفعَ الطّعامَ مِنْ بَينِ يدَيهِ، وأُحضِرَتِ الفاكِهةُ والحَلوى، وغَسَلا أيدِيَهُما، أرادَ الضَّريرُ الانْصرافَ، فَقالَ لَهُ صاحبُ الدّارِ: اقرأْ لَنا شَيئًا مِنَ القُرْآنِ، قالَ: واللّٰهِ ما حفظْتُ مِنَ القُرْآنِ غَيرَ الفاتِحةِ، ورُبَّما غَلطْتُ فِيها، قالَ: اسْمِعْنا شَيئًا مِنَ الحَديثِ، قالَ: ما حفظْتُ مِنْهُ شَيئًا، قالَ: فَلَعلَّكَ تُسمعُنا بَعْضَ أشعارِ العَربِ. قالَ الرَّجلُ: لَمْ أروِ مِنَ الشِّعرِ بَيتًا، قالَ الرَّجلُ: عَجبًا هُم يَقولونَ إنَّ العُميانَ صَناديقُ العِلمِ، قالَ الأعْمى: ما هَذا مِنَ العَجبِ؟ أما رأيتَ صَندوقًا فارِغًا.

بَخـيـلٌ

- قالَ رجلٌ بَخيلٌ لغلامٍ: بِكمْ تعملُ مَعي؟

قالَ: بِطعامي.

قالَ: أحسِنْ قليلًا.

قالَ: فأصومُ الاثْنينِ والخَميسَ.

سَمِعْنا وأطَعْنا ثُمَّ متْنا

حكى الأصْمعيُّ قالَ: بَينَما أنا أسيرُ في الباديةِ إذ مَررتُ بحجرٍ مكتوبٍ عَليهِ هَذا البَيتُ

أيا مَعشرَ العُشّاقِ باللّهِ خَبِّروا ... إذا حَلَّ عِشقٌ بِالفَتى كَيفَ يَصنعُ

فَكتَبتُ تَحتَهُ:

يُداري هَواهُ ثُمَّ يَكتمُ سِرَّهُ ... ويَخشَعُ في كُلِّ الأمورِ ويَخضعُ

ثُمَّ عُدتُ في اليومِ الثّاني فوجَدْتُ مَكتوبًا تَحتَهُ:

فَكيفَ يُداري والهَوى قاتِلُ الفَتى ... وفي كُلِّ يومٍ قَلبُه يَتَقطَّعُ

فَكتبْتُ تَحتَهُ

إذا لَمْ يَجِدْ صَبرًا لِكتمانِ سِرِّهِ ... فَلَيسَ لَهُ شَيءٌ سِوى المَوتِ أنْفعُ

ثُمَّ عُدتُ في اليَومِ الثّالثِ فَوجدْتُ شابًا مُلقَى تَحتَ ذَلِكَ الحَجرِ مَيتًا لا حَولَ ولا قُوّةَ إلّا بِاللّهِ العَليِّ العَظيمِ وقَدْ كَتبَ قَبْلَ مَوتِهِ:

سَمِعْنا أطَعْنا ثُمَّ مِتْنا فَبلِّغوا ... سَلامي إلى مَنْ كانَ لِلوَصْلِ يَمْنعُ

حِيلةُ مسخٍ لإكرامِ المَلِكِ

كانَ لِسابورٍ ملكِ فارسٍ نديمٌ مُضحكٌ يُسمّى مَرزبانَ. فظهرَ لَهُ مِنَ الملكِ جَفوةٌ، فَلَمّا زادَ ذَلِكَ عَلَيهِ تَعلَّمَ نبيحَ الكِلابِ وعَويَ الذّئابِ ونَهيقَ الحَميرِ، وصَهيلَ الخَيلِ، وصَوتَ البِغالِ، ثُمَّ احتالَ حَتّى دَخلَ مَوضعًا بِقُربِ خَلوةِ المَلِكِ وأخْفى أمرَهُ، فَلَمّا خَلا الملكُ بِنَفسِهِ نَبحَ نبيحَ الكِلابِ، فَلَم يَشكَّ المَلكُ في أنَّهُ كَلبٌ، فَقالَ: انْظُرُوا ما هَذا؟ فَعوى عَوْيَ الذِّئابِ، فَنَزلَ المَلكُ عَنْ سَريرِهِ، فَنَهقَ نَهيقَ الحَميرِ، فمَضى المَلِكِ هارِبًا، ومَضَتِ الغلمانُ يَتَّبعونَ الصَّوتَ، فَلَمّا دَنَوا مِنْهُ صَهَلَ صَهيلَ الخَيلَ، فاقْتَحمُوا عَلَيهِ وأخْرَجوهُ عُريانًا، فَلَمّا وصَلُوا بِهِ إلى المَلِكِ، ورَآهُ مرزبانُ ضَحِكَ المَلكُ ضَحكًا شديدًا، وقالَ لَهُ: ما حَملَكَ عَلى ما صَنَعْتَ؟ قالَ: إنَّ اللّهَ عَزَّ وجَلَّ مَسخَني كَلبًا وذئبًا وحمارًا وفرسًا لمّا غَضِبَ عَليَّ المَلكُ. قالَ: فأمَرَ المَلكُ أنْ يُخلَعَ عَلَيهِ وأنْ يُردَّ إلى مَرتبتِهِ الأوَّلى.

كلامُ العَرَب

شُرُوطُ الفَهْمِ وضَوَابِطُ التَّأْوِيلِ عند الشَّرِيفِ المُرْتَضى

سعيد بكور

يُطلق (كلامُ العرب) على ما تحدّثت به العربُ شعرًا ونثرًا وَفق سُنن وقواعدَ معلومةٍ، ويُفهم ويُؤَوّل تبعا لضوابطَ محدّدةٍ ليس فيها مجالٌ للاجتهاد وللهوى، ولا يتأتّى الخوضُ في التأويل إلا لمن خبَر مذاهبَ العرب ووعاها، لهذا وجدنا العلماءَ يحرصون على ضرورة المعرفة بكلام العرب لفهم الشعر، وتأويلِ النصِّ القرآني والحديثي على الوجه الصَّحيح الذي يُبين مقاصدَهما، خاصة إذا ارتبط الأمر بالتعبير الخارج عن الحقيقة.

يعرض الشَّريفُ المُرتضى في أماليه (غُرر الفوائد ودُرر القلائد) لمسائل شتّى تتنوّع بين (تأويل آية) و(تأويل خبر)، ويعرضُ لأبياتٍ في مختلف الأغراض على سبيل الاستشهاد، وفي ثنايا ذلك يأتي على ذكر قضية أَخْذِ المعاني وتلاقح الأشعار فيما بينها، ويُدلي برأيه النَّقدي في الشعر والشعراء، إلى غير ذلك من القضايا اللُّغوية والبلاغية والنقدية، ومُنطلق ذلك كلِّه تأويلُ الآيات والأخبار.

ينطلق الشَّريفُ المرتضى في تأويله للآيات والأخبار من عرض الآراء السابقة ومناقشتِها، ثمّ يُبدي رأيه الذي يرجّحُه بناءً على ما سبق جردُه، وقد يُبرز مواطنَ القوّة في هذه الآراء أو مواطنَ التهافت والضَّعف، وفي ثنايا ترجيحه أو ردِّه لتأويلٍ ما، يشير إلى مذاهب العرب في الكلام متّخذًا إياها مبدأً أساسيًا في الترجيح وفهم الآيات والأخبار المروية عن النبي ﷺ.

تدور عمليةُ التأويل عند الشَّريف المُرتضى على مبدأ الترجيح، فقد يرجّح الدّلالةَ بناءً على لسان العرب، ومن ذلك قولُه «وأما شهادة اللفظ فلأنّ الرحمةَ أقربُ إلى هذه الكناية من الاختلاف، وحمل اللفظ على أقرب المذكورين إليها أولى في لسان العرب»، ويتّضح أنَّ المقصود باللسان هنا هو النَّحو بقواعده المنظّمة للكلام، ومعرفتُه ضرورية لترجيح التأويل المناسب.

إنَّ تحديدَ دِلالة اللفظ الدقيقة داخلَ السياق لا بدّ أن يقوم على معرفة دقيقةٍ باستعماله عند العرب، «والعرب تقول: فلان بصيرٌ بهذا الأمر؛ وزيد أبصرُ بكذا من عمرو، ولا يريدون إبصارَ العين بل العلم والمعرفة»، وهذا أحد أوجه ترجيح المعنى المناسب للسياق.

ويطلب الشَّريف المُرتضى إذا استعصى عليه تحديدُ المعنى في

السياق، دليلا من الشعر بوصفه ديوانَ العرب الذي يحوي أدبَهم ولغتَهم وطريقتَهم في القول، ويرجع إليه نُشدانا للحُجّة، وعادةً ما يستشهد به إذا تعلّق الأمر بالخروج عن الحقيقة، ويُردف الأبياتَ المستشهدَ بها بتعليق يزيد التأويلَ وضوحًا، من ذلك قوله:« قال مُرّة بن مَحكان السعدي يصف قِدرًا نَصَبَهَا للأضياف:

لها أزيزٌ يزيلُ اللَّحم أَزَمُلُهُ
عن العظام إذا استحمَشتْ غَضَبَا
ترمي الصُّلاةَ بنبلٍ غيرِ طائشةٍ
وَفْقا إذا آنست من تحتها لَهَبَا

فوصفها بالغضب تشبيها واستعارةً، فأما الأزيز فهو الغليان، والعرب تقول: لجوفه أزيزٌ مثل أزيز المِرجل».

يتّضح من هذا الاستشهاد أهميةُ أن يكون المتصدِّي لتأويل النصِّ القرآني أو الحديثي عارفًا بكلام العرب وطرقِ تصريف المعاني. فاللفظُ قد يحمله المؤوِّلُ على الحقيقة وهو في أصله نازعٌ إلى المجاز أو التمثيل، ومن شأن ذلك أن يفضي إلى تحريف الدِّلالة وتعميتها.

يعيد المُرتضى سببَ ظاهرة معينة إلى ما تعودّت العربُ

على استعماله في كلامها، ويَسعى من ذلك إلى دفع التوهّم بعدم جدواه والاستغناء عنه، ومن ذلك ما قرّره في تكرار قوله تعالى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣]، فيقول: «فيحسُن منه التكريرُ لاختلاف ما يقرّره به، وهذا كثير في كلام العرب وأشعارهم»، ثم يورد شعرًا للمهلهل وليلى الأخيلية على سبيل الاستشهاد، ويبين أنَّ العرب درجَت في كلامها على التكرار طلبا لأداء المعاني وتقريرها.

ومدارُ الأمر في تعليقه على لفظ (يحسُن)، ففيه إشارةٌ إلى زيادة الفائدة التي لا تتحصّل بعدم التكرار، وتأكيدٌ منه أنّ في كلام العرب من هذا الأسلوب، وأنه ليس بغريب ومُستنكر، وهو حسْب لفظ المُرتضى (كثير) مما يدعم رأيَه ويجعله مُقنِعًا.

وقد يتّخذ من تصحيح الدّلالة سبيلًا إلى ترجيح المعنى الذي يَطمئن إليه اعتمادًا على دليل من كلام العرب، «والجواب، أنّ للعرب فيما جرى هذا المجرى من الكلام عـادةً معروفة، ومذهبًا مشهورا، عند من تصفّح كلامَهم وفهم عنهم، ومرادُهم بذلك المبالغةُ في النفي وتأكيده؛ فمن ذلك قولُهم: فلان لا يُرجى خيرُه؛ ليس يريدون أنَّ فيه خيرا لا يرجى، وإنما غرضُهم أنه لا خير عنده على وجه من الوجوه؛ ومثله: قلما رأيتُ مثلَ هذا الرجل، وإنما يريدون أنَّ مثله لم يُرَ لا قليلا ولا كثيرا»، ثم يَعرض الأشعار المقوّية لرأيه.

نقف في هذا المقطع على مُشيرات نصّية مهمّة من قبيل: (عادة معروفة، مذهب مشهور)، تفيد ضرورةَ الدِّراية بعادة العرب ومذهبها في القول، مع التركيز على المذهب المشهور لأنه حاسمٌ في ترجيح الدّلالة، وذلك لا يتأتّى إلا لمن تصفّح كلامَهم وخبره بطول الدِّربة والاتصال والفقه،

ويبين الشّريفُ المُرتضى أن هذا الأسلوب يجري وَفق عادةٍ معروفة عند العرب ومذهبٍ مشهور، وسبيلُ مجيئه على ذاك النسق أن يقوّيَ التأويل المختار، ويسوق لذلك عباراتٍ تبيّن قصدَه وتدعم مذهبَه في التفسير.

تتعدّد دلالة الكلمة الواحدة في كلام العرب، وتُفضي المعرفة بها إلى ترجيح التأويل الصحيح: (الجواب، إنّ الذي يُعوّل عليه من تكلم في تأويل هذه الأخبار هو أن يقول: إنّ الإصبع في كلام العرب وإن كانت الجارحةَ المخصوصةَ فهي ايضا الأثرُ الحسن؛ يقال: لفلان على ماله وإبله إصبعٌ حسنةٌ، أي قيام وأثرٌ حسن؛ قال الراعي يصف راعيًا حسنَ القيامِ على إبله:

ضَعيفُ العَصا بادي العُروقِ ترى لَهُ
عَليها إذا ما أجدَبَ النّاسُ إصبَعا

ويفصّل المرتضى في الأمر سعيًا إلى تأكيد ما ذهب إلى ترجيحه ويمكن أن يكون الوجهُ في تسميتهم للأثر الحسن بالإصبع هو من حيث يُشار إليه بالإصبع إعجابا به، وتنبيها عليه؛ وهذه عادتُهم في تسمية الشيء بما يقع عنده، وبما له به عُلقة، وقد قال قوم في بيتي طُفيل والراعي: إنهما أرادا أن يقولا: «يدا» في مكان «إصبع»؛ لأن اليدَ النعمةُ؛ فلم يمكنْهما، فعدلا عن اليد إلى الإصبع، لأنها من اليد .

وفي تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ [الزمر: ٦٧] يبرز الوجه المقدَّم الذي ينبغي اعتمادُه تعويلا على السياق: « قال: إنّها بين أصابعه؛ كناية عن هذا المعنى، واختصارا للفظ الطويل، وجريا على مذهب العرب في إخبارهم عن مثل هذا المعنى بمثل هذا اللفظ، وهذا الوجه يجب أن يكون مقدمًا على الوجه الأول، ومعتمدًا؛ لأنّه واضح جليّ».

يختار المُرتضى الدّلالةَ الراجحةَ بين وجهين، مؤكدًا وضوحَ الوجه وجلاءَه وتقديمَه على غيره.

ولكي يقتنعَ المتلقي بصواب التأويل يبين أنَّ التعبيرَ القرآنيَّ له نظائرُ في كلام العرب، من ذلك قولُه: «ونظائر هذا كثيرة في كلام العرب»، ويكتفي بهذه العبارة ولا يخوض في سرد هذه النظائر وتعدادها.

وفي شرح قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[الأحزاب:١٠] يطلب المرتضى الدليلَ من كلام العرب على تأويله، ويكون ذلك فيما يجري على المجاز لا الحقيقة: «ومن شأن الجبان عند العرب إذا اشتدّ خوفُه أن تنتفخ رئتُه، ولهذا يقولون للجبان: انتفخ سَحْرُه، أي رئته، وليس يمتنعُ أن تكون الرئة إذا انتفخت رُفعتِ القلب، ونهضت به نحو الحنجرة،

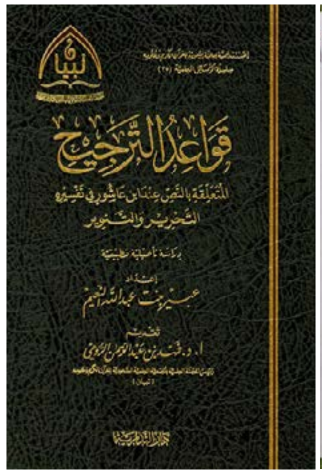

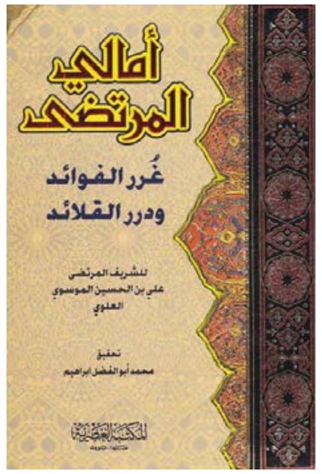

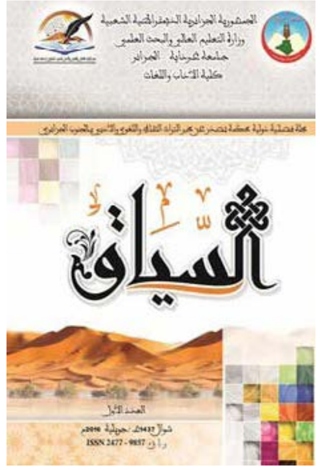

وهذا التأويل قد ذكره الفراء وغيرُه، ورواه الكلبي عن أبي صالح عن أبي عباس». ويؤكد هذا الكلامَ فائدةَ الإحاطة بما تداولته العرب من كلام يُحمل على المجاز، ويقوّي الاستشهادُ بعلماء سابقين التأويلَ المرجح.

وقد يورد وجهًا آخر لم يذكره المُفسّرون، تَستعمله العرب في كلامها يصرفُ التأويلَ إلى دلالته المناسبة للسياق، ويمكن في الآية وجه آخر لم يُذكر فيها، يليق بمذاهب العرب في استعمال مثل هذا اللفظ، وهو أن تكون في قوله تعالى: ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨] تعظيمُ الأمر وتفخيمُه، كما يقول القائل : فعل فلان ما فعل، وأقدم على ما أقدم، إذا أراد التفخيم، قال تعالى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ [الشعراء:١٩]، وما يجري هذا المجرى، ويدخل في هذا الباب قولُهم للرجل: هذا هذا، وأنت أنت، وفي القوم هم هُم قال الهذلي:

رَفَوْني وقالوا: يا خويلدُ لا تُرَعْ
فقلتُ، وأنكرتُ الوجوهَ: هُمُ هُمُ

وقال أبو النجم:

أنا أبو النجم، وشعري شعري
كل ذاك أرادوا تعظيمَ الأمر وتكبيرَه.

وفي قوله تعالى ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾ [النحل: ٢٦]، يورد المُرتضى بعضَ الإشارات الأسلوبية اللطيفة التي تنطق بالنُّكت البلاغية، وترتبط بجمالية اللغة ودقّتِها في أداء المعاني والتعبير عنها: وللعرب في هذا مذهب ظريفٌ طريفٌ؛ لأنهم لا يستعملون لفظة «على» في مثل هذا الموضع، إلا في الشرّ والأمر المكروه الضارّ، ويستعملون اللام وغيرها في خلاف ذلك؛ ألا ترى أنهم لا يقولون: عَمَرَت على فلان ضيعتُه، ولا ولَدت عليه جاريتُه، بل يقولون: عمرت له ضيعتُه، وولدت له جاريتُه، وهكذا من شأنهم إذا قالوا: قال عليّ، و«روى عليّ»؛ فإنه يقال في الشر والكذب، وفي الخير والحق يقولون: «قال عنّي»، و«روى عنّي».

وقد يعلّل المُرتضى اختيارَه التأويلي بناء على ما تكلّم به العربُ، رادًّا ذلك إلى الفائدة المتحصّلة من التعبير والسياق معا «ووجه آخر، وهو أن تكون الفائدة في ذلك التأكيدَ، فقد جرت به عادةُ العرب في كلامها».

ويخلُص المُرتضى لمبدئه في التأويل المعتمِد على الترجيح، فبعد أن يَعرض للوجوه المحتمَلة يُعرض عنها ويختار الوجه المرجَّح بناء على مذاهب العرب في لسانها، ومن ذلك قوله: «وعندي أنّ معنى قوله ﷺ اليد العليا خير من اليد السفلى» غيرُ ما ذُكر من الوجهين جميعًا، وهو أن تكون اليد هاهنا هي العطية والنعمة؛ لأنّ النعمة قد تسمى يدًا في مذهب أهل اللسان بغير شك.

إنّ التّصدّي لتفسير النَّص القرآني وتأويل النَّص الحديثي وشرح النَّص الشعري لا يتمُّ لأيٍّ كان، لأنّ هذه النصوصَ لها ضوابطُ تُراعي فيها سننَ العرب ومذاهبَها، وقد كان القدماءُ واعين بهذه المسألة، وكان لا يخوض في التأويل إلا مَن خبَر كلامَ العرب ومذاهبَهم ووعاها حقَّ الوعي، كما كانوا مُدركين بأنّ التفسير لا يتمُّ وَفْق الهوى بل سيرًا على ضوابطَ معلومةٍ وسُنَنٍ مرسومةٍ.

أثـرُ اختـلافِ اللَّهجَـات في التّوجيهِ النّقدي

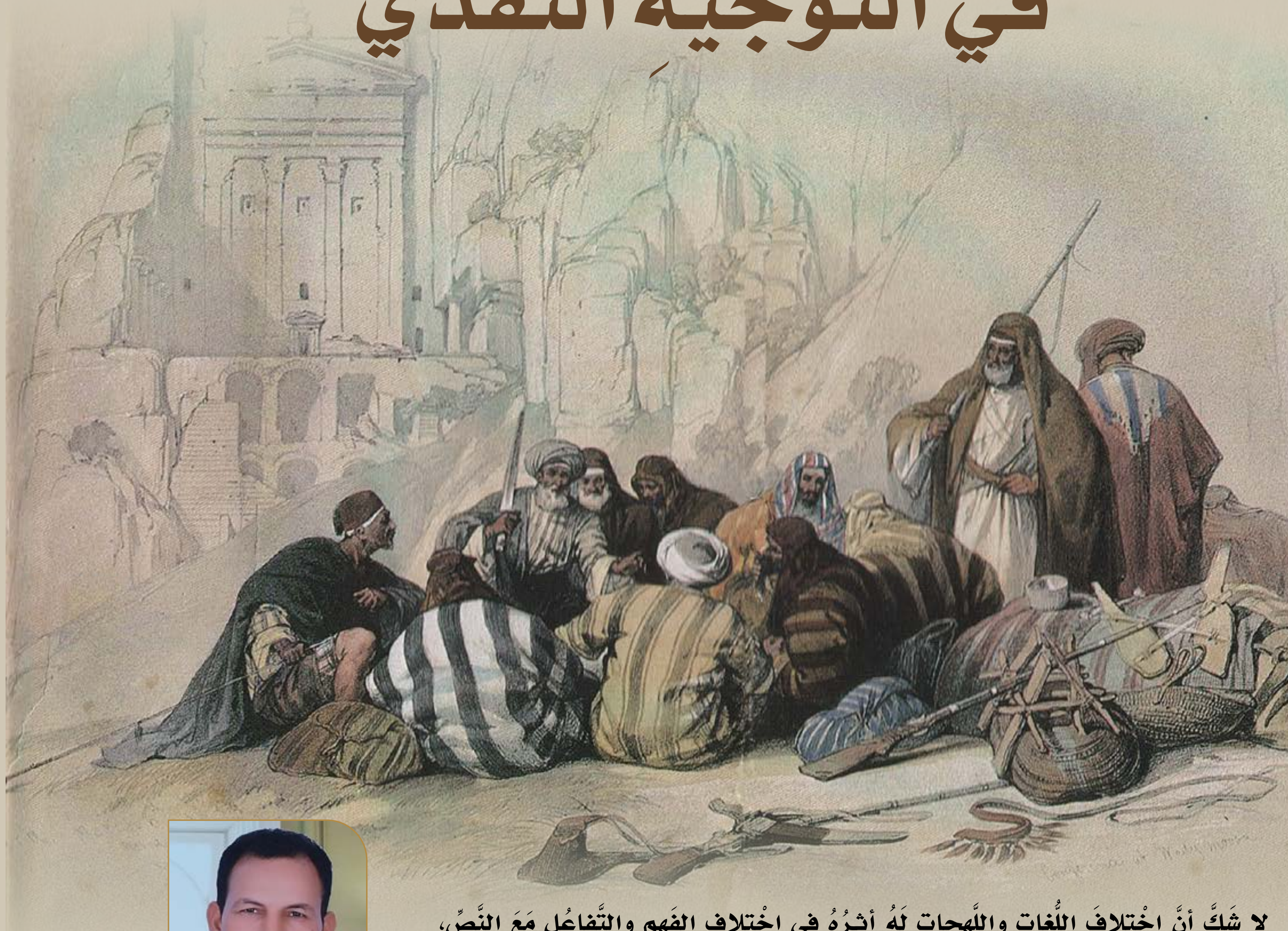

لا شَكَّ أنَّ اخْتلافَ اللُّغاتِ واللَّهجاتِ لَهُ أثـرُهُ في اخْتلافِ الفَهمِ والتَّفاعُلِ مَعَ النَّصِّ، ولا سِيَّما حِينَ يَكونُ الاختلافُ حَولَ المَعاني المُتَعلِّقةِ باللَّفظَةِ الواحدةِ في تِلْكَ اللَّهجاتِ، ومِنْ ذَلِكَ ما رَواهُ عبدُ اللّهِ بنُ عُمرَ (ت: ٧٣هـ) قالَ: «بعَثَ النَّبيُّ ﷺ خالدَ بنَ الوليدِ ت: ٢١هـ إلى بَني جُذيمةَ، فلمْ يُحسنوا أنْ يَقولوا: أسْلَمْنا؛ فَقالُوا: صَبأنا صَبأنا. فجَعلَ خالدٌ يَقتلُ ويَأسرُ، ودَفعَ إلى كُلِّ رجلٍ منّا أسيرَهُ، فأمَرَ كُلَّ رجلٍ منّا أن يَقتلَ أسيرَهُ، فقُلتُ: واللّهِ لا أقتلُ أسيري، ولا يَقتلُ رجلٌ من أصحابِي أسيرَهُ؛ فذكَرنا ذَلِكَ لِلنَّبي ﷺ فَقالَ: اللهُمَّ إنِّي أبرأُ إلَيكَ مِمّا صَنعَ خالدُ بنُ الوليدِ» مرَّتينِ.

حسن الحضري
عُضوُ اتِّحاد كتّابِ مِصر

ومَعْنى (صبأ): خَرجَ منْ دِينٍ إلى دينٍ، لكنَّ خالدًا حَملَ اللَّفظَ عَلى المَعْنى الشّائعِ الذي أطلقتْهُ العَربُ عَلى النّبي ﷺ وأصحابِهِ كصِفةٍ لهُم؛ «وكانَتِ العَربُ تسمِّي النّبيّ ﷺ الصّابِئَ؛ لأنَّهُ خَرجَ منْ دِينِ قُريشٍ إلى الإسلامِ»، فظنَّ خالدٌ رضي الله عنه أنَّ بَنِي جُذيمة يَسبُّونَ المُسلمينَ، بَينَما همْ يَقصدونَ أنَّهُمْ أسلمُوا.

وهَذا الاخْتلافُ بَينَ اللَّهجَاتِ لا يَخلو الأمرُ مَعهُ مِنْ أنْ تَكونَ لَهجةٌ أفصحَ مِنْ أخرى، رَوى ابنُ فارسٍ (ت: ٣٩٥هـ) عَنْ شيوخِهِ: «أجمعَ علماؤُنا بكلامِ العَربِ والرّواةِ لأشعارِهِم والعُلماءِ بلُغاتِهِم وأيّامِهِم ومَحالِّهِم: أَنَّ قُريشًا أفصحُ العَربِ أَلْسنةً وأصفاهُمْ لُغةً؛ وذَلِكَ أنَّ اللهَ – جلَّ ثناؤُهُ– اختارَهُمْ منْ جَميعِ العَربِ واصطفاهُمْ، واخْتارَ منهُم نبَيَّ الرّحمةِ محمّدًا ﷺ فجعلَ قُريشًا قُطّانَ حَرمِهِ، وجيرانَ بيتِهِ الحرام وولاتَهُ، فكانَتْ وفودُ العَربِ منْ حجّاجِها وغيرِهِم يَفِدونَ إلى مكَّةَ لِلحجِّ، ويتَحاكمونَ إلى قُرَيشٍ في أمورِهِم، وكانَتْ قُرَيشٌ تعلِّمُهُمْ مناسكَهُمْ، وتَحكمُ بينَهُمْ... ثُمَّ قالَ ابنُ فارسٍ: وكانَتْ قُرَيشٌ مَعَ فَصاحتِها وحُسنِ لُغاتِها ورقّةِ ألسنتِها إذا أتتْهُمْ الوُفودُ مِنَ العَربِ تَخيَّروا منْ كَلامِهِم وأشعارِهِم أحْسنَ لغاتِهِم وأصفى كلامِهِم، فاجتَمعَ ما تَخيّرُوا مِن تِلْكَ اللُّغاتِ إلى نَحائرِهِم وسلائقِهِم التي طُبِعُوا عَلَيها، فصارُوا بذَلِكَ أفصحَ العَرَبِ»، «فكانَ الشّاعرُ منْ غيرِ قُريشٍ يتحاشى خصائصَ لهجتِهِ، ويتجنبُ صفاتَها الخاصةِ في بناءِ الكلمةِ وإخراجِ الحُرُوفِ وتركيبِ الجملةِ ونحوِ ذَلِكَ»، و«عنْ حمادُ الرّاويّة [ت: ١٥٥هـ] قالَ: كانَتِ العَربُ تَعرضُ أشعارَها عَلى قُريشٍ، فما قَبِلُوا مِنْهُ كانَ مقبولًا، وما ردُّوا مِنْهُ كانَ مَردودًا».

وأحيانًا يلجأُ الشّاعرُ إلى لُغةِ قومِهِ الخاصّةِ، فينْظِمُ بِها شَيئًا منْ شِعرِهِ، فيتلقّاهُ النّاسُ بلغةِ قُرَيشٍ، فيتعرَّضُ شيءٌ مِنْهُ لِلتَّصحيفِ؛ بِسببِ اختِلافِ لُغَتِهِ عَنْ لُغةِ قُرَيشٍ، وربَّما قادَ التّصحيفُ إلى تحريفِ المَعْنى في بَعْضِ الأحيانِ، فيُعرِّضُ الشّاعرُ نفسَهُ لتخطئةِ النُّقّادِ، الّذينَ يتلقَّونَ شِعرَهُ قياسًا عَلى اللُّغةِ الجامعةِ التي هِيَ لُغةُ قُرَيشٍ، وقَدْ تَتقاربُ المعانِي والدّلالاتُ بَينَ لُغةِ الشّاعرِ في لفظةٍ بعينِها، وبَينَ الصّورةِ التي آلتْ إليها في لُغةِ قُرَيشٍ، فيَنعدمُ أَوْ يتقلَّصُ أثرُ اختلافِ اللغةِ، ومنْ ذَلِكَ ما رواهُ الآمدِي (ت: ٣٧٠هـ)؛ حَيثُ قالَ: «قالَ امرؤُ القيسِ (ت: ٥٤٥م):

عُوجا عَلى الطَّلَل المُحِيلِ لأنَّنا
نَبكِي الدِّيارَ كما بَكى ابنُ خِذامِ

ثُمَّ نَقلَ الآمديُّ تَعليقَ أبي عُبيدةَ (ت: ٢٠٩هـ) عَلى هَذا البَيتِ: قَوله (لأنَّنا) يريدُ (لَعلّنا).

فمَن رَوى البَيْتَ بِفَتحِ اللّامِ مِنْ (لأنّنا)؛ فَقَدْ ذَكرَها بلغةِ الشّاعرِ، ومَنْ قَرأها بِكسرِ اللّام فَقَدْ صَحَّفَها، غيرَ أنّ المَعْنيَينِ مُتقاربانِ في كُلّ حالٍ؛ فقولُه (لعلَّنا نَبكي الدِّيارَ...) لَيسَ بِبَعيدٍ عَنْ قوله (لأنَّنا نَبكي الدِّيارَ...)؛ ففي الأولى رجاءٌ، وفي الثَّانيةِ تَأكيدٌ، ولا أثَرَ لِهَذا الاخْتلافِ اليَسيرِ، عَلى شيءٍ في مَعْنى البَيْتِ أَوْ مَبناهُ.

وفي اخْتلافِ التَّوجيهِ النَّحويِّ أيضًا أشياءُ مِنْ هَذا القَبيلِ، قالَ المُبرِّدُ (ت: ٢٨٥هـ): وقَدْ لحَّنَ كَثيرٌ مِنَ النّاسِ العجَّاجَ (ت: ٩٠هـ) في قوله:

خالَطَ مِن سَلمى خياشِيمَ وفا

ولَيسَ عِنْدي بِلاحنٍ؛ لأنَّهُ حَيثُ اضطُرَّ أتى بِهِ في قافيةٍ لا يلحقُهُ مَعَها التّنوين في مَذهبِهِ، ومَنْ كانَ يَرى تنوينَ القَوافي فيَقولُ: (أقلِّي اللَّومَ عاذِلُ والعِتابَنْ)؛ لَمْ ينوِّنْ هذا؛ لأنَّ تَرْكَ التّنوينِ هُوَ الأكثرُ الأغلبُ؛ لِما في هَذا الاسمِ مِنَ الاعتِلالِ.

وكَلامُ المُبرِّدِ هُنا كلامُ العالِمِ المُنصفِ والنّاقدِ البَصيرِ، وأمّا تَخطئةُ النّاسِ لِلعجّاجِ فَقَدْ عرَّضَ العجّاجُ نفسَهَ لذَلِكَ في مَواضِعَ كثيرةٍ من رَجَزِهِ، ولا سِيَّما أنَّهُ كانَ يَرتجِزُ بلغةِ قومِهِ بَني تَميمٍ، قالَ عيسى بْنُ عُمرَ (ت: ١٤٩هـ): «بَنو تَميمٍ هُمْ أصحابُ النَّبرِ».

ومِن تَبِعاتِ نَظْمِ العَجّاجِ بِلغةِ قَومِهِ؛ قولُ ابنِ رشيقٍ (ت: ٤٦٣هـ) – وهُوَ يَتكلَّمُ عَنْ عُيوبِ القافيةِ –: «ومِنْها تَأسيسُ قافيةٍ دونَ أخواتِها، كَقولِ العجّاجِ:

فخِنْدِفُ هامةُ هَذا العالَمِ

وأوّلُ هَذِهِ الأرجوزةِ:

يا دارَ سَلَمى يا اسْلَمي ثُمَّ اسْلَمي

وكلُّها غَيرُ مُؤسَّسةٍ إلّا هَذا البَيْتُ وحدَهُ، ويُقالُ: إنَّ لُغَتَهُ الهَمزُ، فإذا هَمزَ لَمْ يَكُنْ تأسيسًا.

فَقَدْ عرَّضَ العَجّاجُ شِعرَهُ لِلطَّعنِ بِسببِ لُغَتِهِ، ولَو أنَّهُ نَظمَ باللُّغةِ الجامعةِ الّتي يَنظمُ بِها الشّعراءُ؛ لَصانَ شِعرَهُ، فالعُلماءُ وإنْ ذَكروا أنَّ لُغَتَهُ الهَمزُ، وقَدْ أصابوا في ذَلِكَ، لكنَّهُم ذَكروهُ في سياقِ الاحتِمالِ، بَعدَ أنْ تطايرَتِ الأنباءُ بتخطئتِهِ، ومِنهُم مَنْ ألصقَ هَذا الخطأَ بالعَجّاجِ دونَ دفاعٍ عَنْهُ؛ قالَ ابنُ سَلّامٍ (ت: ٢٣٢هـ): «وقالَ العَجّاجُ فأفرطَ وجاوزَ السِّنادَ مَعَ حذفِهِ.. ثُمَّ رَوى ابن سَلّام لَهُ أبياتًا مِنَ الأرجوزةِ المذكورةِ، ثُمَّ قالَ: فساندَ في بيتَينِ سِنادًا فاحِشًا أخذَهُ النّاسُ عَلَيهِ»، ويَقصدُ بالبيتين قوله:

مبارَكٍ لِلأنبياءِ خاتَم
وخِنْدِفُ هامةُ هَذا العالَم

ولَيسَ لديهِ سنادٌ؛ وإنَّما هِيَ لُغة قومِهِ نَظمَ بِها فعرَّضَ نفسَهُ لذَلِكَ الطَّعنِ.

اللغة العربية ... و"الآخر"

أ.د. عبد الرحمن بوعلي
أستاذ الأدب الحديث بجامعة الشارقة

قد يتساءل الباحث الرّصين والعالم الأمين عن الموقع المركزيّ المهمّ الذي تحتلّه اللغة العربيّة في العالم المعاصر، وعن الوظيفة الأساسيّة والفعّالة التي يمكن أن تؤدّيها بعظمتها وتاريخيّتها وجماليّتها، باتّساع فضاءاتها ومواقعها والنّاطقين بها. وهذا سؤال وجيه ومنطقيّ، سؤال يعرض علينا كما عرض على غيرنا من قبل؛ ذلك أنّ اللغة العربية – كيفما كان الموقع الذي تحتلّه اليوم في القرن الواحد والعشرين، وفيما يأتي من الأيّام والعقود – هي لغة ذات أهميّة كبيرة؛ لأنّ جذورها تعود إلى قرون طويلة، وأهمّيتها لا خلاف عليها، بغضّ النّظر عن كونها لغة القرآن ولغة الرسالة.

أضف إلى ذلك، أنّ الشّعوب والقوميّات الأخرى، أو ما أصبحنا نطلق عليه اليوم اسم «الآخر» قد أولاها عناية لا تخلو من رمزيّة؛ فموقع اللغة العربية من «الآخر» موقع – لا شكّ – أنه مهمّ من حيث الفعاليّة والتّأثير، وإنّ التّأثير الذي تُحدثه اللغة العربيّة في «الآخر» لا يمكن إلّا أن يلاحظ في كتابات هذا الآخر الذي قد يبدو غير مبال، ولكنّه في أعماقه متأثّر كبير التّأثّر بها وبعظمتها وجلالها.

وفي هذا الصّدد فقد ذهب المستشرق الألمانيّ أوغست فيشر (August Fischer) (١٨٦٥–١٩٤٩)، الذي شُغف باللغة العربيّة أيّما شغف، إلى القول في مقدّمته للمعجم اللغويّ التّاريخيّ، وهو الجزء الذي نشره مجمع اللغة العربية في القاهرة: «وإذا استثنينا الصّين فلا يوجد شعب آخر يحقّ له الافتخار بوفرة كتبِ علوم لغته، وبشعورِه المبكرِ بحاجته إلى تنسيقِ مفرداتها، بحسب أصول وقواعدَ غيرَ العرب» (من مقدمة المعجم، ص ٦).

أما المستشرق هايوود (J. Haywood) فقد ذهب إلى القول: «إنّ العرب في مجال المعجم يحتلّون مكان المركز، سواء في الزّمان أو المكان، سواء عند العالم القديمِ أو الحديثِ، أو في الشّرقِ والغربِ».

ومما يُحسب للغة العربيّة، ويُعدّ من خصائصها الرّئيسة، وسماتها المميّزة، كونها لغة شاملة ومكتملة، فهي لغة لا عيبَ فيها ولا نقص، ولا يُعجزها شيء في كل المجالات، ولا تعجز عن الخوض في أمور العالم، وفي بيان ذلك يقول المستشرق

أوغست فيشر

البريطانيّ ألفريد غيوم (Guillaume) (١٨٨٨-١٩٦٦):

«ويسهل على المرء أن يدركَ مدى استيعابِ اللغةِ العربيةِ واتساعها للتعبير عن جميع المصطلحات العلمية للعالم القديم بكل يسرٍ وسهولة، بوجود التعدّد في تغيير دلالة استعمال الفعل والاسم».

ومن الأمور التي ساعدت على انتشار اللغة العربيّة وذيوعها كون الإسلام كان عمادًا وسندًا لها.

«إن في الإسـلام، يقول المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس Germanus)) (١٨٨٤ – ١٩٧٩)، سندًا مهمًّا للغة العربية، أبقى على روعتها وخلودها، فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة، على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة، كاللاتينيّة حيث انزوت تمامًا بين جدران المعابد. ولقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثًا، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب، فاقتبست آلافًا من الكلمات العربيّة ازدانت بها لغاتها الأصليّة، فازدادت قوّةً ونماءً. والعنصر الثّاني الذي أبقى على اللغة العربية هو مرونتها التي لا تُبارى، فالألمانيّ المعاصر مثلاً، لا يستطيع أن يفهم كلمةً واحدةً من اللهجة التي كان يتحدّث بها أجداده منذ ألف سنة، بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم آداب لغتهم التي

كتبت في الجاهلية قبل الإسلام.

ومعنى ذلك أن العنصرين الذين تمت الإشارة إليهما – وهما قوة الإسلام أولًا، وقمة المرونة ثانيًا – عنصران من عناصر قوة اللغة العربيّة في زماننا، ومن عناصر استمرارها قوية وذات بلاغة قلّ نظيرها في اللغات المعاصرة لها.

الأمر الثاني الذي من الواجب أن ننبّه عليه هو قدرة اللغة العربيّة على الجمع والتوليف بين كل المكونات والشعوب التي تتكلّمها، سواء أكانت شرقيّة أم غربيّة، وكأنّها تشير إلى رمزيّة قلّ نظيرها، لتفسير ذلك يقول المستشرق الألماني يوهان فيك (Fück) (١٨٩٤- ١٩٧٤) صاحب كتاب «العربيّة: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب» والذي نقله إلى العربيّة عبد الحليم النّجار ورمضان عبد التوّاب:

«إن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي أساسًا لهذه الحقيقة الثّابتة، وهي أنّها قد قامت في جميع البلدان العربيّة والإسلاميّة رمزًا لغويًا لوحدة عالم الإسلام في الثّقافة والمدنيّة، ولقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنّه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر، وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل، فستحتفظ العربيّة بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية».

وتصاديًا مع هذا القول، يقول جوستاف جرونيباوم (GRUNEBAUM) (١٩٠٩- ١٩٧٢)، رابطًا بين اللغة العربيّة وتبليغ رسالة الإسلام :

«عندما أوحى الله رسالته إلى رسوله محمد أنزلها (قرآنًا عربيًا) والله يقول لنبيّه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ (مريم:٩٧)، وما من لغة تستطيع أن تطاول اللغة العربيّة في شرفها، فهي الوسيلة التي اختيرت لتحمل رسالة الله النهائيّة، وليست منزلتها الرّوحيّة هي وحدها التي تسمو بها على ما أودع الله في سائر اللغات من قوة وبيان، أما السّعة فالأمر فيها واضح، ومن يتّبع جميع اللغات لا يجد فيها على ما سعته لغة تضاهي اللغة العربيّة، ويُضاف جمال الصّوت إلى ثروتها المدهشة في المترادفات».

وفي نفس السّياق يقول شيخ المستشرقين الألمان تيودور نولدكه (Nöldeke) (١٨٣٦-١٩٣٠) عن العربيّة وعالميتها وفضلها وقيمتها وغناها وكونها لغة علميّة ولغة دين:

«إن اللغة العربيّة لم تَصِر حقًا عالميّةً إلا بسبب القرآن والإسلام، وقد وضع أمامنا علماءُ اللغة العرب باجتهادهم أبنيةَ اللغة الكلاسيكيّة، وكذلك مفرداتها في حالة كمالٍ تامّ، وأنّه لا بدّ أن يزداد تعجّب المرء من وفرة مفردات اللغة العربية، عندما يعرف أنّ علاقات المعيشة لدى العرب بسيطةٌ جداً، ولكنّهم في داخل هذه الدائرة يرمزون للفرق الدّقيق في المعنى بكلمةٍ خاصة، والعربيّة الكلاسيكيّة ليست غنيةً فقط بالمفردات، ولكنّها غنيةٌ أيضًا بالصّيغ النّحويّة، وتهتمّ العربيّة بربط الجمل ببعضها، وهكذا أصبحت اللغة (البدويّة) لغةً للدّين والمنتديات وشؤون الحياة الرّفيعة، وفي شوارع المدينة، ثم أصبحت لغةَ المعاملات والعلوم، وإن كل مؤمنٍ غالبًا جداً ما يتلو يوميًا في الصلاة بعض أجزاء من القرآن، ومعظم المسلمين يفهمون بالطبع بعض ما يتلون أو يسمعون، وهكذا كان لا بدّ أن يكون لهذا الكتاب من التّأثير على لغة المنطقة المتّسعة ما لم يكن لأيّ كتابٍ سواء في العالم، وكذلك يقابل لغة الدّين ولغة العلماء والرّجل العاديّ بكثرة، ويؤدّي إلى تغيير كثيرٍ من الكلمات والتّعابير في اللغة الشّعبيّة إلى الصّحة».

ويقول المستشرق الفرنسي رينان (Renan):

«من أغرب المدهِشات أن تنبتَ تلك اللغة القوميّة وتصل إلى درجة الكمال وسط الصّحاري عند أمة من الرّحالة، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرةِ مفرداتها ودقّة معانيها وحسنِ نظامِ مبانيها، ولم يُعرف لها في كل أطوار حياتها طفولة ولا شيخوخة، ولا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى، ولا نعرف شبيهاً بهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت حافظةً لكيانها من كلّ شائبة».

ويقول المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون (Massignon):

«استطاعت العربيّة أن تبرز طاقة السّاميّين في معالجة التّعبير عن أدقّ خلجات الفكر سواءً كان ذلك في الاكتشافات العلميّة والحسابيّة أو وصف المشاهدات أو خيالات النّفس وأسرارها.

واللغة العربية هي التي أدخلت في الغرب طريقة التعبير العلمي، والعربية من أنقى اللغات، فقد تفرّدت بتفردها في طرق التعبير العلمي والفني والصوفي، إن التعبير العلمي الذي كان مستعملاً في القرون الوسطى لم يتناوله القدم ولكنّه وقف أمام تقدّم القوى المادية فلم يتطور.

أما الألفاظ المعبّرة عن المعاني الجدليّة والنّفسانية والصّوفيّة فإنها لم تحتفظ بقيمتها فحسب، بل تستطيع أن تؤثّر في الفكر الغربيّ وتنشطه.

ثم ذلك الإيجاز الذي تتّسم به اللغة العربيّة والذي لا شبيه له في سائر لغات العالم والذي يُعدّ معجزةً لغويّةً كما قال البيروني ».

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة (Hunke) (١٩١٣-١٩٩٩): «كيف يستطيع الإنسان أن يقاوم جمال هذه اللغة ومنطقَها السّليم وسحرَها الفريد؟ فجيران العرب أنفسهم في البلدان التي فتحوها سقطوا صرعى سحر تلك اللغة، فلقد اندفع النّاس الذين بقوا على دينهم في هذا التّيّار يتكلّمون اللغة العربيّة بشغف، حتّى إنّ اللغة القبطيّة مثلاً ماتت تمامًا، بل إنّ اللغة الآرامية لغة المسيح قد تخلّت إلى الأبد عن مركزها لتحتلّ مكانها لُغَة محم».

ويقول المستشرق الألماني كارل بروكلمان (Brockelmann) (١٨٦٨-١٩٥٦): «بلغت العربية بفضل القرآن من الاتساع مدىً لا تكاد تعرفه أي لغةٍ أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأن العربية وحدها اللسان الذي أُحِل لهم أن يستعملوه في صلاتهم».

كارل بروكلمان

هذه إذن هي اللغة العربية كما رآها الغربيّون، وهذه هي بالذّات كما تصوّرها «الآخــــر»، هذا الذي نظر إليها بعين محايدة، وهو يعاشر أبناءها ويقرأ حروفها ويتطلّع إلى معانيها، ولئن عُدَّت لغة علم ودين، ولغة حياة وطبيعة.. فما من لغة استطاعت أن تطاولها في عظمتها وعلوّ شأنها.

المُهيّئاتُ العلميّةُ
لتقنةِ اللّغةِ العَرَبيّةِ حاسُوبيًّا

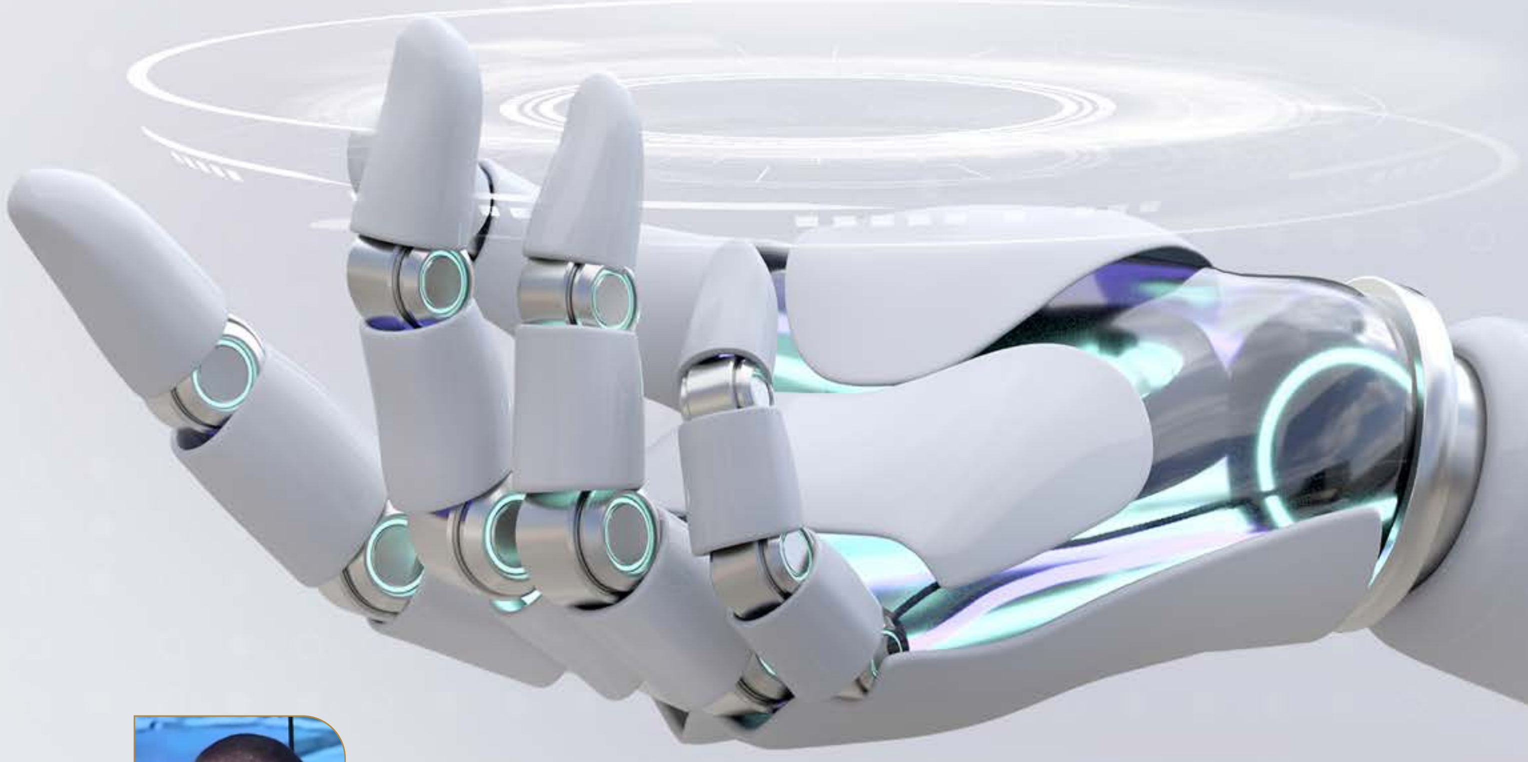

د. مُحمّد حــرّاث
جامِعةُ الشّلف - الجَزائر

ممّا هُوَ معروفٌ أنّ لِلعربيّةِ إشكالاتٍ حاسُوبيّةً، ما زالَتْ قائمةً إلى يَومِنا هذا، فالحاسُوبُ لا يَزالُ مُنحازًا إلى اللُّغةِ الإنجليزيّةِ، حتّى إنّ مُعظَمَ الأبحاثِ في حَوسبةِ العَرَبيّةِ ورَقمنَتِها، قامَ بها باحِثونَ غيرُ عربٍ، وهُم يَنظرونَ إلى العَرَبيّةِ بعَينِ لُغَتِهِم، دُونَ أنْ ننسى كذلكَ عوائقَ التَّشكيلِ، وكذا إشكاليةُ الفَهمِ الآليِّ لِلّغةِ العَرَبيّةِ– وهُوَ حُلمُنا جميعًا – والّذي يَحتاجُ إلى مَكْنَزٍ يَحتوي قاعدةَ بياناتٍ إحْصائيّةً، ثُمّ إلى بَرامجَ سِياقيّةٍ دِلاليّةٍ تصنيفيّةٍ، وكذا ما يُسمّى بالذّكاءِ الصّناعيِّ.

مَعَ العِلمِ أنّ الحاسُوبَ قَدْ يُساعِدُنا كثيرًا في خِدمةِ العَرَبيّةِ، وأنّ هُناكَ حُلولًا كثيرةً، ما زالَتِ افتِراضًا مَطرُوحًا، يُنتَظَرُ أنْ يُصبِحَ واقِعًا مُعاشًا، فالحاسُوبُ يُمكنُهُ – مثلًا– مُساعدتَنا في إنْشاءِ: (بَرامِجَ تعليميّةٍ، وبرامِجَ لِلصّرفِ الآليِّ، وبرامِجَ لِلنحوِ والإعْرابِ، وبَرامجَ لِلنّطقِ ضِمنَ خَصائِصِ الصّوتياتِ العَرَبيّةِ، وبرامِجَ لِلتّرجمةِ، وبرامِجَ لِلتّشكيلِ الآليِّ). وهَذا ما يَضْطلِعُ بِهِ عِلمُ اللّسانيّاتِ الحاسُوبيُّ، الّذي يتصدّى لإشْكالاتِ تطبيقِ اللُّغةِ العَرَبيّةِ حاسُوبيًّا. وقَدْ تَحقّقَ بَعْضُ هَذا الّذي تقدّمَ، ولكِنْ يَبقى مُحتاجًا إلى بَعْضِ التّرشيدِ والتّوجيهِ.

وممّا يُقلّلُ مِن حِدّةِ هَذِهِ الإشكالاتِ والمُعوّقاتِ، وممّا يُشجّعُ على تَجاوزِها هُوَ ما تَمتازُ بِهِ اللُّغةُ العَرَبيّةُ عَنْ غيرِها مِنَ اللُّغاتِ بخَصائِصَ عِلميّةٍ تَجعلُها مُهيّأةً لِدُخولِها أنْظِمةَ الحاسُوبِ، مِن أجلِ حَوسَبتِها ورقمنَتِها؛ ومِن هَـذِهِ الخَصائِصِ: الـجَذْرُ، والأَوْزانُ الصّرفيّةُ، والإيقاعُ، والاشْتِقاقُ، وغيرُها مِنَ المُهيّئاتِ العِلميّةِ.

١– الثّنائيّاتُ: إنّ النّاظِرَ المُمعِنَ إلى مُخصّصاتِ هَذِهِ اللّغةِ، يَستشِفُّ أنّها تَملِكُ مِنَ المُبرِّراتِ العِلميّةِ ما يَجعَلُها تتبوّأُ أعْلى مَقامٍ في فَلَكِ الرّقمَنةِ والتّقانةِ. كَيفَ لا؟ وهِيَ لُغةٌ طَبيعيّةٌ؛ أي: تَتَماشى وقانونَ الطّبيعةِ، فإذا عَلِمْنا أنّ اللهَ تعالى خَلَقَ مِن كُلِّ شيءٍ زَوجَيْنِ اثْنَينِ، وأنّ الكونَ قائِمٌ على هَذِهِ الثُّنائيّةِ الزّوجيّةِ، نَعلَمُ أنّ لُغةَ الحاسوبِ – حِينَ تأسّسَ– قائِمةٌ على اللُّغةِ الثّنائيّةِ (٠١). وفي المُقابِلِ نَجِدُ العَرَبيّةَ قائِمةً على هَذا النّظامِ الثُّنائيِّ المُتمثِّلِ: في الحَرَكةِ والسّكونِ أَوْ في الصّوامتِ والصّوائِتِ، وهَذا ما يَجعلُ العَرَبيّةَ مُهيّأةً وجَديرةً بِتَقْنَنَتِها ورَقْمَنَتِها.

فلا يَخلو الحرفُ في العَرَبيّةِ مِن أنْ يكونَ مُتحرِّكًا: (مَرفوعًا أَوْ مَنصُوبًا أَوْ مَجرورًا)، أَوْ يَكونَ في المُقابِلِ ساكِنًا. وقَدِ اصْطلَحَ العُلَماءُ قديمًا على المُتحرِّكِ والسّاكِنِ بالرّمزَينِ: (/ ٠) فالخَطُّ يُقابِلُ الحَرفَ المُتحرّكَ، والدّائِرةُ تُقابِلُ الحَرفَ السّاكِنَ. وهَذِهِ الثّنائيّةُ الزّوجيّةُ تُقابِلُها لُغةُ الحاسوبِ الثُّنائيّةُ أيْضًا: (١–٠).

ومِنَ الثُّنائيّاتِ الّتي تتميّزُ بِها العَرَبيّةُ أيضًا، ثُنائيّةُ الصّوامِتِ الـصّــوائِـتِ.

فالحُروفُ العَرَبيّةُ هِيَ في الأَصْلِ مَقاطِعُ صَوتيّةٌ غَيرُ قابلةٍ لِلتَّقْطيعِ؛ أي: أنّ الحَرفَ هُوَ أَصْغرُ وِحدةٍ صَوتِيّةٍ. فالصّوامِتُ (Consonants) هِيَ الحُروفُ الأقلُّ وُضوحًا في السَّمعِ، أَوِ الحُروفُ المُنخفِضةُ في الصَّوتِ؛ نحوَ: (ب، ت، ث ...). وأمّا الصَّوائِتُ (Vowels) فَهِيَ تِلْكَ الحَركاتُ: مِن ضمّةٍ وفَتحةٍ وكَسرةٍ. وكذَلِكَ: الواوُ والألِفُ والياءُ. فالأُولى: صَوائِتُ قَصيرةٌ، والأُخرى صَوائِتُ طَويلةٌ. وهِيَ أوضَحُ في السَّمعِ، وأعْلى في الصَّوتِ.

٢- الجَذْرُ: أضِفْ إلَيها مِنَ المُهيّئاتِ أنَّها لُغةٌ قائِمةٌ عَلى الجَذرِ، مِنَ الثُّنائيِّ إلى السُّداسيِّ. فالجَذرُ صِيغةٌ أَوْ قالَبٌ شَكليٌّ تُصاغُ مِنْهُ كُلُّ الكَلماتِ وتَصريفاتُها، وما يَطرأُ عَلَيها مِن زِياداتٍ وإِعْلالاتٍ وإبْدالاتٍ، فمِنْ خِلالِ الجَذرِ تَستطيعُ المَناطيقُ الرَّقمية لِلحاسوبِ أنْ تُسيطِرَ على الصّيغةِ الأصليّةِ لِلكلِمةِ قَبْلَ تَفرُّعاتِها، فَيسهُلُ التَّحكّمُ في الكَلمةِ وتَصارِيفِها، وهَذا مُهيّئٌ ثانٍ مِن مُهيّئاتِ العَرَبيّةِ واستِعدادِها الطَّبيعيِّ لدُخولِ عالَمِ الرَّقمَنةِ من بابِهِ الواسِعِ.

فالجَذرُ (ك ت ب) لَهُ صَرفيًّا ولُغويًّا احتِمالاتٌ مَحدودةٌ، من حَيثُ التَّرتيبُ؛ أيْ: تَرتيبُ الحُروفِ، ومِن حَيثُ تَشكيلُ الحُروفِ، لِذا يُعطى لِلمِنطاقِ هَذا الجَذرُ، فيُعطِي المِنطاقُ عَبرَ عَمليّةٍ رِياضيّةٍ مُعقّدةٍ جَميعَ الاحتِمالاتِ المُمكنةِ: المُستعملةِ والمُهملةِ؛ مِثلَ نِظامِ التّقليباتِ الّذي استَعمَلَهُ الخَليلُ بنُ أحمدَ الفَراهيديُّ في مُعجمِهِ العَينِ. وما عَلى اللِّسانيِّ الحاسوبيِّ إلّا تَصنيفُ هَذِهِ الاحتِمالاتِ، وهَذا ما يُسمّى التّوصيفَ. أيْ: تَوصيفَ اللُّغةِ حاسوبيًّا.

فبِناءً عَلى خَصيصةِ الجَذرِ، نَستطيعُ السَّيطرةَ عَلى جَميعِ كَلماتِ العَرَبيّةِ بطَريقةٍ رِياضيّةٍ حاسوبيّةٍ سَريعةٍ وسَهلةٍ.

٣- المِيزانُ الصَّرفيُّ: كذَلِكَ مِنَ المُهيِّئاتِ أنَّ العَرَبيّةَ لُغةٌ قائِمةٌ عَلى الوَزنِ، أَوِ المِيزانِ الصّرفيِّ، وهُوَ قالَبٌ مَعنويٌّ إيقاعيٌّ، يَتحكّمُ في التّدفّقِ الصّوتيِّ لِلكلِماتِ، وهِيَ أَبْنيةٌ صَرفيّةٌ تُصاغُ عَلى مِنوالِها كُلُّ كلِمةٍ عربيّةٍ، فلا تَكادُ تَخرجُ كَلمةٌ عربيّةٌ فَصيحة عَنْ مِيزانٍ صَرفيٍّ مَعيَّنٍ، ويَسهلُ ضَبطُ هَذِهِ المَوازِينِ عَلى مَناطِيقِ الحاسوبِ وبَرامِجِهِ، القِياسيِّ مِنها، وحَتّى السّماعِيِّ، الّذي عَلى الرَّغْمِ مِن حُريّةِ حَركيّتِهِ إلّا أنَّهُ مَضبوطٌ أيضًا. فهَذا المِيزانُ الصّرفيُّ يُهيِّئُ العَرَبيّةَ لِرقمَنتِها في الحاسوبِ.

ويَقابِلُ المِيزانُ الصّرفيُّ مَوازِينَ أُخرى: كالمِيزانِ التَّصغيريِّ، والمِيزانِ العَروضيِّ، والمِيزانِ المَقطعيِّ. ويَبقى المِيزانُ الصَّرفيُّ (فَعَلَ) في جَذرِهِ الثُّلاثيّ هُوَ الضّابطُ لِكُلِّ المَوازِينِ الصَّرفِيّةِ الأُخرى، لأنَّ أكثرَ كَلماتِ العَرَبيّةِ مِيزانُها الصّرفيُّ ثُلاثيٌّ. لذا بُنِيَتْ عَلى الميزانِ الثُّلاثيِّ بَقيةُ المَوازينِ غَيرِ الثُّلاثيةِ الأُخرى.

٤- مُهيّئاتٌ أخرى: بَل إنَّ مِنْ مُخصِّصاتِ العَرَبيّةِ أنّ لتَراتُبِ الحُروفِ ومَواقِعِها داخِلَ الكلمةِ ضَوابطَ، فبَعْضُ الحُروفِ لا تَلتَقي بِحروفٍ أخْرى في كَلمةٍ واحِدةٍ، وإلّا كانَتِ الكَلمةُ أعْجَميّةً أجنبيّةً، وبَعْضُ الحُرُوف يَجبُ حُضورُ أحَدِها في كُلِّ كلمةٍ، وما غابَتْ مِنْها هَذِهِ الحُرُوفُ فَهِيَ كلمةٌ أعجميّةٌ دخيلةٌ غَيرُ فَصيحةٍ. فوَضعُ هَذِهِ الاحتِمالاتِ الرِّياضيّةِ يُساعِدُ في وضعِ مِنطاقٍ يُحلِّلُ الكَلماتِ ويُدرِجُها ضِمنَ الفَصيحِ الأَصيلِ، أَوْ غَيرِ الفَصيحِ الدّخيلِ.

فمِنْ ذَلِكَ، تَمثيلًا، أنَّ كُلَّ لَفظةٍ تَبدأُ بالنُّونِ، ثُمّ تَليها الرّاءُ لَيستْ عَربيّةً فَصيحةً؛ أَوْ أنْ يَكونَ آخرُ اللَّفظةِ زايًا مَسبوقًا بِدالٍ، أَوْ أنْ تَجتمِعَ في لَفظةٍ واحدةٍ الصّادُ والجيمُ، أَوِ الجِيمُ والقافُ، أَوِ الياءُ والتّاءُ والسّينُ، أَوِ الجيمُ والطّاءُ؛ نَحوَ: الصَّولجانُ، والمِنجنيقُ، والبُستانُ. فيُمكنُ إعطاءُ هَذِهِ الأوامِرِ لِلحاسوبِ، ليَقومَ بتَحليلِ ومُعالجةِ كُلِّ لَفظةٍ مُدخلةٍ ليُصنِّفَها في العَرَبيِّ الفَصيحِ، أَوْ في المُعرّبِ والدَّخيلِ والمُولّدِ.

دونَ أنْ نَنْسى كذَلِكَ كَثيرًا مِنَ المُخصِّصاتِ والمُهيِّئاتِ كمَخارجِ الحُرُوفِ وصِفاتِها، الّتي تَمَّ ضبطُها بحِكمةٍ. كُلُّ هَذِهِ المُهيِّئاتِ الّتي سَبقَ ذكرُها تُبَيِّنُ لَنا بِما لا يَدعُ لِلشَّكِّ مَجالًا أنَّ اللُّغةَ العَرَبيّةَ لُغةٌ عِلميّةٌ طَبيعيّةٌ رياضيّةٌ رَقميّةٌ تقنيّةٌ.

خِتامًا: يَبقى في الأخيرِ أنْ نَفتحَ بابًا لِلأملِ، بَعدَ أنْ تَكلَّلَتِ الكَثيرُ مِنَ الجُهودِ الحاسوبيّةِ بالنَّجاحِ، فنجد عَلى الشّابكةِ الكثيرَ مِنَ البرامجِ والمناطيقِ العَرَبيّةِ، الّتي تَخدمُ لُغَتَنا، ولَمْ يبقَ مِن هَذِهِ الإشكالاتِ الّتي تقدَّمَ ذكرُها إلا القَليلَ، فإذا نَظرْنا أولًا إلى الجهودِ الّتي بُذِلتْ وتَكلّلتْ بالنَّجاحِ، ثُمَّ نَظرْنا ثانيًا إلى المُهِيِّئاتِ الطَّبيعيّةِ العلميّةِ الّتي تَمتازُ بِها اللُّغةُ العَرَبيّةُ عَنْ غَيرِها مِنَ اللغاتِ، فَإنَّ ذَلِكَ يَجبُ أنْ يَكونَ حافزًا وداعمًا لِمواصلةِ السّيرِ بالعَرَبيّةِ نَحوَ الحَوسبةِ التّامةِ الشّاملةِ لَجميعِ نُظُمِها وأبوابِها ومُستوياتِها.

كَيْفَ نُحَقِّقُ الجَوَانِبَ الجَمَالِيَّةَ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ

عبد الحميد الراوي
كاتب وباحث لغوي

إنَّ التغلّبَ على مشكلة الملَل والنُّفور من دروس اللغة العربية التي نُعاني منها في جميع مراحل التعليم يَقتضي النَّظرَ في المنهج والطريقة والمعلِّم.

أمّا فيما يتعلّق للمنهج فإنّنا لا نملُّ القول: إنَّ الفصلَ بين فروع اللغة أدى إلى أن يشعر المتعلِّمُ أنّ كلَّ فرع قائمٌ بذاته، وأنّه وحدةٌ مستقلةٌ لا صلةَ لها بالأخرى إلا في العنوان العام «اللغة العربية» لذلك فإنَّ ما يتعلّمه التلميذُ في القواعد لا يستخدمه في القراءة والكتابة، وما يتعلَّمُه في النصوص والقراءة لا يستخدمُه في التعبير والتحدّث.

وما يستخدمه في التعبير والتحدّث لا صلة له بهذا ولا بذاك، لأنّه غالباً من لحن القول، ومن استخدامات العامة في البيئة المنزلية وفي الأسواق والملاعب ودُور اللهو والتسلية، وما أكثرها في عالمنا المعاصر.

واللغة الفصيحة المُفترى عليها حائرةٌ بين تلك المتاهات كلِّها، وعليها وحدها يُلقى اللومُ والعتابُ، وإليها يُنسب العُقم والصعوبة والجفاء، وهي بريئةٌ من ذلك براءةَ الذئب من دم ابن يعقوب.

إنَّ المنهجَ التربوي الحديثَ في أيِّ مكان من العالم المتقدِّم يقوم على أسس واضحةِ المعالم، أولُها وأهمُّها الأهدافُ المرجوة من هذا المنهج، وهي في مُجملها تقوم على ما تقتضيه ظروفُ المجتمع وحاجاتُه، وما تتطلبه الحياةُ من إعداد خاصٍّ للقوى البشرية.

ويحاول واضعو المناهج تحليلَ الحياة المعاصرةِ إلى نواحٍ وظيفية لتسهيل اشتقاق الأهداف منها، ومن ذلك حمايةُ الحياة، والمحافظةُ عليها والعنايةُ بالمصادر الطبيعية للثروة وإنتاج السلع والخدمات وتوزيعِ العائد من الإنتاج، واستهلاك السلع والانتفاع بالخدمات، ووسائل الاتصال والانتقال والنواحي الترويجية، والتذوّق الجمالي والقدرةُ على الإسهام في إثراء الحياة بالعلم والثقافة والإبداع والاختراع، وتزكيةُ روح التصور والتخيُّل عند الإنسان وبلورةُ المضامين الحيّة في بيئته وتراثه وعصره.

ومناهجُ اللغة العربية بطريقتها الحالية لا تخدمُ شيئاً من ذلك، ولا يستطيع مُربٍّ أو مسؤولٌ عن اللغة أن يعطيَك مبرِّرًا واحدًا لذلك، فالكلُّ يختصر الطريق لنفسه ويلقي اللَّومَ على غيره.

وهكذا تظلُّ الأهـدافُ واضحةَ المعالم والتطبيق والنتائج مختلّةَ الميزان، وتزداد أميّةُ المتعلّمين في اللغة، وتندثر بذلك ألوانٌ مهمّة من تراثنا وثقافتنا في الماضي والحاضر والمستقبل.

أما الأساسُ الذي يقوم عليه المنهجُ فهو المحتوى، وأعني بالمحتوى المُقرراتِ الدراسية التي يتمُّ اختيارُها في ضوء الأهداف والخصائص النفسية لتلاميذ مرحلةٍ من المراحل، ولو نظرنا إلى محتوى اللغة العربية في أيِّ مرحلة من مراحل التعليم في عالَمنا العربي؛ فإنّنا نجدُ نُتفاً غيرَ متواصلة الأركان يَحار فيها التلميذ، بل والمعلّم في حالات كثيرة، فتلك مقطوعةٌ تُسمّى نصاً والتلميذ أصلاً لا يستطيع قراءتها، وإن قرأها لا يعرف بناءَها اللغوي، وإن عرف بناءَها اللغوي لا يجيدُ كتابتَها، وإن أجاد كتابتَها لا يجيد التعبيرَ عنها، وبالمثل يقال عن موضوع القراءة أو القواعد أو الإملاء أو غيرِها مما يُسمّى بفروع اللغة، وهكذا يصبح المحتوى بلا محتوى والنتيجةُ تِيهٌ وفراغ.

إنّ تعليم التلاميذ وتثقيفَهم له عناصرُ اجتماعيةٌ ونفسية تبدأ بالإحساس، وتنتهي بتبنِّي أو رفضِ المضمون الثقافي، وقد قضينا بطريقة أو بأخرى على الإحساس باللغة عند أبنائنا، فانتهى الأمر عندهم برفض المضمون الثقافي لها. وربّما يقول قائل إنّ هذه نظرةٌ تشاؤميةٌ، ولكنّها الحقيقة التي نشاهدها ونلمَسُها في دُور العلم ومنتدياته وفي الحياة العامّة، وإلا فليَقُل لي قائل: لماذا لا يستطيع خرِّيجُ الجامعة كتابةَ رسالة خاليةٍ من عشرات الأخطاء النحوية والإملائية والأسلوبية؟ بعدما كانت اللغة العربية لغةَ غزو ثقافي وأدبي للعالَم كلِّه، وقف أمامها مبهوتين مطارنةُ أوروبا حتى قال كبيرهم «الفارو» في القرن الرابع الهجري في الأندلس: إنّ أبناءها ينْكبّون على اللغة العربية يرتوُون من معانيها الأدبية والفكرية والعلمية، ويُعجبون بها وبأساليبها حتى إنّنا لو طلبنا منهم كتابةَ رسالة أو بحث بلغتهم الأصلية عجزوا عن ذلك وأجادوا في مثله باللغة العربية.

فالعجز والتقصير إذن ليس في اللغة العربية؛ وإنّما في مناهجها وأساليب تدريسها، وإذا أردنا أن نَخرج من هذه الدوامة،

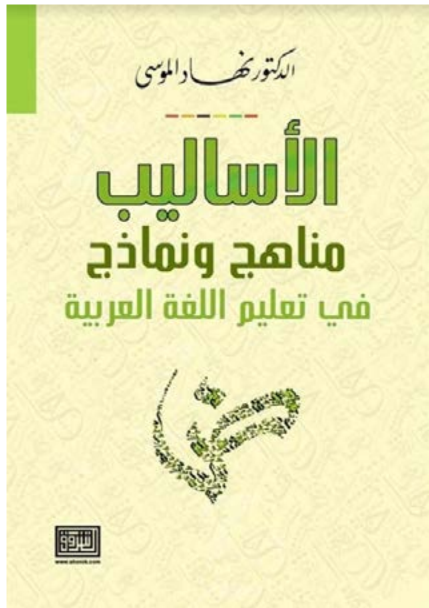

فإنّ علينا أن نعيَ قبل تعليم اللغة أنّ وجود فكرة أو موقف أو حدَث أو شيء في عالَم الطفل الخارجي لا يعني له شيئاً على الإطلاق، ما لم يحسَّ به ويُدركْه ومن ثَمّ يفهمه؛ لأنّ الفهم يتطلّب توفُّر خِبْرات سبق للطفل الإحساسُ بها، لذلك فإنّ تعليم اللغة يجب أن يكون كُلّاً متكاملاً، وأن يكون المعلّم والبيئة المدرسية والبيئة الاجتماعية هي حقلُ الخِبرات اللغوية الصّحيحة، ولا يتمُّ التعامل والحوار والتدريس إلا باللغة الفصيحة.

ولكي يكون هذا التعاملُ فعالاً: فإنّ مضمونَه الثقافي يجب أن يُصاغ من مجموعات متوافقة مع الإطار الإدراكي لتلاميذ كلّ مرحلة من المراحل التعليمية.

أما الأساسُ الثالث للمنهج فهو طريقة التدريس، وهي كما نعلم متعدِّدةٌ، ولستُ هنا في موقفٍ يسمح بالإفاضة حولها ولا هي غايتُنا من هذا المقال، وإنّما أريدُ أن أعرِض بصورة سريعة للطرق المستعملة في تدريس اللغة العربية، وخاصّة في المرحلة الابتدائية ولماذا جاءت نتائجُها مخيِّبةً للآمال؟

الطريقة الأبجدية:

إنّ من أوائل طُرق تعليم اللغة العربية، الطريقة الأبجدية تلك الطريقة التي كانت تَعتمد على تعليم المبتدئين أسماءَ الحروف، ثمّ حركاتها المختلفة قبل الانطلاق إلى تكوين الكلمات والجمل، ثم القراءة والفهم، وكانت تلك الطريقة ذاتَ أثر كبير في سلامة النُّطق ووضوح الحروف عند المتعلّمين بها، وإن كانت طويلةَ المدى مملّةً لهم، وحين عُدل عنها إلى الطريقة الصوتية التي تعلّم بها أصواتُ الحروف، ثم أسماؤها حصلنا على نتيجة تمكين المبتدئين من الحروف وأصواتها معاً، ولكنّ التجريبيين من علماء النّفس قالوا عن الطريقتين أنّهما تخالفان مخالفة تامّة الطريقة الطبيعية التي يسير عليها عقلُ الإنسان في إدراك الأشياء والأفكار، لأنهما تبدآن بالجزء وهو الحرف ثم تنتقلان إلى الكل وهو الكلمةُ والجملة، وعلى عكس ذلك يقوم العقلُ بإدراك الأشياء، فهو يبدأ بالكلِّ ثم ينتقل إلى الجزء، فوق أنهما تَصرفان الطفلَ عن فهم المعاني والعناية بها، وليس فيهما تشويقٌ أو إثارةٌ لدوافع التلاميذ، لهذا فقد عُدل عنهما إلى الطريقة التحليلية، تلك الطريقة التي تعتمد على تعليم الطفل الجمل أولاً، ثم يحلّلُها إلى أجزائها كلماتٍ ومقاطعَ وحروفٍ، وهي طريقةٌ تتفق وقوانينَ الإدراك عند الطفل، لأنّ الإنسانَ إذا رأى شيئاً لأولِ مرّة أدركه إدراكاً عاماً، ثم أدرك تفاصيله بعد ذلك، ولكنّ هذه الطريقةَ أدّت إلى أن المتعلّمين بها يصبحون ضعفاءَ في التهجّي والإملاء، وخاصة في الفترة الأولى من تعلّمهم، كما أنّهم يُبدون عجزاً واضحاً في مواجهة الكلمات التي لم يَسبق لهم التعرُّف عليها، لهذا انتُقل منها إلى الطريقة الازدواجية، أو ما يسمّى بالطريقة «الانتقائية»، وهي

طريقة تجمع بين عناصر الطرق السابقة كلها، وهي تقريباً الطريقةُ السائدة في تعليم القراءة والكتابة في معظم أنحاء العالم الآن.

المشكلة هنا

ولكنّ التساؤلَ المثير للاهتمام هو أنّه لماذا على الرُّغم من تنوّع هذه الطرق وتعدُّدِ ميزاتها لم نستطعْ جعلَ اللغة العربية بمهاراتها المختلفة في متناول أبنائنا؟ ولم نستطع جذبَهم إليها بصورة مشوِّقة تثيرُهم إليها وتدفعُهم إلى البروز فيها والعناية بها.

إنّ المشكلة في الحقيقة ليست في هذه الطريقة أو تلك، وإنّما فيمن يؤدونها وفي النُّظم المرسومة لإيصالها إلى المتعلّم، وفي المنهج المحدّد لذلك، وأخطرُ هذه المشكلات يكمن أساساً في إعداد المعلِّم الذي يقوم بهذا الدور الخطير في بناء الأمة وحفظ تراثها، وتشكيل هويتها وبلورة أفكارها.

لقد حدث خلطٌ كبير في مفهوم إعداد معلِّم للغة العربية، وإعداد متخصِّص وباحث فيها فكانت النتيجةُ أن نرى في مواقع التعليم من لا يُحسنه وفي مجال البحث من لا يجيده، إن إعداد معلِّم اللغة العربية يختلف اختلافاً كبيراً عن إعداد متخصص أو باحث فيها؛ وذلك لاختلاف الهدف والوظيفة، فالباحث اللغوي يُعنى بدراسة اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية، ويُعنى بتحليل المواقف اللغوية وتسجيل الملاحظات التي تساعد في فهم طبيعة اللغة وتطوّرها عبر القرون، وما طرأ عليها من تغيرات صوتية وبنائية وتركيبية، أما معلّم اللغة العربية فإنّه يتعامل معها على أنها وسيلةُ اتصال يعبّر بها الفردُ عن حاجاته ورغباته، ويتعامَل بها مع أعضاء المجتمع الذي يعيش فيه، وهو إذ يعلّمُها لتلاميذه إنّما يعلّمهم عملية الاتصال ومهاراتِها من استماع وتحدّث وقراءة وكتابة، كما أنه يعلّمهم كيف ينظمون فكرهم؟ وكيف يعبرون عن هذا الفكر في المواقف المختلفة، فإذ لم تتوفر للمعلم هذه المهاراتُ فكيف نتوقع منه أن يعلّمها تلاميذَه؟

إنّ الجوانبَ الجمالية في اللغة العربية، والقيمَ الأخلاقية والفكرية والسلوكية المُتصلةَ بها نتجت عن تجاربَ إنسانيةٍ في الأدب والعلوم والمعارف، وإذ لم يستطع المعلِّمُ تمثُّلَ هذه القيم وإدراكَ تلك التجارب فكيف يستطيع جذبَ التلاميذ إليها والانصهارَ معها بحبٍّ وشَوق؟ فالمعلِّم الحقيقي لا يقتصر دورُه في الفصل على نقل معلوماتٍ لغويةٍ يسترجعُها التلاميذ ويستظهرونها دون أن يكون لها أعماقُها في ذواتهم، ودون أن تلتحم بمشاعرهم وتُترجَم إلى سلوك متّصلٍ بالحياة والأحياء، وإنما دورُه المؤثِّرُ يتضح في تحوّل المعرفة إلى قِيمٍ والمفهومِ إلى فن واللغةِ إلى لسان.

إنّ كثيرين من مُعلِّمي اللغة العربية لا يعلّمون اللغةَ، ولكن يعلّمون أشياءَ عنها فتأتي أعمالُهم مبتورةً لا تثير رغبةً ولا تحقق علماً، ولا توجّه سلوكاً فينفر التلاميذُ منهم ومنها، وتبقى الحلقةُ مُفرغةً والدوامةُ دائرةً وإلى أين المصير؟ إنها قضيةٌ تحتاج إلى تضافر جهودِ كلِّ المُخلِصين للتغلب على جوانبها الخطيرة وما أكثرَهم والحمدُ لله في العالم العربي.

صُورةُ البَطلِ عِنْدَ أبي تَمّــام والمُتَنبِّــي

مِنْ خِلالِ قَصيدَتَي: فَتْحِ الفُتوحِ والحَدث الحَمراء

د. محمد عدنان الخطيب

مِمّا لا شكَّ فيه أنَّ الدِّراساتِ الّتي تَناولَتْ قَصيدةَ أبي تَمّام كَثيرةٌ وأَعني قَصيدةَ «فَتحُ الفُتوحِ» أَوْ «في فتحِ عمّوريّة». وإنَّها لأشهرُ قَصيدةٍ تُذكَرُ في الشِّعرِ العَرَبيِّ إلى جانبِ المُعلَّقاتِ، فَهيَ مُعلَّقةُ العَصرِ العَبّاسيِّ –إنْ جازَ الوَصفُ. ولَقَدْ شَغَلَتِ الدّارسينَ، وحَفِلَتْ بها الكُتبُ الدِّراسيّةُ في كُلِّ مُستوياتِها. هَذا ولَقَدْ وجدْتُ ثَمَّةَ نُقطةً حَريٌّ بالدّارسِ أنْ يُوضِّحَها أكْثرَ وهِيَ هَذا الجانبُ الذّاتيُّ في أبي تَمّام مَعَ القَصيدةِ، وكَيفَ كانَ لِهَذِهِ القَصيدةِ أنْ تَتَّجِهَ عِنْدَهُ، فَنُظِمَتْ بِحِسِّ الإشْراقِ بالنَّصرِ لديهِ، وما سَعى بهِ لِتَأصيلِهِ بالدِّينِ انْطلاقًا مِنْ عَقيدتِه، مُغلِّبًا هَذا الجانبَ على جانبِ البَطَلِ الّذي هُوَ المُعتَصِمُ. ومِنْ ثَمَّ رَأيتُ أنْ أُوضِّحَ هَذا وأَقرِنَهُ إلى قَصيدةِ المُتنبِّي (الحَدَثُ الحَمْراءُ) الّتي رَكَّزَ فيها على جانبِ البُطولةِ كي تَكتمِلَ الدِّراسةُ من جانبَينِ لَهُما أكبرُ الأثرِ في حَياةِ أكْبرِ شاعِرين، فكانَتْ دِراسةً أدبيّةً ذاتيّةً غَلَبَ عَلَيها الطّابعُ الإنْشائيُّ لأنَّني في مَعرِضِ تَحليلٍ لِبرهةِ النَّصرِ أَوْ زَهوِ البَطَلِ، وهَذا يَلزمُهُ هَذا التَّوجُّهُ، بَلْ إنَّني لأقولُ إنَّ هَذا ما أفَضِّلُهُ في دِراستي هُنا لأعبِّرَ عَنْ مَشاعرَ تَكَوَّنَتْ جَرّاءَ مُلامَستِها هَذا الشِّعرَ البَديعَ، وكانَ البَحثُ وفق :

١– مقدِّمةٌ (أ)
٢– عَرضٌ وتَحليلٌ (ب)
٣– المُقارَنةُ مَعَ المُتنبي (ج)
٤– الخاتِمةُ (د)
٥– المَراجعُ والمَصادرُ (هـ)

أ– تَنْطلقُ قَصيدةُ فَتحِ الفُتوحِ، أَوْ فتحِ عمورية لأبي تَمّام مَلحمةً خالدةً مُسجلةً ذَلكَ النَّصرَ الخَلّابَ الباهرَ، وإنَّها لَوثيقةٌ لَيستْ كالوثائقِ في مادّيّتِها أَوْ جفافِها وتَقريريَّتِها ومُباشرتِها في الإخبارِ، وإنَّما هِيَ لَوحةٌ مُطرَّزةٌ بِهَذا الحِسِّ الدَّفّاقِ والشُّعورِ الخَلّاقِ المُؤتَلِقِ بالنَّصرِ والبُطولةِ، وطلبِ الثّأرِ مِنَ الرّومِ.

ب– ذَلِكَ أنَّ السَّيفَ هُنا هُوَ الصّادقُ في الإخبارِ، ولَيستِ الوثائقُ والصُّحفُ، وهُوَ المُظهِرُ لِحقيقةِ الفِعلِ، ويُثبِتُ مَجرى التّاريخِ مَعلَمًا واضحًا على صراطٍ سَويٍّ لامعٍ كَحدِّهِ، وإذا ما أتَتِ الأخبارُ المُلفّقةُ مِنَ المُنَجِّمينَ والمُشعوذينَ فَمِنَ الحَريِّ بأبي تَمّام أنْ يَكونَ فَيصلَهُ هَذا السَّيفُ الفَيصلُ المُحقِّقُ لِلحقِّ، والمُذْهِبُ لِلأباطيلِ والتَّخرصاتِ.

السَّيفُ هُنا ناطقٌ بِمنطقِ العَقلِ، ومستقرئٌ لِلأحْداثِ اسْتقراءً مَنْطقيًا مُحكمًا، غيرَ خاضعٍ أوْ آبهٍ لِشَعوذةٍ أَوْ تَقليدٍ، بَلْ دَأْبُهُ الإحْكامُ ومِنْ ثَمَّ التَّفْنيدُ لِهَذِهِ الدَّعاوى الشَّوهاءِ الزّائفةِ.

إذًا السَّيفُ بما لَهُ مِنْ شَرعيّةٍ عِنْدَ أبي تَمّام وبما لَهُ مِنْ نَبالةٍ وإرهافِ شُعورٍ، وحَدٍّ مُهذَّبٍ مشهورٍ، هُوَ الفَردُ المُحقِّقُ الظّاهرُ فَوقَ الأكاذيبِ وزيفِ الأمورِ، سَواءٌ كانَتْ في العَدوِّ، أوْ في صَفِّ الصَّديقِ؛ إذْ ما نَفْعُ ولاءٍ موتورٍ، ومَنطقٍ مُنقلِبٍ مُختلٍّ مَنْقوصٍ مَبنيٍّ على الوَهْمِ والاخْتِلاقِ؟!

وإنَّما شَأنُ هَذا الوَلاءِ الضُّرُّ، واليَدُ الشَّلّاءُ إذا ما اسْتكانَتْ لِهَذا الطَّرحِ المُدجِّلِ الكَذّابِ، لِذَلِكَ يَأتي هُجومُ أبي تَمّام عَنيفًا مُحكَمًا، مُقرَّعًا باهرًا بمنطقِهِ العَقليِّ المُحكمِ وقَولِهِ المُسدَّدِ الحانِقِ عَلى هَؤلاءِ الدَّجالينَ الّذينَ يَضعونَ أنْفسَهُمْ في مَسارِ الأفْعالِ الفائقةِ، ويُريدونَ تَقييدَها بِدجلِهِم .

شعورٌ حادٌّ يَمتازُ بِهِ أبو تَمّام هُنا يُندِّدُ بِهَذا الزَّيفِ عِنْدَ سدّةِ الفِعلِ الخَلّاقِ المُشرِّفِ، ويَختمُهُ بِهَذا البَيانِ العَقليِّ الباهرِ:

لو بَيَّنَتْ قَطُّ أمرًا قَبْلَ مَوقِعِهِ
لَمْ يَخْفَ ما حَلَّ بالأوثانِ والصُّلُبِ

وبَعدَ هَذا البَيْتِ يتفرَّغُ أبو تَمّام لِلنَّصرِ بَعدَ أنْ جابَ عَنْ مَسارِهِ الإفكِ السّابقِ، فَكَيفَ يَظْهرُ النَّصرُ هُنا؟

لَعلَّ ما يُميزُ أبا تَمّامٍ أكْثَرَ في قَصيدتِهِ هُنا هُوَ صُورةُ النَّصرِ هَذا، إذْ أُولِعَ أبو تَمّام بِهِ، وائتلقَتْ نَفْسُهُ بِهِ، فانْصرفَ إليهِ أكْثَرَ، ولَمْ يَجعَلْ هَمَّهُ الانشغالَ بالبطولةِ المُسجّلةِ مِنْ جِهةِ المُعتَصِمِ، بَلْ إنَّ أبا تَمّام لا يُريدُ أنْ يُفرِّغَ الأمورَ مِنْ مُحتواها الجَوهرِ، ولا يُريدُ أنْ يَقفَ على عَرَضٍ دونَ تَأمُّلٍ وغَوصٍ وتَمعُّنٍ؛ وهَكَذا يأتي النَّصرُ هَذا مِنَ اللهِ سُبْحانَهُ، وهُوَ الفاعلُ الأوَّلُ والآخرُ:

رَمى بِكَ اللهُ بُرجَيها فَهدَّمَها
ولو رَمى بِكَ غَيرُ اللهِ لَمْ يُصِبِ

كَذلِكَ كانَ خِطابُ اللهِ سُبحانَهُ لِنبيِّهِ ﷺ بَعدَ وقعةِ بَدرٍ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]

إنَّها عَقلانيّةٌ مُنْضبطةٌ بِمنطقِ الأمُورِ المُحكمِ المُسدَّدِ المُرْتقي فَوقَ الفِعْلِ البَشَريِّ.

أخيرًا إنَّهُ لَنصرٌ حَقٌّ مُعدِّلٌ لِمَجرى مُنْتكسٍ مُنعكسٍ مَوتورٍ كانَ مِنْ قَبْلُ. إنَّهُ نَصرٌ مصوَّبٌ أتى مُحَقِّقًا لاستقامةِ الحَياةِ والعَيشِ الكَريمِ، وكانَ شَرفَ المُعتصمِ –وإنَّهُ لَشرفٌ– أنْ كانَ

المُختارَ لِهَذا التَّحقيقِ العادِلِ المُصوّبِ لِجدليّةِ الحياةِ وسَيرِها الأعْدلِ، كَذَلِك كانَ النَّصرُ:

تَدْبيرُ مُعتصمٍ بِاللهِ مُنتقمٍ لِلــــــــهِ مُرْتغِبٍ في اللهِ مُرْتَقِبِ

وأبو تَمّامٍ كانَ شاغِلُهُ النَّصرَ قَبْلَ أنْ يَكونَ، وكانَ هَذا المُرتقَبَ، فإذا بِهِ يُشْرِقُ مِنْ بَينِ النّيرانِ والأَتْربةِ والأَحْجارِ:

فَتحُ الفُتوحِ تَعالى أنْ يُحيطَ بِـهِ
نَظمٌ مِنَ الشِّعـرِ أَوْ نَثرٌ مِـنَ الخُطبِ
فَتحٌ تَـفـتّـحُ أبــوابُ السَّمــاءِ لَـهُ
وتَبرزُ الأرضُ في أثْوابِهـا القُـشـبِ
ما رَبْعُ ميّةَ مَعمـورًا يُـطيــفُ بِــهِ
غَيلاتُ أبْهى رُبىً مِنْ رَبعِها الخَـرِبِ
وَلا الخُدودُ وقَد أُدمينَ مِن خَجَلٍ
أَشهى إلى ناظِري من خَدِّها التَـرِبِ
وَحُسنُ مُنقَلَبٍ تَبـقـى عَــواقِبُـهُ
جاءَت بَشاشَتُهُ مِـن سـوءِ مُنـقَلَـبِ

يُظهرُهُ مُتفنِّنًا بِهِ بِكُلِّ ما أوتيَ مِنْ جَدليّةٍ مَنطقيّةٍ، وتَضادٍّ لُغويٍّ ومَعْنويٍّ، وتَمْحيصٍ وتَقليبٍ.

ووَلاءُ أبي تَمّامٍ هُوَ لِهَذِهِ الثَّلاثةِ: الدِّينِ والإسْلامِ والحَسبِ عَلى قَولِهِ:

خَليفةَ اللّهِ جازى اللّهُ سَعيَكَ عَن
جُرثومةِ الدِّينِ والإِسلامِ والحَسَبِ

ويُحقِّقُ هَذِهِ الثّلاثةَ مُشرِقةً بِهَذا النَّصرِ، مُتَمكِّنةً قاهرةً لِكُلِّ زَيفٍ واخْتِلاقٍ، بِأسلوبٍ هادِرٍ حاسِمٍ تَتَعالى فيهِ مُوسيقاهُ بِعَرَمٍ وامْتلاءٍ، مُمْتلِئةً بِزخمِ النَّفسِ، واكْتِنازِ الشُّعورِ الفَخمِ.

وإنَّما هُوَ شاغلٌ سامٍ لَدى أبي تَمّامٍ في نَصْرِهِ، لِهَذا يَظهرُ ما بِأبي تَمّامٍ مِنْ صِدْقِ طَويّةٍ بِعقيدتِهِ وعُروبتِهِ، وإنَّهُ يُسجِّلُ هَذا التَّفصيلَ والتَّطويلَ في وصفِ النَّصرِ لا البَطَلِ؛ لِيَجْعلَهُ لَوحةً مَلحميّةً خالِدةً ناصعةً عَلى جَبْهةِ التّارِيخِ.

وأبو تَمّامٍ في قَصيدتِهِ هَذِهِ، وفي وصْفِهِ لِلنَّصرِ، خاصّةً، لَمْ يَبْتَعدْ عَنْ نَفْسِهِ ونَفَسِهِ الحارِّ الصّادِقِ المُنفعِلِ مَعَ الحَدثِ بِحَميميّةٍ واحْترارٍ، وعقل وقّاد متشابك مَعَ الحدث، مجدول بِهِ فإذا بِهِ يُخرجُ هَذِهِ البُنى العقليّةَ الفنّيّةَ الرّائعةَ:

مِنْ تَفنيدٍ لِلمَزاعِمِ:

والعِلْمُ في شُهُبِ الأَرْماحِ لامِعةً
بَينَ الخَميسَيْنِ لافي السَّبْعةِ الشُّهُبِ
أَيْنَ الرّوايةُ بَلْ أَيْنَ النُّجُومُ ومـا
صاغُوهُ مِنْ زُخْـرُفٍ فيهـا ومِنْ كَـذِبِ
تَخَرُّصًا وأحاديثًـــا مُلفَّــقـــةً
لَيْـسَــتْ بِنَبْـعٍ إذا عُـــدَّتْ ولاغَـرَبِ

وتَلخيصٍ للنَّتائِجِ:

حَتّى إذا مَخَّضَ اللّهُ السّنينَ لَها
مَخْضَ البِخيلةِ كانَتْ زُبْـدةَ الحِقَـبِ
أتتْهُمُ الكُربةُ السَّوداءُ سادرةً
مِنْها وكانَ اسْمُهــا فـرّاجــةَ الكُـربِ

وأدلّةٍ عقليّةٍ:

لَو بَيَّنَت قَطُّ أمرًا قَبــلَ مَوقِعِـهِ
لَم تُخْفِ ما حَـلَّ بِالأَوثـانِ والصُّلُـبِ

وتَقليبِ اللَّفظِ والمَعْنى:

أتتْهُمُ الكُربةُ السَّـــوداءُ ســـادرةً
مِنْها وكـانَ اسمُهـا فـرّاجــةَ الكُـرَبِ

وتَفصيلِ المَعْنى وتقليبِهِ بِالمُقابلةِ المَعكوسةِ:

ولا الخُدُودُ وقَدْ أُدْمينَ مِنْ خجَلٍ
أَشهى إلى ناظِرِيَّ مِنْ خَدِّهــا التَّــرِبِ
سَماجةً غَنِيَتْ مِنّا العُيـونُ بِــهـا
عَنْ كُلِّ حُسْنٍ بَدا أوْ مَنـظَـرٍ عَـجِـبِ
وحُسْنُ مُنْقَلَبٍ تَبْقى عَـواقِـبُـهُ
جاءَتْ بشاشتُـهُ مِـــنْ سُـــوءٍ مُنْقلَبِ

وقولِه:

إنَّ الحمامَينِ مِنْ بِيضٍ ومِنْ سُمُرٍ
دَلْوا الحياتَينِ مِنْ ماءٍ ومِــنْ عُـشُـبِ
لَمْ يُنفقِ الذّهبَ المُربي بِكثرتِـهِ
عَلى الحَصى وبِهِ فَقْـرٌ إلــى الذَّهَــبِ
مُوكّلًا بيَــفـاعِ الأرْضِ يُشـرِفُـهُ
مِنْ خِفّةِ الخَوْفِ لا مِنْ خِفّـةِ الطّـرَبِ

والرّبط بَينَ الأبياتِ:

إنْ كانَ بَينَ صُرُوفِ الدَّهرِ من رحمٍ
موصولـةٍ أوْ ذِمـامٍ غَيـرِ مُنْقضبِ
فَبَينَ أيّامِكَ اللاَّتي نُصِرْتَ بِها
وبَينَ أيّامِ بَــدْرٍ أَقْــرَبُ النَّســبِ

وطباقاتٍ وتَجْنيسٍ:

فالشَّمْسُ طالِعةٌ مِنْ ذا وقَـدْ أَفَلَتْ
والشَّمسُ واجبةٌ مَنْ ذا ولمْ تجـبِ
تَصرَّحَ الدَّهرُ تصريحَ الغَمـامِ لَهـا
عَنْ يومِ هَيجاءَ مِنْها طاهرٍ جُنُـبِ
عَداكَ حرُّ الثّغورِ المُستضامةِ عَنْ
بَرِدِ الثُّغورِ وعَنْ سلسالِها الحَصِبِ
أجبْتَـهُ مُعلنًـــا بِالسَّيــفِ مُنصَلتًا
وَلَوْ أَجَبْتَ بِغَيْرِ السَّيْفِ لَمْ تُجـبِ

وإنَّـهُ لَيتأمّلُ ويُدقّقُ في المَعْنى مُبْحِرًا وراءَ تَجويدِهِ، وإظهارِهِ قَويّا حادًا مُتميِّزًا كَحَدّ السَّيفِ لامِعًا، مُستَعينًا بِالصُّورِ البَيانيّةِ الّتي اكْتنزَتْ بِها القَصيدةُ، وما هَذا إلّا لشُعورِ الفَرَحِ والاعْتلاءِ في نَفْسِهِ؛ لِهَذا يَطولُ لَديهِ وصفُ النَّصرِ، وكانَ مُتَرَقّبًا لَهُ بأمانيهِ الّتي حَفلَتِ الآنَ معسولةَ الحَلَبِ. وانْطلاقًا مِنْ هَذا فَهُوَ –على طريقتِهِ– قَدْ أَسْهبَ في التّعاكُسِ والاسْتِنْباطِ، والتّخليصِ والتّضادِّ –كَما رأينا– بقُوّةِ خيالٍ نادرٍ، حَتّى كَوّنَ هَذِهِ اللَّوحةَ المُعجزةَ لِلنَّصرِ الّتي استوعبَتْ مُعظمَ القَصيدةِ، ومِنْها:

يا يومَ وقعةَ عَموريّـةَ انْصرفَـتْ
مِنْكَ المُنى حُفّلًا مَعسولةَ الحَلـبِ
لَقَدْ تَركتَ أميـرَ المؤمنيـنَ بِهـا
للنّارِ يَومًا ذَليلَ الصَّخرِ والخَشَـبِ
غادرْتَ فيها بَهيمَ اللَّيلِ وهُوَ ضُحًى
يَشُلُّهُ وسْطَهـا صُبـحٌ مِـنَ اللَّهــبِ
حَتّى كَأنَّ جلابيبَ الدُّجى رَغِبَتْ
عن لَونِها وكَأنَّ الشَّمـسَ لَـمْ تَغِــبِ
ضوءٌ مِنَ النّارِ والظَّلمــاءُ عاكِـفـةٌ
وظلمةٌ مِنْ دُخانٍ في ضُحًى شَحِـبِ
فالشَّمْسُ طالعةٌ مِنْ ذا وقَدْ أفَلَـتْ
والشَّمْسُ واجِبةٌ مِنْ ذا ولَـمْ تَجـبِ

ولَقَدْ رأينا شاعِرَنا إذ يَمدحُ المُعتصمَ –وهُوَ جديرٌ بِالمدحِ

هُنا– لا يَمدحُهُ مُبْتعِدًا عَنْ مكوّناتِ نَفْسِهِ وارتباطِها بِأصلِ الباعِثِ ألا وهُوَ العَقيدةِ، بَلْ يُجَسِّدُ البَطَلَ مُحققًا لِهذهِ الصّورةِ، مُسخَّرًا مِنْ قبولِ **اللهِ** سُبْحانَهُ لهَذا الفِعْلِ، ومُختارًا مِنْ قبْلِهِ تعالى؛ لهَذا يُكمِلُ صورةَ بَطلِهِ هُنا بالعِفّةِ عَنْ رَغبةِ الكَسبِ، بَلْ هَمُّهُ في (المَسلوبِ لا السّلبِ)، ويُزكِّيهِ بِإضافتِهِ إلى لَفظِ **اللهِ** سُبحانَهُ فَيناديهِ: خَليفةَ **اللهِ**، وأميرَ المُؤمنينَ.

إذًا أبو تَمّامٍ يَشملَ القَصيدةَ بِأُسٍّ نَفسيٍّ مُشرقٍ بالنَّصرِ، ومَنطقٍ عَقليٍّ عَميقٍ مُؤمنٍ يُزكَي بِهِ الخليفةَ البَطَلَ، ويَضعُهُ، والنَّصرَ، في إطارِ خِدمةِ الدّينِ الحَنيفِ، وإنَّهُ لَشرفٌ لَهُ.

ج– ويَظهرُ لَنا هُنا وجهُ تَقابُلٍ بَينَ شاعِرنا والمُتنبّي الشّاعرِ الخالدِ –كأبي تَمّامٍ– الّذي نَهَضَ بَعدَ أبي تَمّامٍ فَصوَّرَ الحربَ فَكانَ القمّةَ، وتَناوَلَ البُطولةَ فجازَ أصولَها، وجَدَّلَها بِإشراقٍ شعريٍّ (بُطوليٍّ) خلّاقٍ. وتَظهرُ قَصيدتُهُ (الحَدَثُ الحَمْراءُ) في سَيفِ الدَّولةِ مِثالًا رائعًا مُجسّدًا المُتنبِّي في شَخصِهِ ونهجِهِ في الوصفِ والإعجابِ.

وإنَّما تأتي مُقارنتُنا هُنا لِنُتمّمَ لوحةَ النّصرِ بِلوحةِ البُطولةِ هَذِهِ، ولِتكتملَ مِنْ بَعدُ. فَإذا كانَ أبو تمّامٍ قَدْ أجملَ القَصيدةَ بِحِسِّهِ النَّفسيِّ المُشرقِ بالنَّصرِ المُرتَبطِ بِالعقيدةِ، فَقادَ البُطولةَ لِلنّصرِ مِنَ **اللهِ** تَعالى، فَإنَّ المُتنبِّي يُقابِلُ هَذا ويُتمِّمُهُ فَيُسخِّرُ النّصرَ لِلبطولةِ، وهَذا لإعجابِ المُتنبِّي (بِالأنا)، وتُشرقُ البُطولةُ عِنْدَهُ بُطولةُ سَيفِ الدَّولةِ وسطَ المَيدانِ:

وَقفْتَ وما في المَوتِ شَكٌّ لـواقِـفٍ
كأنَّكَ في جَفْنِ الرّدى وهُوَ نائِـمُ
تَمرُّ بِكَ الأبطالُ كَلْمى هَزيمـةً
ووَجهُكَ وضّاحٌ وثَغْـرُكَ باسِـمُ

تُشرقُ بما لَمْ تشرقْ مثلُها بُطولةً مِنْ قَبْلُ، ويأتي وصفُ المَعركةِ، ووصفُ العَدوِّ، وقُوَّتِهِ، والحَربِ، كُلُّ ذَلِكَ لِيصوغَ لِلبطولةَ فِعلَها، وللبَطَلِ صفاتِهِ وسماتِهِ، فيَتجسّدُ البَطَلُ أسْطورةً مِنْ ضياءٍ أَوْ كآخيل طروادةَ، مُبدِّدًا لِهَذا الضَّلالِ:

أتَوكَ يجـرُّونَ الحَديـدَ كأنَّمـا
سَرَوا بِجيادٍ مـا لَهُنَّ قوائِـمُ

إذا بَرقوا لَمْ تُعرفِ البيـضُ مِنْهـمُ
ثِيابُهم مِـنْ مِثلِـهـا والعَمائِـمُ
خَميسٌ بِشرقِ الأرضِ والغَربُ زَحْفُهُ
وفـي أذْنِ الجَـوزاءِ مِنْـهُ زمـازِمُ
تَجَمّـعَ فيـهِ كُـلُّ لِسـنٍ وأمّـةٍ
فما يُفهِمُ الحُـدّاثَ إلّا التّراجِـمُ

تجاوزتَ مِقدارَ الشَّجاعةِ والنُّهـى
إلى قَولِ قَومٍ أنْتَ بِالغَيـبِ عالـمُ
ضَممْتَ جَناحَيهِمْ عَلى القَلْبِ ضَمّةً
تَموتُ الخَوافي تَحتَهُا والقَـوادِمُ
بِضربٍ أتى الهاماتِ والنَّصرُ غـائِبٌ
وصارَ إلى اللَّبـاتِ والنَّصـرُ قـادمُ
نثرتَهُمُ فَـوقَ الأُحَـيـدَبِ نَـثْـرةً
كَما نَثَرَتْ فَوقَ العَروسِ الدّراهِـمُ
تَدوسُ بِكَ الخَيلُ الوُكورَ عَلى الذُّرى
وقَدْ كَثرَتْ حَولَ الوُكورِ المَطاعِمُ
إذا زَلِـقَـتْ مِشّيتُهـا بِبُطونِـهـا
كَما تَتَمَشّى في الصَّعيدِ الأراقِـمُ

وهَـذِهِ الصّورةُ الخارقةُ لِلبُطولةِ عِنْدَ المُتنبِّي لِيسَتْ بِمُناقضةٍ لَهُ، أيضًا، بَلْ تَجسيدُ لِرغباتِهِ، وطُموحِهِ، وصِدقِهِ مَعَ الرِّفعةِ، والوَلاءِ لِلفعلِ المُميَّزِ والفَردِ الأمثلِ، فلا يُرى المُتنبِّي إلّا أنْ يُجسِّدَ سَيفَ الدّولةِ بِبطولتِهِ –وهُوَ البَطلُ– بهَذا الفِعلِ المُذهلِ، ويَقودُ القَصيدةَ منذ البدءِ مَحكومةً بفعلِ الحِكمةِ المَصوغةِ مِنْ فِعلِ البَطَلِ هَذا، ومُلخّصة لإعجابِ الشّاعرِ بالقُوّةِ والثَّباتِ:

على قدْرِ أهلِ العَزمِ تَأتِي العَـزائِـمُ
وتأتي عَلى قدرِ الكِـرامِ المَكـارِمُ
وتَعْظُمُ في عَينِ الصَّغيرِ صغـارُهـا
وتَصغُرُ في عَينِ العَظيمِ العَظائمُ

وما هَذا إلّا لأنّ سيفَ الدّولةِ قَدِ انْتصرَ عَلى جَيشٍ لِلرُّومِ بِخَمسِمئةٍ مِنْ حاشيتِهِ وغِلمانِهِ في قلعةِ الحَدثِ، لِذَلِكَ يَأتَلفُ المُتنبِّي مَعَ البُطولةِ، ولا يَرى بَأسًا أنْ يُضمِرَ نَفْسَهُ في الشّخصِ البُطوليِّ، فتَتَجسَّدُ عَبرَ تَجسيدِها لَهُ.

فنَفْسُ المُتنبِّي هِيَ البَطَلُ هَذا المُطمئنُّ الواثقُ المُثبتُ لفعلِ الحياةِ الأمثلِ والأجملِ والأقوى. وإنّها لَتتشرّبُ مِنْ مَعينِ حِكْمةِ البَطَلِ القاهرةِ المُتميّزةِ والمتمايزةِ بِنفسِها في الحياةِ، والتّي تَفرضُ مُعطياتِها في كلِّ الجِهاتِ.

فهَذِهِ صورةٌ تُتمِّمُ أبا تَمّامٍ وتَكْتمِلُ مَعَه لِتُشكّلَ لدينا من

أبو الطيب المتنبي

أبي تمام

فتح عموريةَ والحَدثِ الحَمْراءِ، أَوْ مِنْ نَفْسِ المُتنبّي ونَفْسِ أبي تَمّامٍ صورةً كاملةً لِلنَّصرِ والبُطولةِ، لَيسَ كَمثلِها صُورةً لَدى الشُّعراءِ.

د– بهَذا نَستطيعُ أنْ نُضيفَ إلى قَصيدةِ أبي تَمّامٍ في الوَقتِ الّذي أضفْنا فيهِ إلى قَصيدةِ المُتنبّي، ولَيسَ إلّا أنْ نَقفَ فَنَقرأَ فَتحَ الفُتوحِ، لِنَلتَفتَ بَعدَها إلى الحَدَثِ الحَمْراءِ، فإذا هُما تلتقيانِ عَلى فضيلةٍ واحدةٍ متصاعدةٍ نابضةٍ بوهجِ النَّصرِ والبُطولةِ، وإنَّ لِكلَيهِما فَرَسًا هُوَ الشّامخُ فَوقَ نوائِبِ الزَّمنِ وفِعلِ الأحداثِ. وهو مُعلّمٌ لِلقِيمِ حقيقةً حَياتيّةً عَمليّةً ماثلةً، كانَ فيها لَهُما شَأنٌ، وإنّ لنا فيها –على الأقلِّ– هَذا الالتِفاتَ.

المصادر والمراجع:

– القُرْآن الكَريم.

١– ديوان أبي تَمّامٍ ج١. شرح الخطيب التّبريزي . تحقيق محمد عبده عزام.

سلسلة ذخائر العَرَب /٥/. دار المعارف ١٩٦٤

٢– ديوان أبي الطّيب المُتنبِّي ج٢ . شرح العكبري . ضبط د عمر الفاروق الطّباع.

دار الأرقم . ط١ . ١٩٩٧

مجامع اللّغة العربيّة... إلى أين؟

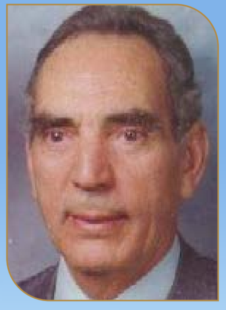

أ.د. عبد الملك مرتاض

يبدو أنّ فكرةَ المَجامع التي تقابل الإطلاقَ الأجنبيَّ المعروفَ تحت اسم: «الأكاديميّات» جاءت من الاستعمال الفلسفيّ الإغريقيّ القديم حيث أُطلق مصطلحُ «أكاديميّ» (Académie) على المدرسة الفلسفيّة التي أسّسها الفيلسوف الإغريقيّ أفلاطون عام ٣٨٧ قبل الميلاد... وقد ظلّت هذه المدرسةُ التي كان يدرَّس بها العلومُ أيضاً قائمةً بفضل أرسطوطاليس تلميذِ أفلاطون.

وتعود نشأةُ فكرة ما يمكن أن يُطلَق عليه الحركة الأكاديميّة، لدى طلائع النّهضة الأوربيّة، إلى القرن الخامس عشر في مدينة فلورنسا الإيطاليّة تحت سيطرة أكابر الأدْواق (جمع «دُوق» Ducs)؛ وهي المدينة التي كان فيها نادِي أُوْلي النزعة الإنسانيّة الذين ألَمّوا بالثقافة الإغريقيّة وأُعجِبوا بها؛ أي إلى طلائع عهد الأنوار في أوربا.

وسرعان ما تطوّرت فكرةُ النّظرة الأكاديميّة للأشياء في أوربا؛ فتأسّستْ مجموعةٌ من الأكاديميّات في أزمنة متقاربة في إيطاليا، وبريطانيا، وفرنسا. أمّا في فلورنسا (إيطاليا) فقد تأسّس النّظامُ الأكاديميّ عام ١٥٦٣. وأمّا الأكاديميّة الملكيّة الفرنسيّة التي اضطلعت برعاية اللّغة الفرنسيّة وترقيتِها والإشرافِ على معاجمها فقد كانت، فيما يبدو، ثانيَ أكاديميّة تأسّست في فرنسا، وذلك عام ١٦٣٥. على حين أنّ الأكاديميّة البريطانيّة (Royal Society) تأسّست عام ١٦٦٢.

ويبدو أنّ نظام الأكاديميّات كان في بداية أمره، بإيطاليا خصوصاً، لا يكاد يجاوزُ مستوى النّوادي العلميّة للبحث واقتداح زَند المعرفة؛ فكانت أكاديميّاتٌ كثيرة تؤسَّس لكلّ حقول الفنّ والمعرفة، وفي أكثر من مدينة...

ولكنّ الفكرة لم تزل تتطوّرُ حتّى انتهت إلى ما انتهت إليه من التّنظيم والتّدبير في أوّل أكاديميّة فرنسيّة مُهَيْكلَة؛ فأمست لا تضمُّ إلاّ أكابرَ العلماء المَوسُوعيّين، والشُّيوخ المُحنَّكين في مجالَيِ البحث والمعرفة العليا؛ ولا نكاد نجدُ فيها العلماءَ الشّباب البتّةَ. ولقد كانت الغايةُ من تأسيس أوّل أكاديميّة فرنسيّة هي المحافظةَ على اللّغة الفرنسيّة ورعايتَها وترقيتَها. وكانت الأكاديميّة الفرنسيّة تتألّف من أربعين عُضواً يقع الاختيارُ على عضويّتهم مدى الحياة فكانت تُعنَى، خصوصاً، بتحرير الموادّ

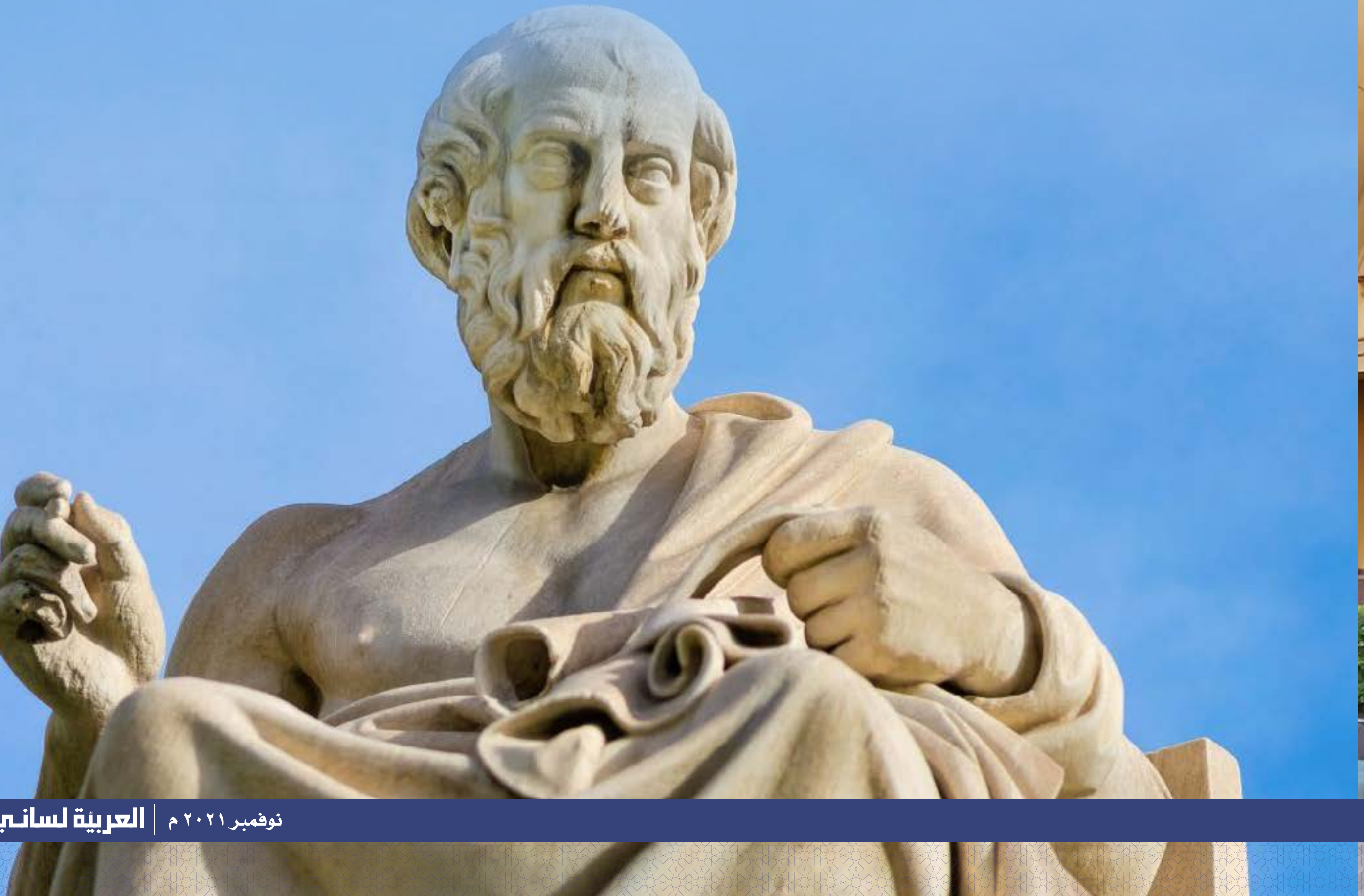

المعجميّة والإشراف عليها قبل طبعها.

ويبدو أنّ هذه التّجربةَ أعجبتِ الفرنسيّين فعمّمُوها على حقول المعرفة الأخرى فإذا هم يؤسّسون أكاديميّةَ الآداب الجميلة، وأكاديميّةَ العلوم، وأكاديميّةَ العلوم الأخلاقيّةِ والسّياسيّة، وأكاديميّةَ الفنون الجميلة، وأكاديميّةَ الهندسة المعماريّة، وأكاديميّةَ الطّبّ، وهلمّ جرّا.

وكان أوّلُ مثقّف عربيّ، حسَب ما بلغْناه من العلم، عُيّن عضواً في مجمع اللّغة الفرنسيّة بباريس هو الأمير عبد القادر الجزائريّ. وكان ذلك عام ١٢٧١ للهجرة (زهاء ١٨٥٤ميلاديّة). ولقد كتب كتاباً أرسله من دمشق حيث منفاهُ إلى هذه الأكاديميّة بباريس بمناسبة تعيينه عضواً فيها. وكان عنوانُ هذا الكتاب الذي أرسله إلى هذه الهيئة: «ذكرى العاقل، وتنبيه الغافل». وممّا يقول الأمير عبد القادر الجزائريّ في مقدّمة هذا الكتاب:

«بلغني أنّ علماء باريز، وفّقهم العليمُ الحكيم العزيز، كتبوا اسمي في دفتر العلماء، ونظَموني في سلك العظماء؛ فاهتززت لذلك فرحاً، ثمّ اغتممت ترحا. فرحت من حيث ستَر الله عليّ، حتّى نظر عبادُه بحسن الظّنّ إليّ. واهتممت من كون العلماء استسمنوا ذا ورَم، ونفخوا في غير ضَرَم. ثمّ أشار إليّ بعضُ المحبّين منهم، بإرسال بعض الرّسائل إليهم. فكتبت هذه العجالة، للتّشبّه بالعلماء الأعلام، ورميت سهمي بين السّهام».

(الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل، وتنبيه الغافل، ص.٣٠، تحقيق ممدوح حقّي).

ولَمّا عرف العربُ النّهضةَ الفكريّةَ والثقافيّةَ خلال القرن الماضي شرعوا يفكّرون في إنشاء هيئاتٍ على غرار تلك الهيئاتِ الأوربيّةِ التي تمثل المعرفةَ الإنسانيّة في مستواها الأعلى؛ فأُنشئت مجامعُ اللّغة العربيّة، أوّلَ مرّة، بدمشق، ثمّ القاهرة، وبغداد، وعمّان، ثم طرابلس، والرّباط، وآخر مجمع للّغة العربيّة أُسّس في الجزائر صيفَ ١٩٩٨ حيث ظلّ العملُ مقتصراً على تعيين رئيسه دون أيّ عضوٍ من أجل الانطلاق في إنجاز مهامّه الْمُسَطّرَةِ له.

وتسعى هذه المجامعُ العربيّة، في مجموعها، أو في مُعظمها، إلى تحقيق هدفٍ مركزيّ واحد هو ترقيةُ اللّغة العربيّة وجعْلُها تتواكب مع التّطوّر الحضاريّ والتّكنولوجيّ بحيث تكون لها الكفاءةُ التّعبيريّة والدّلاليّة فلا يُعْجِزها أن تعبّر عن الكمّ الهائل

مجمع اللغة العربية بالقاهرة

مجمع اللغة العربية الأردني

من المفاهيم الجديدة التي تظهر في حقول المعرفة الإنسانيّة كلّ يوم بمصطلحات دقيقة ما أمكنها ذلك.

وكثيراً ما تجدُ هذه المجامعَ، في هيئتها القانونيّة الرّاهنة، مقيَّدَةً بالاقتصار على البحوث اللّغويّة المتمحّضة للّغة العربيّة. ولكنّ هذه المجامعَ، مجتمعةً ومنجَّمَةً، لم تستطع، إلى يومنا هذا، الإسهامَ في تأسيس حضارة عربيّة أصيلة ورصينة؛ بل قُصاراها هو الاجتماعاتُ الدّوريّة الرّتيبة العقيمةُ التي لا تكاد تُفضي إلى إثمار أيّ نتيجة عمليّة غيرَ الإفضاءِ إلى اجتماعات أخرى، أعقمَ منها! وممّا زاد في عُقمها أنّها تسيء انتقاء أعضائها غالباً بحيث لا يكونون إلاّ من الشّيوخ الْمُسنّين الذين يقلّ عطاؤهم الفكريّ؛ ذلك بأنّ تعيين الغربيّين للشّيوخ في عضويّتها يعدّ تشريفاً لا تكليفاً؛ حيث هناك هيئات علميّة أخرى، ومنها مراكزُ البحث، تتولّى الأمورَ العمليّة في القضايا اللّغويّة؛ فلم يبق لها هي إلاّ الفتوى اللّغويّة. على حين أنّ أمر العُضويّة في المجامع العربيّة يجب أن يختلف؛ فالعضو لا يُعيّن من أجلِ تشريف له، ولكنْ من أجل تكليف يكلَّف به لينهض بوظيفة لغويّة شاقّة لا يُطيقُها إلاّ من يُطيق عليها. والسَّوْأة السَّوْأى، أنّ تعيينَ الأعضاء العاملين والمراسلين، وخصوصاً المراسلين، كثيراً ما يخضع لعواملَ سياسيّةٍ خالصة لا صلةَ لها بضرورة الْتماس الكفاءة اللّغويّة والفكريّة، فتجدُ العضوَ المراسلَ لا يصنعُ شيئاً، ولا ينبس ببنت

مجمع اللغة العربية بالشارقة

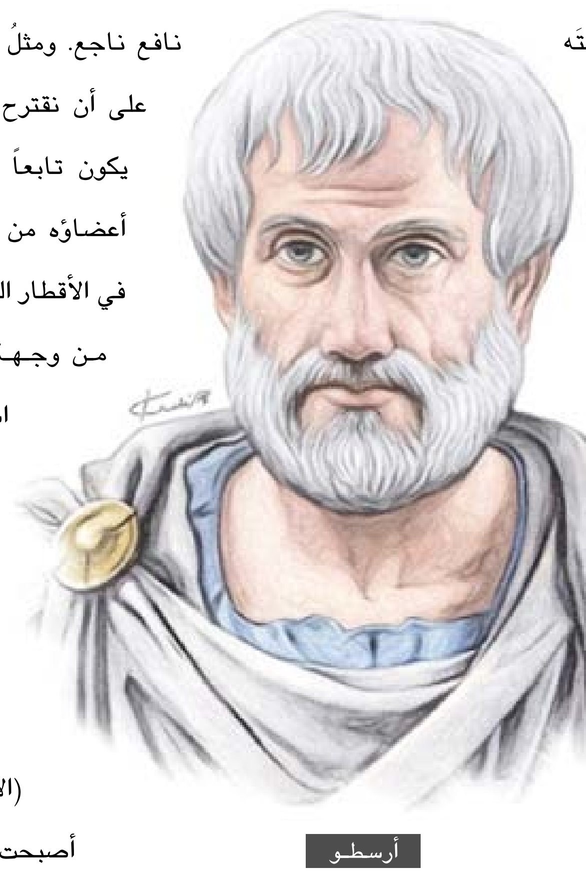
أرسطو

شفةِ في اجتماعات المجامع الدّوريّة؛ لأنّ صلتَه بالعربيّة وعلومها منعدمة؛ من أجل كلّ ذلك يقتصر المراسلُ المزعوم على التّفرّج والتّدخين والاسترخاء فوق المقعد الوثير، وهو لا يستَحِي لا من الله ولا من النّاس؛ كما حُدِّثت عن أحد هؤلاء المراسلين وهو يحضر أحد اجتماعات هذه المجامع العريقة التي لا تصنع – هي أيضاً – شيئاً غيرَ الاجتماعات العقيمة، والله فعّال لِما يريد!

ومن بين الأسباب التي كثيراً ما تعرقل أعمال هذه المجامع أنّ كلّ مجمع عربيّ – بالإضافة إلى ما ذكرنا – يُعْنَى، ولا يُعَنَّى، بإنجاز ما يُعْنَى بإنجازه المجمعُ العربيّ الآخر، في البلد الآخر: فيتعدّد الجهد ويتبدّد، ويتكرّر السّعي ويتبعثر. في حين أنّ الوظيفة هي واحدة هنا وهناك؛ وذلك ممّا يشتّت الجهود، ويقلّل من النّتائج المستخلَصة، والثمرات المَجنيّة. بل ما أكثرَ ما يُفضي سوءُ التّنسيق بين هذه الهيئات إلى تعقيد الأمور المتعلّقة بالمصطلح، كاقتراح كلِّ هيئة مقابلاً لمفهوم معرفيّ يختلف عن المقابل التي تقترحه له الهيئةُ الأخرى، فتتعدّد المصطلحات وتتضارب للمفهوم الواحد. وكثيراً ما يُفضي هذا السّلوكُ الفوضويّ إلى تعقيد أمر صناعة المصطلح؛ وخصوصاً إذا أصرّت كلُّ هيئة على اصطناع مصطلحها والتّعصّب له، والادّعاء بأنّه هو الأفصح والأصلح. وناهيك أنّ العرب لم يتّفقوا، إلى اليوم، حتّى على توحيد استعمال الأرقام التي بها يَعُدّون! وببعض هذه النظرة المتشائمة إلى بعض هذه الهيئات أنّها ربما تصبح مثارَ عِبْءٍ، لا أداةَ عمل نافع ناجع. ومثلُ هذا الحكم القاسي يحملنا على أن نقترح إنشاءَ مجمع عربيّ واحدٍ يكون تابعاً للجامعة العربيّة، ويتكوّن أعضاؤه من خيرة علماء اللّغة العربيّة في الأقطار العربيّة لتجنّب الجهد المكرّر من وجهة، ولتجنّب الاختلاف في استعمال المصطلح العلمي بين قُطر عربيّ وقُطر عربيّ آخر من وجهة أخرى.

إنّ العولمة وشبكة المعلومات (الأنترنت) والإعلامَ الآليّ أصبحت تشكّل عصراً جديداً قاسياً وعاقّاً؛ ولكن لا مناص من مواكبته، والإسهام في بنائه؛ ولا يكون ذلك إلاّ بالتّفكير، بأكثرَ منهجيّةً، في توفير لغة أكثرَ قابليّةً للتّداول، وأيسرَ للاستعمال في المجتمعات العربيّة تعلو عن العامّيّة قليلاً، وتتدنّى عن اللّغة الأدبيّة العليا قليلاً؛ وتلك غاية ليست مستحيلةَ التّحقيق في زمن يَسُرَتْ فيه وسائلُ التّواصل والاتّصال. والفضائيّاتُ العربيّة التي يمكن أن نَعُدَّها من «أعراب العصر»، وهي التي تكتظّ بها مناكب الأثير، يمكن أن تُسْهِم بفعالية ونجاعةٍ في تحقيق هذا المشروع القوميّ الحضاريّ العظيم إذا لم تستنم إلى العامّيّات المحلّيّة المنحطّة، وإذا أغْنَتْ نفسَها من أجل الرّقيّ بلغتها إلى المستوى المطلوب...

ويمكن لمجامع اللّغة العربيّة، إذا تضافرت جهودُها فيما بينها، بالتعاون مع هيئات لغويّة وثقافيّة وتعليميّة أخرى مثل المنظّمةِ العربيّة للتّربية والثقافة والعلوم من وجهة، والمؤسّسات التّعليميّة بمراحلها المختلفة، ومراكزِ البحوث اللّغويّة، ووسائل الإعلام المختلفة الأشكال: أن يُسهم، كلٌّ على حِدَة، في ترقية اللّغة العربيّة وإشاعة استعمالها بالتّبسيط والتّيسير:

أ. من حيث توليدُ المفرداتِ السّهلةِ الإستعمال.

ب. بتعويدِ النّاس في الحياة اليوميّة العاديّة على التّعامل بعربيّة بسيطة وجميلة، وسليمةٍ من الأخطاء؛ وخصوصاً في التّعامل التّجاريّ بين التّاجر الذي عليه أن يتعلّم لغة لائقةً يتكلّم بها مع زبائنه ويرحّبُ بهم؛ فقد رأينا التّجّار الأوربيّين يصطنعون لغة مهذّبة في غاية الرّقّة تبلغ أحيانا مستوى الشعريّة!

ج. بتوظيف متخصِّص في اللّغة العربيّة، على مستوى كلّ هيئة إعلاميّة، من أجل تصحيح الأخطاء الإملائيّة والنحويّة الفاحشة التي تكثُر في بعض الجرائد اليوميّة، والإذاعات المحليّة...

د. بالسّعي إلى تيسير النّظام النّحويّ؛ فلقد ابتدأ النّحوُ بسيطاً، وانتهى مُعقَّداً. والنّاس اليوم بين اثنين: إمّا مُحدِّث بعربيّةٍ خارجَ النّحو، وإمّا متحدّث بنحوٍ خارجَ العربيّة! وقد أنَى للمجامع العربيّة أن تنظرَ في هذه المسألة المصيريّة بتشكيل لجنة من العلماء لمراجعة قواعد النّحو العامّة وانتقاءِ الضّروريّ منها فقط في التّعليم العامّ؛ وترْكِ الطّوائل والتّفاصيل، ونحوِ «العربيّة العليا» لعلماء اللّغة في مختبراتهم وأبحاثهم، وللأدباء في كتاباتهم الرّفيعة.

وعلى أنّه لا يمكن القبولُ بمبدأِ إلغاء النّحو العربيّ من مؤسّسات التّعليم، جملة وتفصيلاً؛ وهي الأطروحة التي ينادي بها بعض أعداء اللّغة العربيّة؛ وإبدال النّظام النّحويّ العربيّ بالعامّيّة المنحطّة.

تلكم ملاحظات ومقترحات جئنا عليها في هذه المقالة، لعلّها أن تُسْهم في ترقية اللّغة العربيّة لتتبوّأَ مكانتها في الحياتين العمليّة والعلميّة بكفاءة واقتدار.

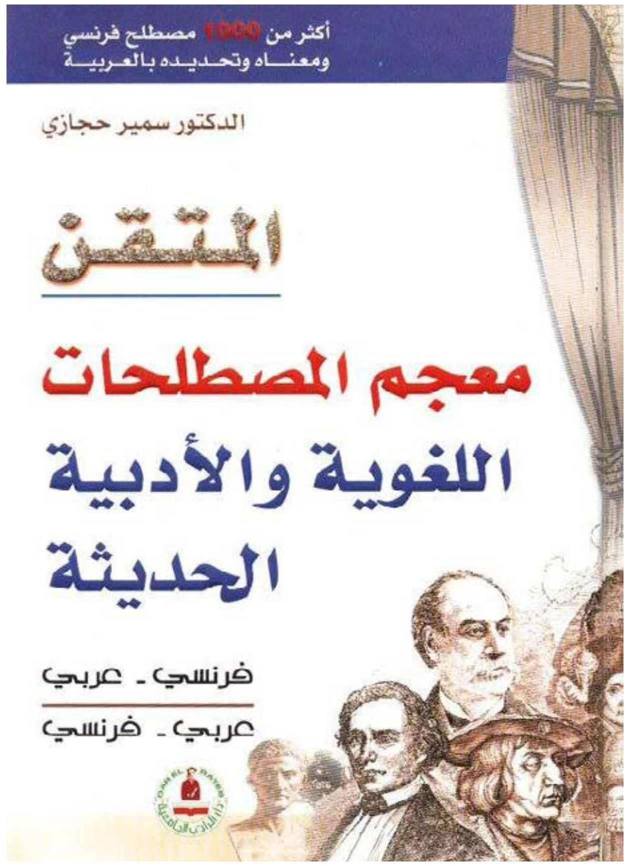

وقفات نحوية

مِنْ لَطَائِفِ الأَدَبِ في الإِعْرَابِ عِنْدَ النُّحَاةِ

د. عبد الرحيم بوقطه

للأدب مكانةٌ مرموقة في الدِّين، وحضورٌ لافتٌ في تعاليم النَّبي ﷺ فقد كان صحابتُه – رضي الله عنهم – يقتبسون من هديه وخُلُقِه، ويأخذون من أدبه قبل علمه؛ كما عمل على شاكلته ﷺ ورثتُه العلماءُ، فجمعوا بين الأدبين: الأدب مع الحقّ والأدب مع الخلق، وراعَوْا ذلك في مجالسهم ومؤلفاتهم.

ومن مظاهر أدب علماءِ العربية الرَّفيع تأدُّبهم في إعراب الجُمل والتَّراكيب، التي لها ارتباطٌ وعلاقة بالذات الإلهيَّة وبكتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلْفِه، حتى إنّ بعضَ النُّحاة زَهِدُوا في بعض المصطلحات الإعرابية واستبدلوا أخرى بها، وإذا رجعتَ إليها البصر كرّتَيْن، ألفيتَ أنَّ السّبب هو مُراعاة الأدب مع الله سُبحانه وتعالى[١].

فقد استحدث النُّحاة بابا سمَّوه الأدبَ مع الله[٢]، عدَلوا فيه عن استعمال ألفاظ في الإعراب إلى ألفاظِ أُخرى؛ تأدُّبا مع الله، ومراعاةً لما يليق بالله سبحانه، وابتعادا عمَّا يُوقع في اللَّبس، أو قد يُوهم معانيَ باطلة[٣].

فمن ذلك أنَّ القُدماء يقولون في النَّحو: باب ما لم يسمّ فاعلُهُ، والمتأخرون يقولون: باب المبنيّ للمجهول، واصطلاح القُدماء أفضل بلا شكٍّ، وهناك نكتةٌ من الأدب الرَّفيع، انتبه لها السّلف ولم ينتبهْ لها الخلف؛ وهي عندما نُعرب فعلا في القرآن الكريم، مثل: أُوحِيَ في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ [الجن:١]. فهل يُقال مبنيٌّ للمجهول؟! وهل يستسيغ المؤمن أن يوصف الله تعالى بالمجهول؟!! هذا سرّ اصطلاح السّلف، وقولهم : باب ما لم يُسمّ فاعله.

(١) ينظر مقال: من أدب الإعـراب، أبو مدين شعيب تياو الأزهري، قسم البحوث والمقالات، منتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، بتاريخ:١٠/١٤/٢٠١٦ www.m-a-arabia.com/vb/showthread.php?t=18163

(٢) ينظر: كفاية الغلام في إعراب الكلام، زين الدين شعبان بن محمد القرشي، المحقق: زهير زاهد وهلال ناجي، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط:١، ١٤٠٧هـ،(١٠٩).

(٣) ينظر كلمة بعنوان: الأدب مع الله، نادر العمراني، بموقعه الالكتروني: http://naderomrani.ly/article/471

وَمنها ما استحدثه ابنُ هشام[٤] وتبعه فيه الأزهـري[٥] والآثاري[٦] من مصطلحات إعراب الأدبِ مع الله تعالى، في جملة من أبواب النَّحو.

فمن ذلك تسميةُ بدل الكل من الكلّ بالبدل المُطابِق، وهو:« بدل الشَّيء مِمَّا هو طِبْقُ معناه [٧]»، وذلك لوقوع هذا النَّوع من البدل في اسم الله تعالى في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم:١]. فيمن قرأ بالجرّ[٨]؛ فـ«الله» بدلٌ من «العزيز» بدل مطابق، ولا يُقال فيه: بدل كلّ من كلّ، وإنما لم يقل ذلك، لأن كُلّا إنما يُطلق على ذي أجزاء، وذلك ممتنع هنا، لأن الله تعالى مُنزَّهٌ عن ذلك[٩].

ومن ذلك التَّورع من القول في حرف من القرآن إنَّهُ حرف زائد، إجلالاً لكلام الله واحتراما له وملازمةً للأدب معه تعالى، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١]. فالكاف صلة، أو حرف توكيد.

قال ابنُ هشام:«وينبغي أن يَجتنب المُعْرِبُ أن يقول في حرف في كتاب الله تعالى: إنه زائد؛ لأنَّه يسبق إلى الأذهان أنَّ الزَّائد هو

(٤) ابن هشام (٧٠٨- ٧٦١هـ): عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاريّ ؛ جمال الدّين الحنبلي النّحويّ، فصيح زمانه، وسيبويه أيامه، كان إماما في العربِية. ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، (٠٢/ ٦٨).

(٥) الأزهري(٨٣٨-٩٠٥هـ): خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمّد بن أحمد الأزهريّ الجرجاويّ المصريّ، الشّافعيّ، الشيخ العلامة النحوي زين الدين الأزهري ينظر: الكواكب السّائرة بأعيان المئة العاشرة، نجم الدّين محمّد بن محمّد الغزيّ، المحقّق: خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط: ٠١، سنة: ١٤١٨ هـ، (١/ ١٩٠).

(٦) الآثاري(٧٦٥ – ٨٢٨ هـ) شعبان بن محمد بن داود الموصلي، المعروف بالآثاري. ينظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبد الرحمن شمس الدين السخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، دت(٠٣/ ٣٠١).

(٧) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، عبد الله بن يوسف، جمال الدين، ابن هشام الانصاري، المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة، دمشق، سوريا، دط، دت،(٣/٣٦٤). وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك أبو الحسن، علي بن محمد الأُشْمُوني الشافعي، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ(٠٣/٠٣).

(٨) قرأ نافع وابن عامر: اللّه برفع خفض الهاء في لفظ الجلالة سواء ابتدءا به أم وصلاه بما قبله فتكون قراءة الباقين بخفض الهاء. ينظر: الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع، عبد الفتاح القاضي، مكتبة السوادي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط: ٠٤، سنة: ١٤١٢ هـ (٣٠٢).

(٩) ينظر: أوضح المسالك، ٣/٣٦٤، والتصريح بمضمون التوضيح في النحو، خالد بن عبد الله الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: ٠١، سنة: ١٤٢١هـ(٠٢/١٩٢).

الذي لا معنى له، وكلامه سبحانه منزَّه عن ذلك[10]» وقد وقع هذا الوهمُ، أي كونُ المُراد من الزَّائد ما لا معنى له لبعض العُلَماء[11] بَلْه طلبة العلم والعوَّام.

قال الأزهري «وَكثير منَ النُّحَاة الْمُتَقَدِّمين يُسَمُّونَ الزَّائِد صلَةً: لكَونه يُتَوَصَّل بِهِ إِلَى نيل غَرَض صَحِيح كتحسين الْكَلَام وتزيينه».

وعند وقوع الاسم الأحسن[12] موقعَ المفعولية قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٦]. يقولون: «الله: الاسم الأحسن أو لفظ الجلالة منصوب على التعظيم»[13]، بدلَ قول: مفعولٍ به، لأنَّ الله تعالى هو الفاعل المختار[14].

ومن أدبهم قولهم في مثل قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، اهدنا: فعل دُعـاء[15]، أو فعل طلب، بدل فعل أمر، نحو: ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ [الزُّخرُف:٧٧]. وكذا في إعراب اللام يقولون: حرف دعاء.

ومن باب الأدب مع الله كلامُهم في معاني الحروف ومُراعاةِ دلالتها في حقِّه سبحانه وتعالى.

قال أبو حيان والذي تَلَقَّنَاهُ من الشُّيوخ أَنَّ (كان) تدل على الزَّمان الماضي المنقطع، وكذلك سائرُ الأفعال الماضية، ومن تعقَّل حقيقةَ المُضِيِّ لم يشكَّ في الدَّلالة على الانقطاع، لكنَّ مثلَ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان:٧٠]، وإن دلَّ على الماضي المنقطع فإنَّه يُعلَم أنَّ هذه الصِّفَةَ ثابتةٌ له في الأزمان كلِّها من دليل خارج لا من حيث وَضْعُ اللَّفْظِ[16]؛ فالله كان ولا يزال غفورًا رحيمًا؛ لأن الاختلاف في زمن الحدث إنما ينشأ من صاحب الأغيار، والحقّ سبحانه لا يطرأ عليه تغيير[17].

وقد نبَّه إلى جملة من تلك الآداب زينُ الدِّين شعبان بن محمد القرشي الآثاريّ - رحمه الله - في ألفيته المسمَّاة بـ«كفاية الغلام في إعراب الكلام»، وقال[18]: [من الرَّجز]

شرحُ كـلامٍ فيه إعرابُ الأدبْ   مع الإلهِ وهو بعضُ ما وَجَبْ
فالرَّبُّ مسؤولٌ بأفعالِ الطَّلَبْ   كـ(اغفرْ لنا) والعبدُ بالأمرِ انْتَدَبْ[19]
وإن (سألتَ الله) في التَّعليـمِ   تقول منصوب على التَّعظيـمِ
فقس على هذا[20] ووقِّع بِلَعَلْ   منه وحقِّق بعَسَى تُـعطَ الأمـلْ
بالله طالبٌ ومطلـوبٌ عُلِـمْ   (قد يعلم الله) بمعنى قـد عَلِـمْ
وامنع من التَّصغير ثمّ التَّثنيهْ   والجمع والتَّرخيم خير التَّسمية
ولا تقـل عند النـداء ياهـو   فليس في النحـاة مـن رواه
وشاع في لفظ من التعجـب   ما أكرم الله وفي معـنى أُبي
وحيثما قيل: الكتاب، انهض إليه   كتاب ربي[21] لا كتاب سيبويه
لأنّه بكـلّ شـيء شـاهـد   ولا تقل: ذا الحرف منه زائد
بل هو توكيد لمعنى أو صله   للَّفـظ في آيـاتـه المفصَّلـه
أو لمعان حُقِّقَت عمن رَوَي   كهل ونحـو بـل لمعنى لاسِوَى
ومن يقل بأن مازاد سقط   أخطأ في القول وذا عين الغلط
كمثل أن مفيدة الإهمال   وكـافـه نافيـة الأمثـال
وهل من الله سؤال العالم[22]   أو ما وهمز في خطاب الآدمي
وعبده هو الذي يستفهـم   لأنَّـه من يـومه لا يعلم[23]
ولا تكن مستشهدا بالأخطل   فيـه ولا سـواه كالسموأل
وغالب النّحاة عن ذا الباب   في غفلة فانح على الصَّواب
تكن كمن بلغة العدناني   أعرب وهي لغة القرآن.

وختاما، فهذا باب من العلم نفيسٌ، يشير إلى الأدب في العبارة عن الله تعالى وعن كتابه؛ فإنَّ مراعاة ذلك من المُهمات، وله شواهدُ من السُّنة فإنّ رسول الله ﷺ لما سمع عبارة: (ما شاء الله وشئت)[24]، ولما سمع عبارة: (نستشفع بالله عليك ونستشفع بك على الله)[25]، لم يرتضِ ذلك ﷺ وكان صلى الله عليه وسلم يغيّر الأسماء التي فيها معانٍ مخالفةٌ للشريعة، وهذا يدخل في خصوصية التناول فإنَّ لكل علم خصوصيتَه في التناول، كذا لكل موضوع خصوصيتُه، فباب الكلام عن الله – تبارك وتعالى – وعن رسوله ﷺ وعن القرآن العظيم، يختلف عن غيره، وباب حفظ الألفاظ في حق الله – سبحانه وتعالى – وفي حق رسوله – من الأبواب المعروفة في الشريعة والله – جل وعلا – يقول: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

(١٠) ينظر: الإعراب عن قواعد الإعراب، عبد الله بن يوسف، جمال الدين ابن هشام الأنصاري، المحقق: إبراهيم الحراني وآخرون، المكتبة الهاشمية إسطنبول، تركيا، الطبعة الأولى، سنة ٢٠١٣م (٦١-٦٢).

(١١) منهم الرَّازي في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ﴾ (آل عمران:١٥٩) يُنظر: مفاتيح الغيب، محمد بن عمر، فخر الدين الرَّازي، دار إحياء التراث العربيِّ، بيروت، لبنان، ط:٠٣، سنة: ١٤٢٠هـ (٠٩/٤٠٦). والإعراب عن قواعد الإعراب (٦٢).

(١٢) شاعت الإشارة للاسم الأحسن (الله) عند النحاة بلفظ الجلالة والأولى أن يُقال: الاسم الأحسن اتباعا للوارد في الخطاب الشَّرعي مُراعاة للقرآن في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف:١٨٠). ووجه الحُسْنِ في أسماء الله أنَّها دالة على مُسمى الله، فكانت حُسنى لدلالتها على أحسن وأعظم وأقدس مُسمى وهو الله عز وجل.
ينظر: إيثار الحق على الخلق، محمد بن إبراهيم، عز الدين ابن الوزير اليمني، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط: ٢، ١٩٨٧م (١٦٦). و المُجَلَّى في شرح القواعد المثلى، كاملة بنت محمد الكواري، دار ابن حزم بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤٢٢هـ (٤٥).

(١٣) ينظر: العمدة في إعراب البردة قصيدة البوصيري، تحقيق: عبد الله أحمد جاجة، محمد علي سلطاني، دار اليمامة للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط: الأولى – ١٤٢٣ هـ (٨٤).

(١٤) ينظر: العقائد الإسلامية، سيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت (٩٤).

(١٥) شرح التَّصريح على التَّوضيح (٠١/٣٩١)، وشرح المُقدمة الأزهرية في علم العربية- تحقيق ودراسة، خالد بن عبد الله الأزهري، المحقق: عبد الرحيم بوقطه، (رسالة دكتوراه) مقدمة بقسم اللغة العربية بجامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، مارس ٢٠١٩م، (٣٠٣).

(١٦) يُنظر: ارتشاف الضرب من لسان العرب، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، المحقق: رجب عثمان محمد ورمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط:١، ١٤١٨ هـ (٠٣/١١٨٤).

(١٧) يُنظر: تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، مصر، دط، ١٩٩٧م، (١٩/١١٩٣١).

(١٨) ألفية الآثاري: كفاية الغلام في إعراب الكلام (١٠٩).

(١٩) الطلب إن كان من أدنى لأعلى فهو طلب، وإن كان من أعلى لأدنى فهو أمر، وإن كان من مساوٍ فهو التماس.

(٢٠) مما يدخل في باب الأدب بل مما يجب ولم يذكره الناظم للاختصار مسألة: القراءات القرآنية، وجرأة بعض النحاة على بعض ما تواتر منها، فتراهم يضعفون ويرجحون مع أنّ القراءة صحيحة متواترة، فالأولى في مثل هذا المقام أن يحفظ العاقل لسانه.

(٢١) يقول: إنّ من الأدب مع كتاب الله، أنْ يكون هو المقصود عند إطلاق لفظ الكتاب، وأنْ لا يصرف إلى غيره ككتاب سيبويه والقدوري.

(٢٢) مثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ (مريم:٦٥). ليس معناه الاستفهام، إذ إنّ الاستفهام: طلب الفهم، وهذا محالٌ على الله عز وجلّ، بل هو مِنْ سؤال العالِم عمَّا يعلم.

(٢٣) قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ (النحل:٧٨).

(٢٤) الحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، بَابُ لاَ يَقُولُ: مَا شَاءَ اللَّه وَشِئْتَ، وَهَلْ يَقُولُ أَنَا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، برقم (٦٦٥٣) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤٢٢هـ.

(٢٥) الحديث أخرجه أبو داود في، كتاب السنة، باب الجهمية، برقم (٤٧٢٦). ينظر: سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السِّجِسْتاني، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، دط، دت.

المصادر والمراجع:

*** القرآن الكريم.**

(١) ارتشاف الضرب من لسان العرب، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، المحقق: رجب عثمان محمد ورمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط: ٠١، سنة: ١٤١٨ هـ.

(٢) الإعراب عن قواعد الإعراب، عبد الله بن يوسف، جمال الدين ابن هشام الأنصاري، المحقق: إبراهيم الحراني وآخرون، المكتبة الهاشمية إسطنبول، تركيا، الطبعة الأولى، سنة ٢٠١٣م.

(٣) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، عبد الله بن يوسف، جمال الدين، ابن هشام الانصاري، المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة، دمشق، سوريا، دط، دت.

(٤) إيثار الحق على الخلق، محمد بن إبراهيم، عز الدين ابن الوزير اليمني، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط: ٠٢، سنة: ١٩٨٧م.

(٥) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان.

(٦) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك أبو الحسن، علي بن محمد الأُشْمُوني الشافعي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ.

(٧) شرح المُقدمة الأزهرية في علم العربية – تحقيق ودراسة، خالد بن عبد الله الأزهري، المحقق: عبد الرحيم بوقطه، (رسالة دكتوراه) مقدمة بقسم اللغة العربية بجامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، مارس ٢٠١٩م.

(٨) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبد الرحمن شمس الدين السخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، دت.

(٩) العقائد الإسلامية، سيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط، دت.

(١٠) العمدة في إعراب البردة قصيدة البوصيري، تحقيق: عبد

الله أحمد جاجة، محمد علي سلطاني، دار اليمامة للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط: الأولى – ١٤٢٣ هـ.

(١١) كفاية الغلام في إعراب الكلام، زين الدين شعبان بن محمد القرشي، المحقق: زهير زاهد وهلال ناجي، دار عالم الكتب،بيروت، لبنان، ط:٠١،١٤٠٧هـ.

(١٢) الكواكب السّائرة بأعيان المئة العاشرة، نجم الدّين محمّد بن محمّد الغزيّ، المحقّق: خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط: ٠١، سنة: ١٤١٨ هـ .

(١٣) المُجَلَّى في شرح القواعد المثلى، كاملة بنت محمد الكواري، دار ابن حزم بيروت، لبنان،ط: ٠١،سنة: ١٤٢٢ هـ .

(١٤) مفاتيح الغيب، محمد بن عمر، فخر الدين الرَّازي، دار إحياء التراث العربيِّ، بيروت، لبنان، ط:٠٣، سنة: ١٤٢٠هـ .

(١٥) من أدب الإعـراب، أبو مدين شعيب تياو الأزهـري، قسم البحوث والمقالات، منتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، بتاريخ:١٠/١٤/٢٠١٦.(مقال).

(١٦) موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب، خالد بن عبد الله الأزهري، المحقق: عبد الكريم مجاهد، دار الرسالة،بيروت، لبنان، ط: ٠١،سنة: ١٤١٥هـ.

(١٧) نظم قواعد الإعـراب لابـن هشام، إبراهيم بن فائد الزّواويُّ، المحقق: عبد الرحيم بوقطه، دار الامام مالك، الجزائر، ط:٠١، سنة:٢٠١٩.

(١٨) الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع، عبد الفتاح القاضي، مكتبة السوادي، جدة،المملكة العربية السعودية، ط: ٠٤،سنة: ١٤١٢ هـ .

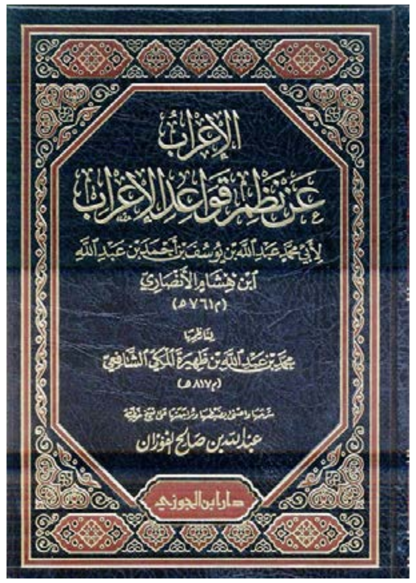

خاتمةُ الفصول: إعرابُ الأدبْ
مع الإلهِ، وهو بعضُ ما وجبْ
فالربّ مسؤول بأفعالَ الطلبْ
كـ"اغفرْ لنا"، والعبدُ بالأمر انتدِب
وفي "سألتُ الله" في التعليمِ
تقولُ منصوبٌ على التعظيمِ
فقسْ على هذا ، ووقعْ بلعلّ
منه، وحققْ بعسَى تُعطَ الأملْ
بالله طالبٌ ومطلوبٌ عُلمْ
" قد يعلمُ الله" بمعنى: قد عَلِمْ
وامنعْ من التصغير ثم التثنيهْ
والجمعِ والترخيمِ خيرَ التسميهْ
وشا ع في لفظ من التعجبِ
"ما أكرمَ الله"، وفي المعنى أُبِي
وحيثما قيل: "الكتابُ" انهضْ إليهْ
كتابُ ربي، لا كتابُ سيبويهْ
لأنه بكل شيء شاهدُ
ولا تقلْ: ذا الحرفُ منه زائدُ
بل هو توكيدٌ لمعنًى، أو صلهْ
للفظ في آياته المفصَّلهْ

مَرْفُوعَاتُ الْأَسْمَاءِ

بَابُ
الْمَفْعُولِ الَّذِي لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ

الِاسْمُ الْمَرْفُوعُ الَّذِي لَمْ يُذْكَرْ مَعَهُ فَاعِلُهُ

فَإِنْ كَانَ الْفِعْلُ مَاضِيًا ضُمَّ أَوَّلُهُ وَكُسِرَ مَا قَبْلَ آخِرِهِ, وَإِنْ كَانَ مُضَارِعًا ضُمَّ أَوَّلُهُ وَفُتِحَ مَا قَبْلَ آخِرِهِ

وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ
ظَاهِرٍ, وَمُضْمَرٍ

فَالظَّاهِرُ نَحْوَ قَوْلِكَ	وَالْمُضْمَرُ اِثْنَا عَشَرَ		
ضُرِبَ زَيْدٌ	ضُرِبْتُ	ضُرِبْتُمَا	ضُرِبَتْ
يُضْرَبُ زَيْدٌ	ضُرِبْنَا	ضُرِبْتُمْ	ضُرِبَا
أُكْرِمَ عَمْرٌو	ضُرِبْتَ	ضُرِبْتُنَّ	ضُرِبُوا
يُكْرَمُ عَمْرٌو	ضُرِبْتِ	ضُرِبَ	ضُرِبْنَ

د. أحمد المغربي

فَعّالٌ لِمَا يُرِيْد

رَأيتُ اللّهَ يَمْنَحُنَا المَعَارِفْ ... ويَمْنَحُنَا المَنَاصِبَ والوَظَائِفْ
فَيَجْعَلُ ذَا وَزِيراً أو مَلِيْكاً ... ويَجْعَلُ منْ يَشَاءُ مِنَ الزَّعانِفْ
وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ أَسِيْرَ جَهْلٍ ... ويَجْعَلُ ذاكَ يَسْبحُ في المَعَارِفْ
وَيُغْنِيْ ذا ويُفْقِرُ منْ يَشاءُ ... لَهُ التّدْبيْرُ ربٌّ ذُو لَطَائِفْ
وَيَجْعَلُ ذَا مُقِيماً في بِلادِهْ ... يُجِنِّبُهُ المَهَالِكَ والمَتَالِفْ
وَيَجْعَلُ ذَا غَرِيْباً عن بِلادِهْ ... يَذُوقُ مِنَ الشَّدائِدِ والمَخَاوِفْ
فَنَسْأَلُهُ بِنَا لُطْفاً خَفِيّاً ... يُجَنِّبُنا المَصَائبَ والعَواصِفْ
فَلا تَزْعُمْ بِأنَّكَ ذُو اقْتِدَارٍ ... وَأَنَّكَ جَالِبٌ نَفْعاً وَصَارِفْ
بَلِ الفَعّالُ رَبُّكَ ذُو الإرادَهْ ... هُوَ المُخْتَارُ، فَاحْذَرْ أَنْ تُخَالِفْ

وَسَائِلُ التَّعرِيفِ البِنيَوِيّ المُعْجَمِيّ لَدَى اللِّسَانِيِّ الجَزَائِرِيِّ حَلّام الجيلالِيّ[١]

رحمه الله ٢٠٠٥م

أ.د. مختار درقاوي

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

الدكتور الجيلالي حلام باحث وأستاذ جزائري مختص في المعجمات واللسانيات، شارك في عدد من المؤتمرات والملتقيات والندوات العلمية، وقدّم فيها مجموعة من الدراسات والبحوث، شارك في تنقيح المعجم العربي الأساسي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. نشر مجموعة من الدراسات اللغوية في عدد من المجلات العربية المحكمة وغيرها. نال عدة جوائز في الإبداع الأدبي، من مؤلفاته: المعجمية العربية قراءة في التأسيس النظري، وتقنيات التعريف بالمعاجم العربية المعاصرة، طبعة اتحاد كتاب العرب دمشق ١٩٩٩، توفي سنة ٢٠٠٥م رحمه الله رحمة واسعة.

* يرى عبد الملك مرتاض أنّ النطق الصحيح للكلمة هو بنوي. يقول في هذا الشأن«فلا ندري كيف ذهب الاستعمال النقدي العام المعاصر إلى هذا الخطأ الفاحش (البِنْيوية) الذي لا مبرر له، إلا أن يكون الإصرار على إفساد العربية وفأسها بالفأس والاستمتاع بإصابتها بالبأس في الرأس». في نظرية النقد، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٢، ص١٩١. وخلص يوسف وغليسي في مساءلة مصطلحية إلى أنّ البنييّة -بياءين- هي النسبة الأصح من حيث القياس اللغوي (مراعاة الأصل)، وأنّ البنوية أيضا نسبة سماعية صحيحة وخفيفة (يقال بنوية على الإعلال بالقلب). لكن معيار التداول المعاصر لا يقرّ أيّا من هذين المصطلحين السليمين؛ لأنّ البِنْيوية -بياءين قبل وبعد الواو- على علّاتها الصوتية تبدو بوضوح أكثر اطرادا وأشيع استعمالا. فقد فرضها التداول وغلّبها كما غلّب الاستعمال العربي النسبة إلى قريش «قرشي» على النسبة الأصلية القياسية «قريشي» التي اندثرت باندثار الشاعر القائل:

بكل قريشيّ إذا ما لقيته   سريع إلى داعي الندى والتكرم

ينظر: يوسف وغليسي، البِنية والبِنْيوية في المعاجم والدراسات الأدبية واللسانية العربية (بحث في النسبة اللغوية والاصطلاح النقدي)، مجلة الدراسات اللغوية، العدد: ٠٦، سنة ١٤٣١هـ- ٢٠١٠، جامعة قسنطينة، ص٢٩١.

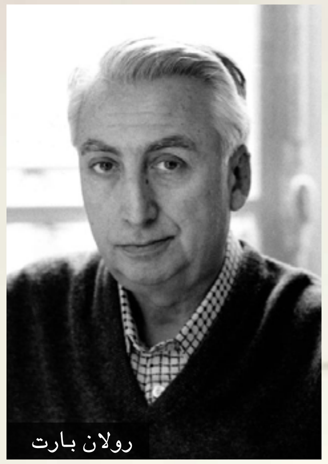

رولان بارت

ميشيل فوكو

جورج مونان

جاك دريدا

بعد الحديثِ عن التَّعريف الاسمي والتَّعريف المنطقي في عددين آنفين من المجلة. فإنَّ هذا العددَ سيتناول التَّعريفَ البنويَّ.

التَّعريف البنويُّ:

التَّحليلُ البنويُّ منهجٌ وصفيٌّ يسعى إلى دراسة اللغة بوصفها نظامًا من العلاقات القائمةِ بين عناصرها، ويقوم في الدَّرس المُعجمي على أساس تحليل المفردات إلى مجموعةٍ من البُنى تتألف من عناصرَ تكتسبُ معانيَها من خلال علاقةِ بعضها ببعض، فالمدخلُ المُعجميُّ في إطار هذا المنهج يكتسبُ معناه من خلال مكوّناته البنويةِ أو المفهوميةِ التي تربطُه بغيره من المفردات[١]، ومن أبرز وسائلِ هذا التعريف:

٣-١ التَّعريف بالحقل الدِّلالي:

عرَف علمُ اللغة الحديث عدّةَ محاولاتٍ لوضع منهجٍ يُفيد في التَّحليل الدِّلالي الوصفي، وأهمُّ هذه المحاولاتِ ما يدخل في إطارِ نظريةِ الحقل الدِّلالي أو المجالِ الدِّلالي، تقول هذه النظريةُ إنَّ المدخلَ اللّسانيَّ (الكلمة) تتحدّد دلالتُه ببحثه مع أقربِ المداخل إليه في إطار مجموعةٍ دلاليةٍ واحدة، وهذا يعني أنَّ الحقلَ الدِّلالي يَتَّسمُ بِسمةِ التَّصنيفية، حيث يُراعَى فيه وضعُ المداخل في أنساقٍ بنوية وَفقَ علائقَ دلاليةٍ مشتركة؛ أي إدماجُ الوحدات المعجمية المشتركةِ في مكوّناتها الدِّلالية في حقلٍ دلالي واحدٍ، مثالُ ذلك كلماتُ المعادن في اللُّغة العربية تقعُ تحت المصطلح العام «المعدن» وتضمُّ: الحديد، والنحاس، والذهب...

وقد حدّ جورج مونان (G.Mounin) الحقلَ الدّلالي بأنه «مجموعةٌ من الوحدات اللّفظية التي تشكّل مجموعةً من التّصورات المُنتمية إلى مفاهيمَ دلاليةٍ تُحدّد الحقلَ»[٢]. ويتكوّن الحقلُ الدّلالي عن طريق رصدِ المفرداتِ والتّصوّرات المنتمية إلى مفاهيمَ دلاليةٍ أو قطاعٍ متكامل، وهذه القائمةُ التي جُمعت تشير في النهاية إلى وحداتٍ ترتبط فيما بينها بمفهومٍ عامٍّ وشاملٍ، يقوم بدوره بتحديد المساحة المفهوميةِ لكل وحدة.

وقد تنبّه جماعةٌ من اللُّغويين العرب في التراث إلى أهمّية الحقول الدّلالية، وأقصدُ بذلك الجماعةَ الذين صنّفوا الرسائلَ اللُّغوية ومعاجمَ المعاني أو الموضوعات، وهي المعاجمُ التي تمتدُّ جذورُها في التراث إلى بداية القرن الثاني الهجري، واكتملت مع بداية القرن الثالث، ولعلَّ أقدمَ معجم -لا نقصد الرسائلَ- أخذ بهذه النظرية وصل إلينا هو معجمُ «الغريب المصنف» «لأبي عبيد القاسم بن سلام»(٢٢٤هـ)، ثم يأتي «المخصّص» «لابن سيده الأندلسيّ»(٤٥٨هـ) بوصفه أهمَّ المعاجم التي تطورت في ظلّها نظريةُ الحقول الدّلالية، وإطلاقُ لُغويّينا العرب على هذا الاتجاه مصطلحَ «معاجم المعاني»مردُّه الهدفُ الدّلالي الأول الذي تُحقّقه،

(٢) حلام الجيلالي، تقنيات التعريف، ص١٥٥.

(٣) G. Mounin ; Clefs pour la sémantique. Paris. 1972 .p56

كلود ليفي شتراوس

وأما الاطلاقُ الثاني «معاجم الموضوعات» سببُه المنهجُ المتّبعُ في ترتيب مفردات الرَّصيد اللُّغوي(٣).

وإذا تأمَّلنا الرَّصيدَ المعرفيَّ الذي تركه الأسلاف لوجدنا أنَّ الرسائلَ والكتبَ التي تَتبع منهجَ الحقولِ الدّلاليةِ كثيرةٌ، فنجدُ مثلاً:

خلق الإنسان كتبَ في هذا الحقل كلٌّ من: الأصمعي (٢١٦هـ)، وعلي بن عيسى الربعي (٤٢٠هـ)، وثابت بن أبي ثابت (٢٥٠هـ)، والنضر بن شميل (٢٠٤هـ)، وقطرب(٢١٠هـ)،أبو عبيدة (٢٠٩هـ)، وأبو زيد (٢١٥هـ)، وأبو حاتم السجستاني (٢٤٨هـ).

الحشرات: كتب في هذا الحقل أبو عبيدة كتابَ الحيّات والعقارب، والأصمعيُّ كتابَ النّحل والعسل، وأبو حاتم السجستاني كتابَ الحشرات والجراد والنّحل والعسل.

وغيرها منَ المصنفات التي اتّخذت من الحقل الدّلالي طريقا لها. وهكذا فعل أبو منصورٍ الثّعالبيُّ (٤٢٩هـ) في كتابه «فقه اللغة»؛ فقد خصَّ –مثلا في باب الكلّيات– الفصلَ الثاني في ذكر ضروبٍ من الحيوانات، والفصلَ الثالث في النَّبات والشجر، والفصلَ الرابعَ في الأمكنة، والفصلَ الخامس في الثياب، والفصلَ السادس في الطعام وهكذا. يقول الثّعالبيُّ في الحقل الذي أفرده في تعديد ساعات النهار والليل : (ساعات النهار) الشُّروق، ثم البكور، ثم الغدوة، ثم الضُحى، ثم الهاجرة، ثم الظَّهيرة، ثم الرَّواح، ثم العَصر، ثم القَصر، ثم الأصيل، ثم العَشيّ، ثم الغُروب.(ساعات الليل) الشَّفقُ، ثم الغَسَق، ثم العَتمة، ثم السُّدْفةُ، ثم الفَحْمَةُ، ثم الزُّلَّة، ثم الزُّلْفَة، ثـم البُهْرة، ثم السَّحَر، ثم الفَجْر، ثم الصُّبح، ثم الصَّباح(٤) .

٣-٢ التَّعريفُ بالتَّحليل التَّكوينيّ:

التَّحليلُ المُقوِّماتي أو التَّكويني للمعنى هو أساسٌ لعملٍ قام به كاتز وفودر، وهو منهجٌ يعتمدُ في موضوعه على تَجزئةِ الوحدات المُعْجمية إلى مُكوّناتها الأساسيةِ، بمعنى دراسةِ البِنية الدَّاخلية لمدلول الوحدةِ المُعجمية خارجَ السّياق بطريقةٍ تسمح بالانتقال منَ العام إلى الخاص. على سبيل المثال مكوّناتُ الوحدة اللّسانية «رجل» هي: (+ حيوان + عاقل+ ذكر+ بالغ) ومكوّنات الوحدة اللّسانية «امرأة» هي: (+ حيوان + عاقل– ذكر+ بالغ)؛ حيث المعنى العامُّ للوحدة المُعْجمية يُفسَّر بالنَّظر إلى عددٍ منَ العناصر أو المُكوّنات المُحدِّدة للمعنى، وهذا ما جعل هذه النظريةَ تُفيدنا أكثرَ في تعيين نوعِ العلاقة الموجودةِ بين معاني الوَحدات المُعجَمية، كأن تكونَ علاقةَ ترادف، أو تضادّ، أو تضمّن، أو اشتمال...

واقترح جورج مونان الاستنادَ إلى المُعجَم لمعرفة مدى قابليةِ الوحدات المُعجَمية وقُدرتها على مدّنا بمعلوماتٍ عن بِنيةِ مُفردات اللّغة(٥) . مثال ذلك في البيئة العربية المفرداتُ الخاصَّة بالبيوت العربية، يعطينا مُعجمُ فقه اللُّغة للثعالبي مجموعةً من السِّمات الخاصَّة بالمدلول(٦):

الوَحدات المُعْجمية	بيت	على الأرض	من صوف	من وَبَر	من شَعْر	من جلود يابسة	من حَجَر
خِبَاء	+	+	+	–	–	–	–
بجاد	+	+	–	+	–	–	–
فسطاط	+	+	–	–	+	–	–
قَشْعٌ	+	+	–	–	–	+	–
أُقْنة	+	+	–	–	–	–	+

٣-٣ التَّعريفُ التَّوزيعي:

التَّعريفُ التَّوزيعي في الاصطلاح اللّساني يُراد به «مجموعُ السياقات التي يُمكن لعنصر لُغوي أن يُستخدم فيها(٧)؛ أي تَفريقُ الكلمةِ المدخل قائمٌ على مجموعةٍ من السياقات المُختلفة مع المُعاوضة للوقوف على دلالتها. فكلمة «أكل» مثلا تدلُّ على تناول الشّيء العُضوي، و«شرب» على السّائل، و«استنشق» على الغازيّ، ويَمتنعُ التَّوزيعُ مع «أكل الماء وشرب اللّحم»، وبناءً على ذلك استخلص حلام شيئين(٨):

الأوّل: أنَّ التَّعريفَ التوزيعيَّ متعلّقٌ بالموقع الذي تحتلُّه الكلمةُ من حيث تآلفُها، أو تنافرُها مع السياقات المُقترَحة لتظهر دلالتُها الحقيقيةُ أو المجازيةُ ومجالاتُ استعمالها.

الثاني: أنَّ التَّحليل التوزيعيَّ يختلف نسبيًّا عن النظرية السِّياقية، وذلك من عدّةِ زوايا، منها(٩):

التَّحليلُ التَّوزيعيُّ منهجٌ قائم بذاته، بينما النظريةُ السياقية وسيلةٌ مساعِدةٌ.

التَّعريفُ في المَنهج التَّوزيعيِّ يجري عن طريق توزيع الكلمة على سياقات بَعديةٍ على أساس المعاوضة، أما في النَّظرية السِّياقية فيكتفي المُعجَميّ بتجميع السياقات القَبْلية التي وردت فيها الكلمة لا تلك التي يُمكن أن تَرِد فيها.

التَّحليلُ التَّوزيعيُّ يجري خارجَ المُعجم، لضبط التَّعريف ولا يُسجّل تدعيمًا للتَّعريف مثل السياقات والشواهد.

والمُلاحَظ على هذا النوع من التعريفات أنَّ تطبيقاتِه المُعجمية ما زالت بطيئةً وحذِرةً، على الرُّغم من أنّه أداةٌ مُتطوّرة في بناء التَّعريفات المُعجَمية(١٠) .

٣-٤ التَّعريفُ الإجرائي:

وهو تعريفٌ ذرائعيٌّ يُعدّ محصّلةَ الآثار العملية للشّيء المُعرّف؛ أي أنّه ينطلق أساسًا من التَّجربة الحسّية ليكوّن مجموعَ الآثار والوظائفِ الناتجةِ عن المُعرّف(١١) ، ومن الأمثلة الموضِّحة لهذا النوع كلمةُ: «كهرباء» في قول المُختصّين: «إنَّ التيّار الكهربائي لا يعني موجةً غيرَ مرئية في مادة ما، وإنّما يعني مجموعةً من الوقائع، مثل: إمكان شحنِ مولّدٍ كهربائي، أو دقِّ جرس، أو دورانِ آلة(١٢)...» .

ويتّضح من هذا المثال أنَّ التَّعريف الإجرائي يرى أنَّ معنى الكلمة يتجلّى في مجموعةٍ ما تفعلُه أو تخلِّفُه من آثار عملية؛ ولذلك يذهب أصحابُ هذا الاتجاه إلى أنَّ الكلماتِ التي لا آثار لها

(٤) ينظر الجيلالي حلام، نظريات من التراث العربي في اللسانيات الغربية الحديثة، مجلة الدراسات اللغوية، المجلد السادس العدد الأوّل، محرم– ربيع الأول ١٤٢٥ه، ابريل –يونيو ٢٠٠٤، المملكة العربية السعودية، ص ٢٣٣.

(٥) أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة، تح: عمر الطباع، شركة الأرقم بن أبي الأرقم، ط١، سنة ١٩٩٩، الكويت ص٢٩١.

(٦) ينظر المرجع نفسه، ص ٧٧-٧٨.

(٧) الثعالبي، فقه اللغة، ص٢٦٧-٢٦٨.

(٨) حلام الجيلالي، ص١٧٣-١٧٤.

(٩) المرجع نفسه، ص١٧٥.

(١٠) المرجع نفسه، ص١٧٥.

(١١) المرجع نفسه، ص١٧٦.

(١٢) المرجع السابق، ص١٧٨.

(١٣) المرجع السابق، ص١٧٩.

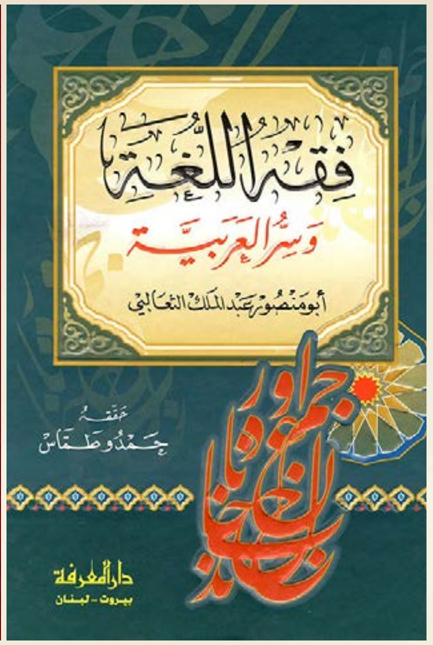

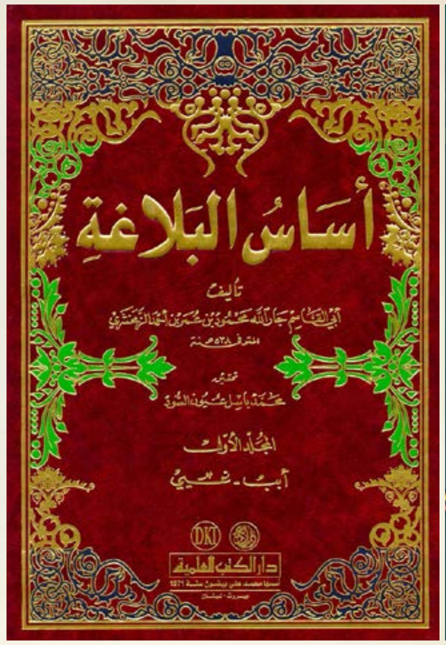

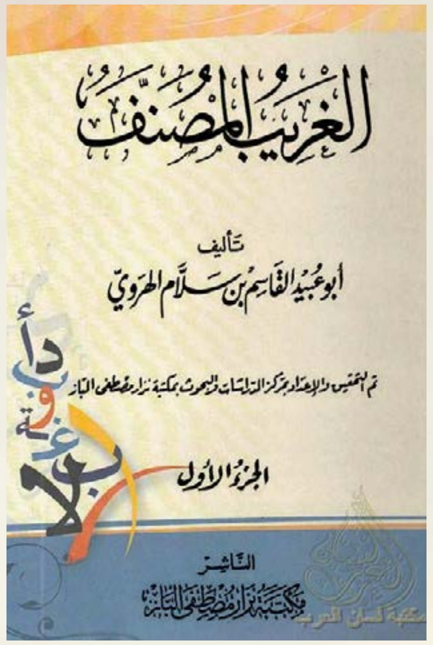

لا معنى لها، أو هي خِلْوٌ من المعنى[13]. وفي مَعرَض بيانِ القيمةِ المَعرفية للتَّعريف المُعجَمي يرى حلام أنَّ التَّعريفَ الإجرائي على ما له من أهميةٍ في تعريف بعضِ المداخل الصَّعبةِ التَّحديدِ؛ إلَّا أنّه يظلُّ قليلَ الفائدة في المجال المُعجَمي أو محدودًا؛ لأنّ الآثارَ العملية لا تتوفّر عليها كلُّ المداخل المُعْجمية، وبخاصة عند تعريف الألفاظ المُجرَّدة[14].

وما يُستدركُ على ما ذكره حلام من تقنيات التعريفِ الآتي:

التَّعريف بالمجاز: ينبغي التَّفريقُ بين نوعين منَ التَّعريف بالمجاز، الأوّلُ الهدفُ منه بلاغيٌّ يَقصدُ إلى إبراز المَلْمَح الجَماليّ والفنيّ للاستعمال، يُعنى بالعبارة المركَّبة، وليس كلُّ عبارة مركبة، وإنّما العبارةُ التي لها مركز ممتاز في عالم اللّغة والأدب. فيورد الألفاظَ في استعمالاتها العربية البليغةِ، ولا يأتي بها مفردةً عاريةً عن التركيب غالبًا[15].

وكان الزمخشري (٥٣٨هـ) رائدَ هذا النَّوع من التَّعريفات، بل إنَّ مُعجَمه هو المُعجمُ الوحيدُ في التُّراث الذي عُني بهذا الجانب، مُستشعِرًا قيمتَه في مُعجمه «أساس البلاغة»، مُصرِّحًا به في مُقدّمته بقوله: «ومن خصائص هذا الكتاب تخيُّر ما وقع في عبارات المُبدِعين، وانطوى تحت استعمالات المُفْلِقين، أو ما جاز وقوعُه فيها، وانطواؤُه تحتها، منَ التراكيب التي تَمْلُح وتَحْسُن، ولا تَنْقَبض عنها الألسن؛ لجريها رَسْلاتٍ على الأَسَلات، ومرورها عذْباتٍ على العَذَبات. ومنها التَّوقيفُ على مناهج التركيب والتأليف، وتعريفُ مدارج الترتيب والترصيف[16]». ومن أمثلة التَّعريف بالمجاز: «رغم ألقاه في الرَّغام: في التراب، ومنَ المجاز ألصقه بالرَّغام إذا أذلّه وأهانه، ومنه رَغَمَ أنفُه ورَغِم، ولأنفه الرُّغم والرَّغْم والمَرْغَم[17]».

والثاني: يساعدنا في معالجةِ التَّطور الدّلالي، الهدفُ منه تاريخي يَعرض التَّغيراتِ الدّلالية المختلفةَ التي تصيب الكلماتِ، وللتوسّع أكثرَ يُراجع مبحثُ وسائل انتقال المعنى من محاضرة التغير الدلالي.

التَّعريف النَّحوي: يتحقق بالإشارة إلى المذكّر أو المؤنّث، والمفرَد والجمعِ والتراكيب، وما لها من أثرٍ دلاليٍّ، ويُلحق بهذا كذلك التَّقديمُ والتأخير، والحذفُ، واللزومُ والتَّعديةُ[18] ...إلخ.

(١٤) المرجع السابق، ص١٧٩.
(١٥) المرجع السابق، ص١٨٠.
(١٦) حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره، مكتبة مصر، ط٢، ١٩٦٨، ٦٩١/٢.
(١٧) الزمخشري، أساس البلاغة، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٦، بيروت، ص٧-٨.
(١٨) المصدر نفسه، ص٢٣٩.
(١٩) المصدر نفسه، ص٣٨٠.

التَّعريف بالشاهد: المعاجمُ العربيةُ جميعُها في التُّراث اتَّبعت التَّقليدَ الذي أرسى أصولَه الخليلُ (١٧٠هـ) والمُتعلِّق بإيراد الشَّواهد الدَّالةِ على وجود اللَّفظ أو معنى من معانيه في لغة العرب. ولهذا الغرض انكبَّ المُعجَميون الروّادُ على جمع كثيرٍ من الشَّواهد من القرآن الكريم، والحديث النَّبوي الشريف وأشعارِ العرب، والأمثالِ والحكم وغيرها. وكانت تلك الشواهدُ تزيد المعنى المطلوبَ جلاءً ووضوحًا ولم يُجافِ هذا التَّقليدَ إلا الفيروز آبادي (٨١٧هـ) في مُعجَمه «القاموس المحيط»، وليس في معجمه الأول «اللامِع المُعْلَم العُجابُ الجامعُ بين المحكم والعُباب[19]». ومثال التَّعريف بالشاهد ما ذكره صاحبُ المِصباح المُنير في صحةِ إطلاقِ الثَّناء على الذِّكر بخير أو شرٍّ، واستشهد بحديث «فأثنوا عليه شرا[20]» وليس كما يزعُم بعضُهم أنّه مقصورٌ على الخير، قال: «قد نقل هذا العدلُ الضَّابطُ عنِ العدل الضَّابط عنِ العرب الفُصحاء عن أفصح العرب، فكان أوثقَ من نقلِ أهلِ اللغة؛ فإنّهم يكتفون بالنقل عن واحد ولا يُعرف حالُه[21]».

(٢٠) ينظر: علي القاسمي، المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ٢٠٠٣، ص٨٥.
(٢١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميّت، رقم: ١٣٠١.
(٢٢) الفيومي، المصباح المنير، طبعة نوبليس، القاهرة، ١١٩/١.

التَّزْفين عند العرب

د. معتز وسام المحتسب
باحث لغوي

هذا الموضوع موضوع أدبيٌّ اجتماعيٌّ، وهو موضوع قديم حديث، ولا يختصُّ باللغة العربية، فهو مغروس في النفس الإنسانية، ومضمونُه تعرفه أكثر الأمَّهات بغريزة الأمومة، ويعرفه كثير من الآباء بغريزة الأبوَّة.

وربما يُعَدُّ لفظ التَّزفين في وقتنا الحاضر من الألفاظ الغريبة؛ لندور استعماله عند المعاصرين، إلا أنه لفظ فصيح مُتداوَل عند المتقدِّمين، فهو من الزَّفْن، والزَّفْنُ نوع من الرَّقْص، يقال: زَفَن يَزْفِنُ زَفْنًا، وقد ورد في كلام أمِّ المؤمنين السَّيِّدة عائشة رضي الله عنها حيث قالت: «وضَعَ رسولُ الله ﷺ ذَقني على مَنْكِبَيه لأنظُرَ إلى زَفْنِ الحَبَشة، حتى كنتُ التي مللْتُ، فانصَرفْتُ عنهم[1]».

والتَّزْفين: التَّرْقيص، يقال: زَفَّنَت الأمُّ ولَدَها؛ أي: رَقَّصَتْه، وإذا أُطلق هذا اللَّفظ فإنه يشمل أيضًا ما يُقال للصَّغير من شعر أو سجع في أثناء ترقيصه، وهذا الأمر يفعله كثير من الناس إلى يومنا هذا، فتجد الأمَّ تؤلِّف بضع كلمات، تراعي فيها السَّجع وربما الوزن العَروضي، وتنشدها وهي تلاعب طفلها أو ترقِّصه أو حين تريد له أن ينام.

والعرب كانت تفعل ذلك مع صبيانها، مع اختلاف في الكلمات والمعاني، بسبب اختلاف البيئة ومستوى اللغة، وقد نقل لنا الرُّواة والأُدَباء بعضَ ما كان يُقال من ذلك، ومن أولئك أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي (ت: ٢٤٥هـ)، فقد حفظ لنا جملةً مما قالته العرب في التَّزفين، إذ عقد فصلًا في كتابه «المنمَّق في أخبار قريش» سمّاه: «تزفين قريشٍ أولادَهم[2]»، أورد فيه شيئًا ممّا كان يقوله قُرشيُّون في أثناء تزفينهم صغارَهم، والمتأمِّل في كثير من تلك الكلمات يجد أن صاحبها قد انتقاها لتحمل معانيَ يريد غَرْسها في طفله، أو لتحمل أمنيات يريد أن تتحقَّق فيه، ولم تكن مجرَّد كلماتٍ مرصوفةٍ ذات معانٍ خاوية.

وفي هذا المقال سأعرض بعض ما أورده ابن حبيب البغدادي، وأعلِّق عليه تعليقات يسيرة، تكشف بعض الجوانب عن هذه العادة الاجتماعية اللغوية.

فممّا أورده ابن حبيب ما كان يقوله عبد المطَّلِب بن هاشم

(١) مسند أحمد، رقم: ٢٤٨٥٤.

(٢) المنمق في أخبار قريش. تحقيق: خورشيد أحمد، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص: ٣٤٦-٣٥٣.

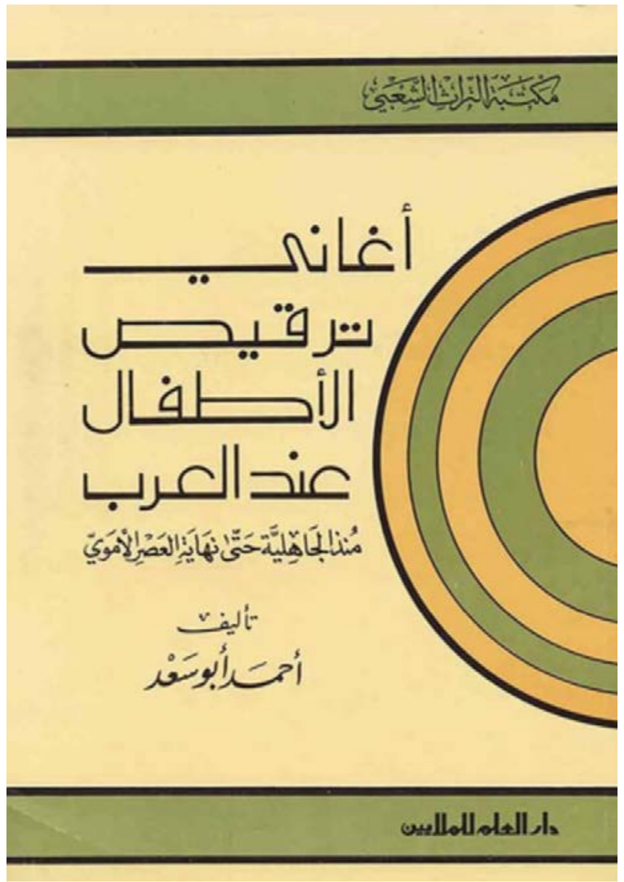

وهو يزفِّن ابنَه العبَّاس [من الرَّجَز]:

ظَنّي بِعَبّاسٍ بُنَيَّ إنْ كَبِر
أَنْ يَسْقِيَ الحاجَ إذا الحاجُ كَثُرْ

فقد تمنَّى عبد المطَّلِب جدُّ النبي ﷺ أن يسير ابنُه العبّاسُ على خُطاه، وأن يتولّى سقاية الحُجّاج من بعده، فوقع ما تمنّاه، إلا أنَّ الذي تولَّى السِّقاية بعد عبد المطلّب مباشرةً هو ابنُه أبو طالب، ثم إنَّه افتقر ولم يستطع المواصلة، فأسند السِّقاية إلى أخيه العباس، فقد كان ميسور الحال غنيًّا سخيًّا باذلًا.

وممّا أورده ابنُ حبيب ما كانت تقوله أُمُّ الفضل لُبابة بنتُ الحارث الهلالية وهي تزفِّن ابنَها عبد الله بن العبّاس [من الرَّجَز]:

ثَكِلْتُ نَفْسي فَثَكِلْتُ بِكْري
إنْ لَمْ يَسُدْ فِهْرًا وغَيْرَ فِهْرِ
بالحَسَبِ العِدِّ وبَذْلِ الوَفْرِ
حَتَّى يُوارَى في ضَريحِ القَبْرِ

فقد تمنَّت أن يسودَ ابنُها بَني فِهر بن مالك، الجدِّ العاشر

للنَّبيِّ ﷺ، تمنَّت أن يسودَهم ويسود غيرَهم، في الحسَب العِدِّ؛ أي: القديم، وفي بَذْل الوَفر؛ أي: في الجود والكرم، وقد سادهم في شيء من ذلك، وسادهم في شيءٍ أعظمَ منه وهو العلم، فقد دعا له النبي ﷺ وقال: «اللهمَّ فَقِّهْهُ في الدِّين، وعلِّمْه التَّأويلَ[٣]»، فاستجاب **الله** لنبيِّه ﷺ فكان ابنُ عبّاس حَبْرَ الأمَّة في الفقه وفي تفسير القرآن، إضافة إلى علمه الواسع بشعر العرب وأخبارهم، وساد في ذلك فِهْرًا وغير فِهْرٍ، وكان أيضًا صاحب رأي سديد، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطلب رأيه، ويُقرِّبه منه، ويُجلسه في مجلسه وهو شابٌّ مع الأشياخ وذوي الرأي.

وممّا أورده ابنُ حبيب ما كانت تقوله صفيَّة بنتُ عبد المطَّلِب وهي تزفِّن ابنَها الزُّبَير بنَ العوّام [من الرَّجَز]:

وأَبيكَ زَبْرٌ ما بِنِكْسٍ أَحْمَقْ
لكنَّهُ صَقْرٌ كَرِيمٌ مُعْرِقْ
حامي الحَقيقِ ماجِدٌ ذو مِصْدَقْ
ويَضْرِبُ الكَبْشَ سَواءَ المَفْرِقْ
ولَيْسَ بالواني ولا بالأَخْرَقْ

فصفية في هذه الأبيات مَدَحت ابنَها الزُّبَير بصفات الرُّجولة والشَّهامةِ، وبدأت مدحها بأن نفت عنه أن يكون نِكْسًا؛ أي: ضعيفًا جبانًا، ونفت أن يكون أحمقَ، ثم وصفته بأنَّه شُجاع كالصَّقر، على سبيل الاستعارة، وأنه كريم مُعْرِق؛ أي: عريق النَّسَب، وأنه يحمي كُلَّ ما يَحِقُّ عليه أن يحميَه، وأنه ماجد نَبيل الشَّرف ذو مِصْدَق؛ أي: صادق فيما ينوي فعله، وأنه شجاع مقدام في الحرب يضرب كبش القوم –وهو سيِّدُهم وبَطَلُهم– ضربةً في أمِّ رأسه فتُسقطه، وختمت كلامَها بأن نفت أن يكون مُتَوانيًا عن تَلْبية ما يُطلب منه، ونفت أن يكون أخرقَ لا يُحسن تدبير أموره. فلما كبر الزبير كان على وَفق الصفات التي تمنَّتها أمُّه له وغرستها فيه.

وممّا أورده ابنُ حبيب ما كانت تقوله هند بنت عتبة وهي تزفِّن ابنَها معاوية بن أبي سفيان [من الرَّجَز]:

إنَّ بُنَيَّ مُعْرِقٌ كَريمْ
مُحَبَّبٌ في أَهْلِهِ حَليمْ
لَيْسَ بِفَحّاشٍ ولا لَئيمْ
ولا بِطُخْرُورٍ ولا سَؤُومْ
صَخْرُ بَنِي فِهْرٍ بِهِ زَعيمْ
لا يُخْلِفُ الظَّنَّ ولا يَخيمْ

فقد وصفته بأنه كريم العِرْق شريف النَّسَب، وأنه مُحبَّب في أهله، ويتَّصِف بالحِلْم، وقد كان مضرب المثل بذلك لما كَبِر، ونفت عنه أن يكون فاحشًا بذيئًا لئيمًا، ونفت أن يكون طُخْرورًا، وهو الضعيف الذي ليس بجَلْد، ويُقال أيضًا: طُحرور بالحاء، ونفت أن يكون كثير السآمة يضجر مما يُطلَب منه، ثم ذكرت أنَّ زوجَها أبا سفيان صخرَ بنَ حرب كفيلٌ به أن ينشأ هذه النَّشأة، وأنه لن يُخيِّب ظنَّها به، وكانت تقول في ابنها أيضًا: ثكِلْتُه إن لم يسد العرب قاطبةً. وقد وقع ما تمنَّت، فقد ذكر ابن سعد في الطبقات[٤] أنه لَمّا ولَّى عمرُ بن الخطّاب – يزيدَ بن أبي سفيان – ما ولّاه مِن الشام خرج إليه معاوية، فقال أبو سفيان لهند: كيف رأيتِ؟ صار ابنُك تابعًا لابني. ويزيد ابن زوجة أخرى لأبي سفيان هي زينب الكِنانية. فقالت هند: إن اضطربَ حبلُ العرب فستعلم أين يقع ابنك مما يكون فيه ابني. وبعد مُدَّة مات يزيد في طاعون عَمواس، فولَّى عُمَرُ بعدَه معاويةَ على الشّام، ثم بعد نحو عشرين سنة آلت إليه الخلافة فسادَ العربَ قاطبةً.

ثُمَّ ذكر ابنُ حبيب أنَّ الزُّبيرَ بن عبد المطَّلِب – وهو أكبر أعمام النبي ﷺ زفَّن غير واحد من أقاربه، منهم النبيُّ ﷺ، فقد روي أن النبيّ ﷺ دخلَ على عمِّه الزُّبيرِ وهو صبيٌّ، فأقعدَه الزُّبَير في حِجْرِه وقال [من الرَّجَز]:

محمَّدُ بْنُ عَبْدَمِ
عِشْتَ بِعَيْشٍ أَنْعَمِ
ودَوْلَةٍ ومَغْنَمِ
في فَرْعِ عِزٍّ أَسْنَمِ
مُكَرَّمٍ مُعَظَّمِ
يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ العَمِ
وعِشْتَ حَتَّى تَهْرَمِ

وصدق الزُّبير بن عبد المطَّلِب، فالنَّبي ﷺ وإن كان قد عاش أوَّلَ حياته يتيمًا، ثم لقي من الأذى ما لقي في أول دعوته، إلا أنه عاش بعد ذلك في دولة ومغنَمٍ، في كنَفَ الأنصار، الذين أغنَوه عن كلِّ عمٍّ، ونصروه بأموالهم وأنفسهم، فعاش بينهم مُكَرَّمًا مُعَظَّمًا منيعًا.

ومَّن زفَّنهم الزُّبَير أخوه العبَّاس، فقال في تزفينه [من الرَّجَز]:

إنَّ أخي العبّاسَ عَفٌّ ذو كَرَمْ
فيهِ عَنِ العَوْراءِ إنْ قيلتَ صَمَمْ
يَرْتاحُ لِلمَجْدِ ويوفي بِالذِّمَمْ
ويَنْحَرُ الكَوْماءَ في اليَوْمِ الشَّبِمْ
أَكْرِمْ بأَعْراقِكَ مِنْ خالٍ وعَمْ

فوصفَ العبّاسَ بأنه عفيف كريم، يتنزَّه عن المجالس التي تُذكر فيه المساوئ، وإنما تميل نفسه إلى ما يُحَقِّق له مجدَه ورِفعةَ مكانته، وهو وفيٌّ بالعهد، ويجود بما عنده إذا اشتدت الأزمة وقلَّ الباذلون، وهو كريم العِرق والنسب من جهة أبيه وأمه. ولما كَبِر العبّاس كان على وَفْق ما ذكر الزُّبير.

ومَّن زفَّنهم الزُّبير أخوه ضِرار، فقال في تزفينه [من الرَّجَز]:

ظَنّي بميّاسِ ضِرارٍ خَيْرُ ظَنْ
أنْ يَشْتَرِيْ الحَمْدَ بأَغْلاءِ الثَّمَنْ
يَنْحَرُ للأَضْيافِ رَبّاتِ السِّمَنْ
أَشْرَفُ مِنْ ذي يَزَنٍ وذي جَدَنْ

فذكر في تزفينه كلماتٍ قريبةً في المعنى مما ذكر لأخيه العباس، فشبَّهه بالميَّاس وهو الأسد رمز الشجاعة، ووصفه بالسَّخاء والكرم. وقد ذُكر أن ضرارًا كان من أكثر فتيان قريش جمالًا وسخاءً، إلا أنه لم يُعمَّر، ولم يُعقِّب.

ومَّن زفَّنهم الزُّبير ابْنته ضُباعة، فقال في تزفينها [من الرَّجَز]:

يا حَبَّذا ضُباعَهْ
مُكْرَمَةٌ مُطاعَهْ
لا تَسْرِقُ البِضاعَهْ
لا تَعْرِفُ الخَلاعَهْ

فأثنى على ابنته، وذكر أنها مُكرمة في أهلها ومطاعة، لا يُرَدُّ

---

(٣) مسند أحمد، رقم: ٢٣٩٧.

(٤) الطبقات الكبرى، مكتبة الخانجي (٦/٢٣). وانظر: البداية والنهاية، دار هجر (١١/٣٩٨).

طَلَبُها، على خلاف ما كان يقع من بعض العرب قبل الإسلام في بناتهم من الإهانة أو الوَأْد، ثم ذكر نزاهتَها عن أن تأخذ ما ليس لها، وعفَّتها عن أن تفعل ما يخدش بحيائها، وقد كانت لما كبِرت كما ذكرَ، فقد توسَّم بها أبوها خيرًا، وبهذه الأخلاق تحلَّت، فنشأت على حب الفضيلة، وكانت من السبّاقين إلى الإسلام.

ومما أورده ابنُ حبيب ما كانت تقوله أمُّ حكيم بنت عبد المطَّلِب وهي تزفِّن ابنَ ابنَتِها عثمانَ بن عفان [من الرَّجَز]:

ظَنّـــي بِـــهِ صِــــدْقٌ وبِـــرْ
يــأمُـــــرُهُ ويَــأْتَـمــــــرْ
مــِنْ فِتْيَــةٍ بيــضٍ صُبُـــرْ
يَحْمـــونَ عــــوْراتِ الــدُّبُـــرْ
ويَــضْـــرِبُ الكَبْـــشَ النَّعِـــرْ
يَضْـــرِبُـــهُ حَتَّـــى يَخِـــرْ

بِـــكُــــلِّ مَصْـــقـــولٍ هَبِـــرْ

فذكرت أنها تظنُّ بحفيدها أن يكون حين يكبَر ممن يقول الصدق ويأمر به، وممن يفعل البرَّ ويأمر به، وأن يكون ممن يحفظ العورات، وأن يكون مِقْدامًا شجاعًا في الحرب، يضرب كبش القوم النَّعِر، وهو بَطَلهم الذي يصيح في أرض المعركة ليُحمِّس قومه وليجلب الخُصوم إليه، يضربه بسيف مصقول قاطع حتى يخرَّ أرضًا. ولم يخيِّب الله ظنَّها، فقد كان عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كما ظنَّت، وأخباره في ذلك أشهر من أن تُذكر.

ومما أورده ابنُ حبيب ما كانت تقوله ضباعة بنت عامر القُشَيْريَّة وهي تُزَفِّن ابنَها سلمة بن هشام بن المغيرة [من الرَّجَز]:

نَمَـى بِــهِ إلــى الذُّرى هِشـــامُ
قِـدْمًـــا وآبـــاءٌ لَـــهُ كــِرامُ
جَحــاجِــحٌ خَـضــارِمٌ عِظــامُ
مِنْ آلِ مَخْــزومٍ هُــمُ النِّـظــامُ

الفَـــــرْعُ والهـــــامَةُ والسَّــــــنامُفهي في هذه الأبيات تُثنى على زوجها وأهل زوجها الذين كانوا سببًا في أن يكون ابنُها ذا نسب شريف عريق، ووصفتهم بأنهن جحاجح خضارم؛ أي: أسياد يسارعون إلى العطاء والبذل، وهذا يدل على رجاحة عقلها؛ إذ غرست في ابنِها حُبَّ أهله وتقديرَ مكانتهم والاعترافَ بفضلهم. وقد كان ابنُها لما كبِرَ ذا مروءة وشهامة، وكان من السبّاقين إلى الإسلام.

وممّا أورده ابن حبيب ممّا كان يقالُ في التَّزفين ما كان فيه أدعيةٌ لحفظ الصبي، ومن ذلك ما كانت تقوله أم حبيب بنت العاص بن أمية وهي تزفِّنُ ابنَ ابنَتِها جُبَيرَ بن مُطْعِم بن عَدِيٍّ [من الرَّجَز]:

احْفَظْ جُبَيْرًا رَبِّ فـــي السَّرِيَّــهْ
لا تُقْعِــدَنّـــي مَقْـعَــدًا شَقِيَّــهْ
وبارِكَـــنْ يـــارَبِّ فـــي بُنَيَّـــهْ

وكانت تقول أيضًا [من الرَّجَز]:

احْفَظْ جُبَيْرًا مِنْ سُيوفِ فــارسْ
وجَنِّبَنْـــهُ عـــارِضَ الوَســـاوِسْ
واحْفَظْهُ مِنْ كُلِّ زَحيــرٍ حـــادِسْ
وزَيِّنَـــنْ رَبِّ بِـــهِ المَجـــالِسْ

فدعت في تزفينها أن يحفظَ اللهُ جبيرًا إذا خاض حربًا، وأن يبارك فيه، وأن يجنِّبه الوساوس، وأن يحفظه من كل زَحير حادس، والزَّحير مرض يصيب البطن، والحادس الذي يطأ بالشيء الأرضَ، وقصدها أن يحفظه الله من كل مرض يُقعده ويطرحه أرضًا، ودعت أيضًا أن يكون جبيرٌ زينةَ المجالس، بأن تكتمل في صفات الرجولة ورجاحة العقل ليكون زينة مجالس الرجال، وقد وقع لجبير ذلك حين كبِرَ.

ومما أورده ابن حبيب ممّا قيل في التَّزفين بعد الإسلام قولُ أم البنين بنت حزام بن خالد الوحيدية تُزَفِّنُ ابنَها العباس بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وتدعو له [من الرَّجَز]:

أُعيـــــذُهُ بالـواحِـــــدِ
مِـــنْ عَيْــنِ كُـــلِّ حـــاسِـدِ
قــائمِـهِــمْ والقـــاعِـــدِ
صـــادِرِهِـــمْ والـــوارِدِ
مُســلِمِـهِــمْ والجـــاحِـدِ
مَولــــودِهِـــمْ والـــوالِدِ

فدعت لودها في تزفينها أن يحفظه الله من كلِّ شرٍّ ومن حَسَد كلِّ حاسدٍ.

وبعد هذا العرض لبعض ما أورده ابن حبيب في تزفين قريش أولادَها يظهر أن السِّمة العامَّة لما كان يقال في ذلك التَّزْفين أنَّه مؤلَّفٌ من كلمات عَذْبة سَهْلة منظومة في الغالب على مجزوء الرَّجَز أو مشطوره؛ إذ النَّظم على الرَّجز ميسور، وليسهل حفظُ هذه الكلمات وتلحينُها وغناؤها، ثمَّ إنَّ هذه الكلمات تحمِل معانيَ سامية في غالبها؛ لتكون مما يتكرَّر على الطفل سماعُه، فينشأ عليها، وفي علم النفس يُذكَر أنَّ ما يسمعه الطفل في مراحل عمره الأولى يؤثِّر في شخصيَّته، خاصَّة ما يتكرَّر على سمعه، وهذا يظهر بجلاء في الأمثلة المتقدِّمة.

هنيئًا لسُلطان العروبة

بمناسبة إصدار باكورة المعجم التاريخي للغة العربية

إلى أيْنَ تَمْضي في سَماءِ المَحامدِ
وقد جُزتَ غاياتِ الكرامِ الأماجدِ

وَهَلْ غايةٌ مِنْ بَعْدِ هذا تَرومُها
لتَرْفعَ شأنَ العُرْبِ فَوْقَ الفراقدِ

بلى إنَّ هِمّاتِ المُلوكِ إذا طَوَتْ
مَناطَ الثُّريّا أَعْجَزَتْ كلَّ راصِدِ

هَنيئًا بِإنجازٍ تَقاصَرَ دونَهُ
بَديعُ المَعاني في بَديعِ القَصائِدِ

فَشارِقةُ الدُّنْيا تَجَلَّتْ «بِتاجِها»
عَروسَ «لسانِ العُرْبِ» بَيْنَ الخرائِدِ

أبيتَ لها إلا الثّقافَةَ صِبْغَةً
وَدُمْتَ أَبَيْتَ اللّعْنَ أكْرمَ والِدِ

ولم تَرْضَ للضّادِ التّخَلُّفَ عَنْ مدًى
تَبارَتْ بِهِ كُلُّ اللُّغاتِ التّوالِدِ

وَكَيْفَ ومَغْناها الأصيلُ تَرسّخَتْ
عُراهُ قُرونًا كالجِبالِ الرّواكِدِ

وَلَمْ يَنقطعْ فَرعٌ لَها عَنْ أُصولِه
وَلا ضاقَ بِالتّشْقيقِ أو بِالتَّوالُدِ

فذا مُعجمُ التاريخِ يَسْطُرُ شُكْرَه
لسُلْطانَ في سفْرٍ منَ النُّورِ خالدِ

يُعيدُ البيانَ اليَعْرُبيّ مُؤصَّلًا
بما سجَّلتْ كُتُبُ اللُّغى مِن شَواهِدِ

نَرى الضّادَ فيهِ غادَةً في جَمالِها
تَميسُ دَلالًا في البُرى والقَلائِدِ

تَفَرَّدَ في سُوحِ المَعاجِمِ قَدْرُهُ
بِما نالَ مِن مِيزاتِهِ والفَوائِدِ

فَفيهِ لألفاظِ القُرانِ مُفهرِسٌ
يُفَسِّرُ عن حَبْرِ الهُدى أو مُجاهِدِ

وفِهرِسُ ألفاظِ الحديثِ مُضَمَّنٌ
بِهِ وفقَ ما في أمهاتِ المسانِدِ

إلى لُغةِ الأشعارِ في صَبَواتِها
ونَثْرِ الأُلى حازوا بيانَ المَقاصِدِ

بِهِ جاورَ الأعْشى مَضارِبَ عَصرِنا
كما جالَ شَوقي في عتيقِ المعاهِدِ

وذا شاهِدُ المَعْنى بِمِصْرَ يُجيبُهُ
بِتَحْويرِ مَعْناهُ الشّآمي بِشاهِدِ

لَعمري لَهذا اليومُ عِيدُ عُروبَةٍ
ومَشهدُ فَخرٍ بَذَّ كلَّ المشاهِدِ

فلو متنبي الشعرِ عادَ لسَرَّهُ
بِدارةِ سلطانٍ جميلُ العوائِدِ

محمد الأمين السملالي

حَديثُ العُيونِ في شِعرِ العُميان

(بَشَّارُ بنُ بُردٍ أنْموذجًا)

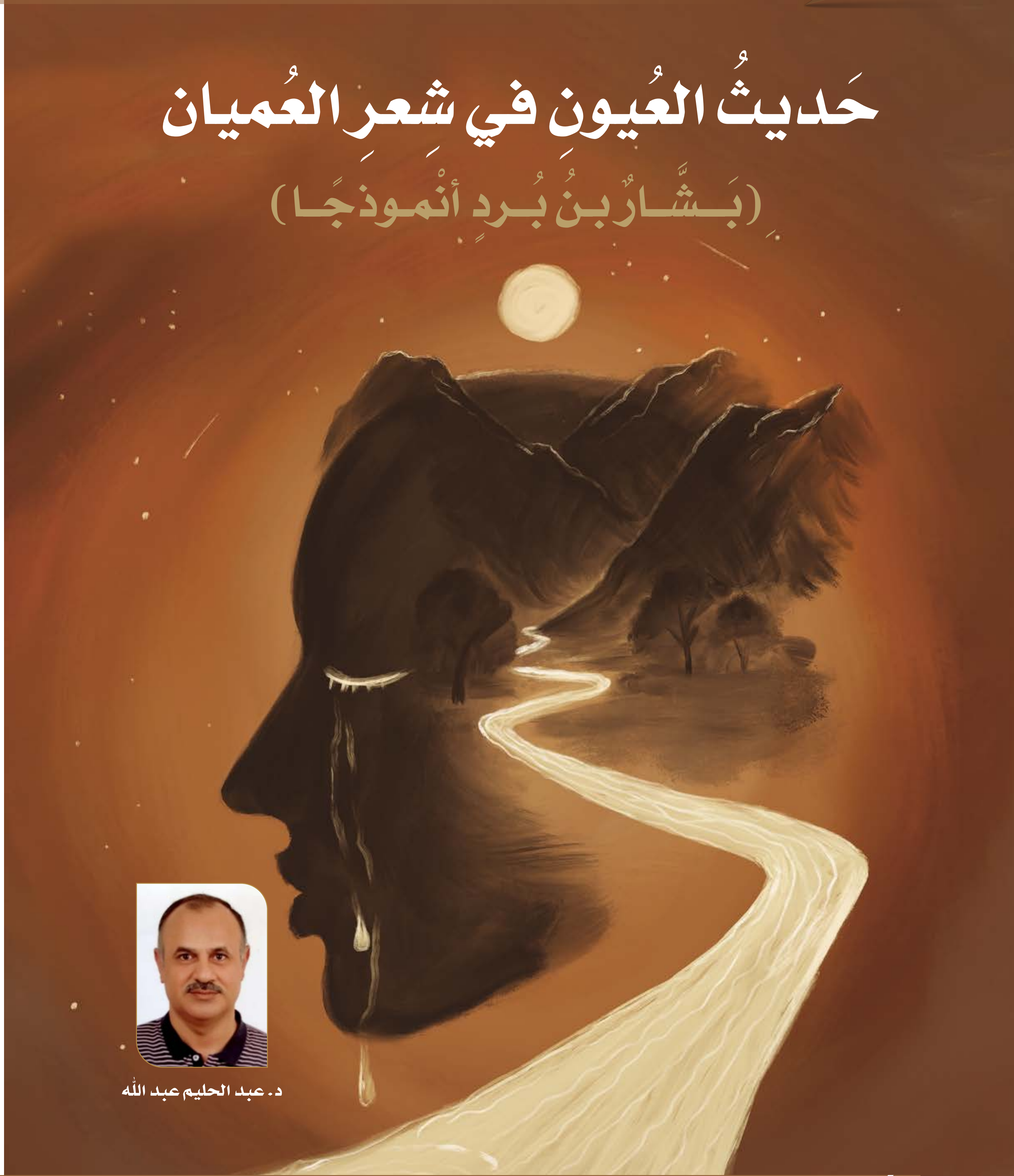

د. عبد الحليم عبد الله

التَّعريفُ بالشَّاعرِ

لنْ أُطيلَ التَّعريفَ بالشَّاعرِ فهوَ مِنَ المَشهورينَ الَّذينَ لا أحسَبُ أنَّ أحدًا لمْ يَسمَعْ بِهِ أبدًا، لكنَّها إلماحةٌ سَريعةٌ للدُّخولِ في الجوِّ العامِّ، فالشَّاعرُ هو بَشَّارٌ بنُ بُردِ بنِ يرجوخَ العقيليُّ، كُنِّيَ بِأبي مُعاذٍ، وكانَ يُلقَّبُ بالمُرعِّثِ، وقيلَ: إنَّ مِن أجدادِهِ مَن كانوا مُلوكَ الفرسِ، ولِذَلِكَ كانَ بَشَّارٌ يَفتخرُ بِنَسبِهِ في غَيرِ مَوضعٍ مِنْ دِيوانهِ.

وُلِدَ بَشَّارٌ بنُ بُردٍ في نِهايَّةِ القَرنِ الأوَّلِ الهِجريِّ سَنةَ ٩٦ هـ عِندَ بَني عقيلٍ في باديَّةِ البَصرةِ، ونَشأَ وتَعلَّمَ فيها، واشتُهِرَ شِعرُهُ فيها، سَكَنَ حَرَّانَ مدَّةً، وتَنقَّلَ في البلادِ مدَّةً، وانتقَلَ إلى بَغدادَ وتُوفِّيَ فيها.

كانَ دَميمَ الخِلقةِ، أعْمى، طويلًا، ضَخمَ الجِسمِ، عَظيمَ الوجهِ، جاحظَ العَينينِ، وقَدْ تَغشَّاهُما لحمٌ أحمرُ، فكانَ قبيحَ العَمى، مَجدورَ الوجهِ، حَتَّى ضُرِبَ بِهِ المَثلُ لِقباحةِ عينيهِ، فقالوا: «كَعينِ بَشَّارِ بنِ بُردٍ».

ومَعَ أنَّ بَشَّارًا وُلِدَ أكمَهَ، أيْ: وُلِدَ أعمى إلّا أنَّهُ كانَ يَأتي بِشعرٍ لا يَشعرُ مَعَهُ السّامَعَ بأن صاحبه أعمى، لكثرة ما فيه ما صورٍ بَصريَّةٍ وحركيَّةٍ، وفي ذَلِكَ كُلُّ العَجبِ في أنْ تَغلبَ هَذِهِ الصُّورُ على شِعرِهِ..

وحَديثُ العُيونِ في شِعرِ بَشَّارٍ يَتشعَّبُ إلى ثلاثِ شُعبٍ. الأَوَّلُ: حديثُهُ عَن عَينَي مَنْ يُحبُّ وفِتنتِها، والثَّاني: حَديثُه عَن عَينَي العُذّالِ والرُّقباءِ. والثَّالثُ: حَديثُه عَن عَينَيهِ وانْشِداهِهِما بِما تريانِ.

الحَديثُ الأوَّلُ: عُيونُ المَحبوبِ.

ما أكْثرَ هذا الحَديثَ في شِعرِ بَشَّارٍ! وما أكْثرَ ما يَخلعُ فيهِ الكَثيرَ مِنَ الصّورِ البَصريَّةِ والحَركيَّةِ على المَرأةِ الَّتي يَتغزَّلُ بِها! مَعَ تَفاصيلَ لَيستْ بِالقليلةِ – رُبّما– لِيقنعَنا بِأنَّهُ حاضِرُ البَصريَّةِ في كُلِّ وَقتٍ، وإنَّني لا أشكُّ لوهلةٍ بِغلبةِ هذا الجانِبِ في شِعرِهِ بِسببِ فَقدِهِ لِنِعمةِ البَصرِ، ويَغدو ذَلِكَ نوعًا مِنَ التَّعويضِ اللَّاشعوريِّ عَنِ المَفقودِ.

وأوَّلُ ما يُطالعُنا في هَذا الحَديثِ حَديثُهُ عَنْ حَورِ عُيونِ المَرأةِ

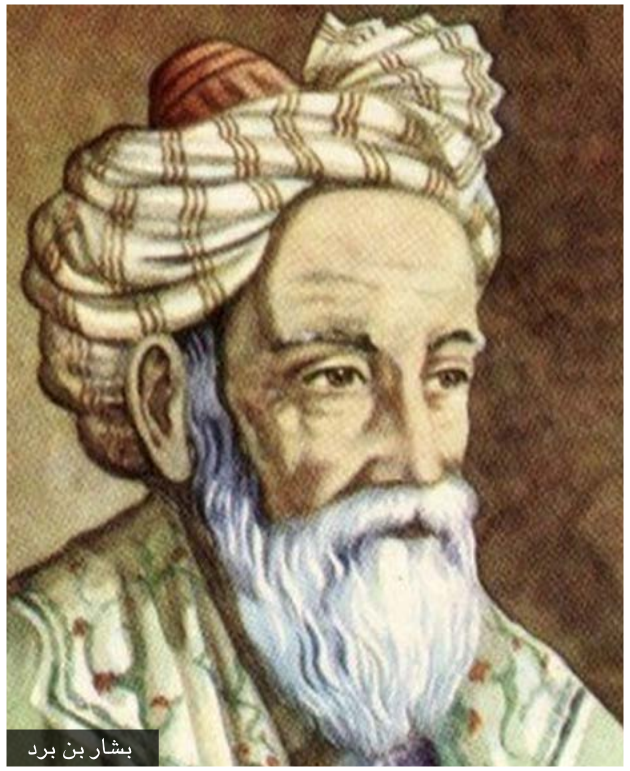

بشار بن برد

الَّتي يُحِبُّ أو يَتغزَّلُ بِها، ومن ذَلِكَ قولُهُ في فتاةٍ حَوراءَ أحبَّها فأنسَتْهُ لَيلَهُ حَتَّى أنكرَهُ. يَقولُ:

يا لَيلَتي تَزدادُ نُكرا
مِن حُبِّ مَن أَحبَبتُ بِكرا

حَوراءُ إِنْ نَظَرَت إِلَيكَ
سَقَتكَ بِالعَينَينِ خَمرا

وَكَأَنَّ رَجعَ حَديثِها
قِطَعُ الرِّياضِ كُسينَ زَهرا

وَكَأَنَّ تَحتَ لِسانِها
هاروتَ يَنفُثُ فيهِ سِحرا

وَتَخالُ ما جَمَعَت عَلَيهِ
ثِيابَها ذَهَبًا وَعِطرا

وَكَأَنَّها بَردُ الشَّرا
بِ صَفا وَوافَقَ مِنكَ فِطرا

جِنِّيَّةٌ إِنسِيَّةٌ
أَو بَينَ ذاكَ أَجَلُّ أَمرا

فإذا ما وَقفْنا في عُجالةٍ عِندَ هَذِهِ الأبياتِ وَجدْناها احتوَتْ صورًا مُختلفةً مُتنوِّعةً ما بينَ صُوَرٍ لونيَّةٍ وحركيَّةٍ وشمّيَّةٍ وسمْعيَّةٍ، ولَعلّ أوّلَ ما يُطالِعُنا وصفُهُ لَها بأنَّها حوارءُ- والحَوَرُ في اللُّغةِ البَياضُ، وحَورَتِ العَينُ حورًا: اشْتَدَّ بياضُها وسوادُها- إذا نَظرَتْ إليهِ سَقتْهُ بعينَيها خمرًا لِسحرِ نَظراتِها وفتكِها فيهِ، فيَسكَرُ ويَذهلُ عمّا حولَهُ، ليسَتْ هَذِهِ الصُّورةُ فحَسبُ، بلْ تُطالعُنا في هَذِهِ الأبياتِ على قصرِها صُورةُ الذَّهبِ والعِطرِ والإنسِ والجِنّ وزهرِ الرِّياضِ وما إلى ذَلِكَ.

وهُوَ يذكرُ حَورَ العَينَينِ في غَيرِ مَوضعٍ. كقولِهِ:

أنا بَلٌّ بشادِنٍ
أحوَرِ العَينِ أجْيَدا

وكقولِهِ:

وذاتِ دَلٍّ كأنَّ البدرَ صُورتُها
باتَتْ تغنِّي عَميدَ القَلبِ سَكرانا
إنَّ العُيونَ الَّتي في طَرْفِها حَوَرٌ
قتلْنَنا ثُمَّ لَمْ يُحْيينَ قَتلانا

وكقولِهِ:

ما كُنتُ أوَّلَ مَجنونٍ بجاريةٍ
تَسفَّهتْ لُبَّهُ والمَرءُ صِنديدُ
أَغْرى بِهِ اللّومَ أُذنٌ غيرُ سامِعَةٍ
وَأحورُ العَينِ في سِمطَينِ رِعديدُ

وكقولِهِ:

كَأنَّما أقسَمَتْ عَيني تُسالمُهُ
حَتَّى تَرى أَحْوَرَ العَيْنَيْنِ فِي الجادِي

وكقولِهِ:

حَوْراءَ كَانَتْ هَوى نَفْسِي وَمُنْيَتَهَا
لو قرَّبَ الدَّهرُ مِن لُقيانِها أمَدا
وَلَوْ تُكلِّمُ مَحْمُولًا جِنَازَتُهُ
قَدْ ماتَ بالأمسِ أو تَرثي لَهُ خَلَدا
فَالقَلْبُ صَبٌّ مُعَنًّى حِينَ يَذْكُرُهَا
والعَينُ عَبرى تُقاسي الهَمَّ والسَّهدا
ما إنْ رأيتُ كَمَشْعوفٍ بحبِّكُمُ
يَبْقى ولا مِثْلُكُمْ يَعْتَلُّ لَوْ رَقَدَا

وفي هَذا الحَديثِ لا يُمكنُنا أنْ نَغضَّ البَصرَ عَن فِتنةِ العُيونِ،

وكَأنِّي بالشّاعِرِ لا يَتركُ مُناسبةً مِنْ دونِ أنْ يَتحدَّثَ عَن سِحرِ عَينَي المَحبوبةِ مِن جِهةٍ، وشِدّةِ تأثيرِها في عينَيهِ وعَينَي الرَّائي، ومِنْ ذَلكَ قولُهُ:

وَوَجْهُهُ يشْبِهُ البَدْرَ
عليهِ التَّاجُ مصوبُ
وعينٌ تسحرُ العينَ
وَمَا فِي سِحْرِهَا حُوبُ
وَوَحْفٌ زَانَ مَتْنَيْكِ
وزانتهُ التَّقاصيبُ
وجيدٌ يشبهُ الدُّرَّ
كَجيدِ الرِّيمِ سُلهوبُ
وَنَحْرٌ بَيْنَ حُقَيْنِ
يَشِفُّ العَيْنَ مَشْبُوبُ
عليهِ الجوهرُ الأخضرُ
واليَاقُوتُ مَنْصُوبُ

فالقارئُ لِهَذِهِ الأبياتِ لا يَشعرُ إلّا وكَأنَّهُ أمامَ رَسامٍ يُصوّرُ تَفاصيلَ دَقيقةً في جَسدِ مَحبوبتِهِ، مِنْ وجهِها إلى عَينَيها إلى عينَيهِ المَسحورةِ بِها، إلى شَعرِها الّذي يُزيِّنُ مَتنَها، إلى جِيدِها الطَّويلِ الذي يُشبهُ جِيدَ الغِزلانِ، إلى صَدرِها الّذي يُذهِلُ الرَّائيَ فيشفُّ بَصرَهُ.

ويُفصِّلُ في رَسمِ مَحبوبتِهِ ليُقنعَنا أنَّهُ مَعذورٌ في هَواها، كَيفَ لا؟ وهِيَ حَتَّى النِّساءُ إذا رَأينَها عَشقْنَها بِما يُصوِّرُه مِن لوحاتٍ بَصريَّةٍ يَذكرُ عينَيها في أوَّلِ لوحةٍ مِنْها. يَقولُ:

للَّهِ دَرُّ فتاةٍ مِنْ بَنِي جُشَمِ
ما أحْسنَ العيْنَ والخدَّيْنِ والنَّابا
بَدا لَنا مَنْظَرٌ مِنْها اعتبَرْتُ بِهِ
وشاهدُ المِسكِ يلقى الأنفَ ما غابا
قَدْ زُيِّنَتْ بالمُحيَّا صُورةً عَجبًا
وزانَها كَفَلٌ رابٍ وما عابا
إذا رآها نِساءُ الحَيِّ قُلْنَ لَها
سُبْحانَ مَنْ صاغَها يُغْرِقْنَ إطْنابا

فبَشَّارٌ حَينَ بَدا لَهُ ذَلِكَ المَشهدُ المُتنوِّعُ المُترَعُ بالمُقوِّماتِ الحِسيَّةِ، قدّمَ فيهِ حُسنَ العينَينِ فالخَدَّينِ فالثَّنايا بِصورةٍ بصريَّةٍ، ثُمَّ انْتقلَ إلى صُورةٍ حِسيَّةٍ أخرى مَشمومةٍ وهِيَ صُورةُ المِسكِ، لِيَطلعَ مَرَّةً أخرى إلى الوَجهِ، ويَنزلَ إلى الكَفَلِ، فيَقولُ لنا: إنَّها جمَعَتْ صُورةً بَديعةً فسُبحانَ الخالقِ المُصوِّرِ المُبدعِ الّذي شَكّلَها وصاغَها!.

بَلْ إنّ بَشَّارًا يَكادُ لا يُفوِّتُ فُرصةً دونَ أنْ يَتحدَّثَ فِيها عَنْ جَمالِ المَرأةِ ويُتوِّجُ كَمالَ كُلِّ ذَلِكَ بِحديثِهِ عَنْ حُسنِ عُيونِها. ومِنْ ذَلِكَ قَولُهُ:

كَمُلَتْ في العَيْنِ حُسْنًا
وجمالًا في الثِّيابِ

فالجمالُ يَكتمِلُ عِندَهُ بِحُسنِ العُيونِ وجَمالِها، فَضلًا عمَّا تلبسُهُ مِنْ ثِيابٍ.

على أنَّهُ لا يَكتَفي بِوصفِ العُيونِ فَقَطْ، بل لِلعُيونِ عِندَهُ حَديثٌ لا يَنتَهي بِسهولةٍ. يَقولُ:

حدَّثتْنِي العُيُونُ عنْها فحالفْتُ
المصلَّى أدعو إلهي مكبًّا
كدُعاءِ المكْرُوبِ فِي لُجَّةِ البحْرِ
يُنادي الرَّحْمنَ رغْبًا ورهْبًا
فاسْتجابَ الدَّعاءَ واسْتوْجبَ الشُّكْرَ
إلهٌ قريبٌ ازدادَ قربا

فالشَّاعرُ -كَما رَأينا في الأبياتِ السَّابقةِ - يَخصُ العُيونَ بالحَديثِ فَكأنّهُ يَراها ويَفهمُ حَديثَها، إذْ إنَّهُ لمَّا رأى عَينَيها وحدَّثَتْهُ بِحديثِها سُحِرَ وفُتِنَ بِهما، فَحالفَ المُصلَّى يَدعو **الله** ويبتهلُ إليهِ كدعاءِ المَكروبِ.

وهُوَ لا يَنْسى في كُلِّ مُناسبةٍ أنْ يَتحدَّثَ عَنْ فِتنةِ العَينينِ وما تَفعلُهُ فيهِ، حَتَّى إذا ما فَتكَتْ بِهِ وأردتْهُ صَريعًا فقلْنا عَنهُ: شَهيدُ

الهوى، ومَنْ ماتَ في حُبِّ النِّساءِ شهيدُ. يَقولُ:

وللخَيرِ أسبابٌ وللعينِ فتنةٌ
ومَنْ ماتَ مِن حُبِّ النِّساءِ شَهيدُ
وبيضاءَ مِكسالٍ كأنَّ حَديثَها
إذا الْقِيَتْ مِنْهُ العُيُونُ بُرُودُ
دَعتْني بأسبابِ الهَوى ودَعوتُها
لَيالِيَ سِربالُ الصَّفاءِ جَديدُ
فجاءتْ على خوفٍ كأنَّ فُؤادَها
جَناحُ السُّمانَى يَرْعوي ويَحيدُ

فجَمالُ عينَيها فاتنٌ يأسرُ قلبَهُ، حتَّى كأنَّهُ يُدنيهِ مِنَ الأجلِ، ولعلَّ الصُّورَ البصريَّةَ في الأبياتِ السَّابقةِ تشدُّ الانتباهَ، فمِنْ حديثِهِ عَنِ العينِ وفتنتِها، إلى حديثِهِ عَنْ شدَّةِ بياضِها، إلى انتقالِهِ إلى صُورةٍ حِسيَّةٍ مِنْ نوعٍ آخرَ بصورةٍ صوتيَّةٍ تتمثَّلُ بجَمالِ حديثِها، ثُمَّ يَختمُ بصورةٍ حركيَّةٍ يُشبِّهُ فيها فؤادَها في خَفقانِهِ وخوفِهِ بجناحَي طائرِ السُّمانى المُرتجِفَين.

ونَرجِعُ إلى فتنةِ العيونِ في شعرِ بَشَّارٍ، إذْ أفتنُ اللَّوحاتِ البصريَّةِ لدى بشَّارٍ يتمثَّلُ في جسمِ مَنْ يُحبُّ، وما فيهِ مِنَ الفتنةِ والأسرِ والسِّحرِ. يقولُ:

لَمْ تَرَ العَيْنُ لعينٍ فِتْنَةً
مِثْلَها بَيْنَ جُمادى وَرَجَبْ
فهيَ عَجزاءُ إذا ما أدبرتْ
وإذا ما أقبلَتْ فيها قَبَبْ
تيمتْني بقوامٍ خَرِعبٍ
وبدلٍّ عَجَبٍ يا لَلعَجَبْ
صُورةُ الشَّمسِ جَلَتْ عَنْ وَجْهِها
بَعْدَ عَيْنَيْ جُؤْذَرٍ في المُنْتَقَبْ
كَمْ رَأيْنا مِثْلَها في مَأمَنٍ
قَلَّبَ الدَّهرُ عليهِ فانْقَلَبْ

فهيَ عَجزاءُ مُدبرةً، ناهدٌ كاعبٌ مُقبلةً، بقوامٍ رشيقٍ لطيفٍ ووَجهٍ عجيبِ الجَمالِ، كأنَّهُ الشَّمسُ في الوَضاءةِ والصَّباحةِ والجَمالِ، أمَّا العُيونُ فعُيونُ بَقرٍ وَحشيٍّ في اتِّساعِها وجَمالِها، وهُو في كُلِّ ذَلكَ كأنَّهُ يَرى بعينَي مُصوِّرٍ فوتوغرافيٍّ شَديدِ الحَساسيَّةِ لأدقِّ الفروقِ وأدنى التَّفاصيلِ.

على أنَّ عينَي محبوباتِ بَشَّارٍ ونظراتهنَّ لا تصرعُهُ وَحدَهُ فحسبُ، بل تغتصِبُ الأسودَ. يقولُ مُشبِّهًا بالغزالةِ ومُشبِّهًا نفسَهُ باللَّيثِ الذي لا يقوَى على أنْ يُقاومَ تِلكَ الغزالةَ الفاتنةَ:

غَزالةٌ غَصبَتْ لَيثًا بِمُقلتِها
لم أرَ كاليومِ مَغصوبًا ومُغتصِبا
تَدنو مَعَ الذَّرِّ تَشبيهًا إذا نَزَحَتْ
حَتَّى أرى شَخْصَها في العَيْنِ مُقْتَرِبا

الحديثُ الثَّاني: الحَديثُ عَنْ عَينَي العُذَّالِ والرُّقباءِ

إنَّ بَشَّارًا – كما أسلفْنا مِن قبلُ– لا يُفوِّتُ فُرصةً للحديثِ عَنِ العيونِ إلَّا انْتَهزها، ومن هَذهِ الفرصِ حديثُهُ عَنْ عُيونِ الرُّقباءِ والعُذَّالِ، ومِنْ ذَلكَ قولُهُ:

تعجَّبتْ جارتي منِّي وقد رَقَدَتْ
عنِّي العُيونُ وباتَ الهَمُّ مُحتشِدا
فالقَلْبُ صَبٌّ مُعنًّى حينَ يَذكُرُها
والعينُ عبرى تُقاسي الهَمَّ والسَّهَدا

فقد نامتْ عُيونُ الرُّقباءِ، لكنَّ همَّهُ لَمْ يَزلْ مُحتشِدًا، يَجعلُهُ يُعاني ويُقاسي فتستجيبُ عيونُهُ بالعبراتِ والهَمِّ والسُّهدِ مِنْ ألمِ الحُبِّ ولوعتِهِ.

ويتحدَّثُ عَنْ عيونِ العُذَّالِ، ويدعو عليها بأنْ يَطمسَها اللهُ طمسًا، فيَقولُ:

ليتَ العيونَ الطَّارقاتِ
طُمِسْنَ عنَّا اليومَ طمسا
فأصَبْنَ مِنْ طَرفِ الحديثِ
لَذاذةً وخرجْنَ مُلْسا

الحديثُ الثَّالثُ: حَديثُهُ عَنْ عَينيهِ وانْشِداهِهما بما تَريانِ.

أكثرُ ما يُحدِّثُ به بَشَّارٌ عن عَينيهِ بأنْ يَجعلَ مَحبوبةً قُرَّةَ عَينِهِ، في مَزيجٍ من الصُّورِ الحِسيَّةِ البَصريَّةِ الحَركيَّةِ الشَّمِّيَّةِ الذَّوقيَّةِ. يَقولُ:

يا قُرَّةَ العَينِ إنِّي لا أُسمِّيكِ
أكْنِي بأخْرى أسَمِّيها وأعْنيكِ
أخشى عَليكِ مِنَ الجاراتِ حاسدةً
أوْ سَهمَ غَيرانَ يَرميني ويَرميكِ
يا أطيبَ النَّاسِ رِيقًا غيرَ مُختبَرٍ
إلَّا شَهادةَ أطرافِ المَساويكِ
يا رَحمةَ اللهِ حُلِّي في مَنازلِنا
حَسبي بِرائحةِ الفِردوسِ مِنْ فيكِ

فهيَ قُرَّةُ عينَيهِ، يَخافُ عليها مِن غَيارى النَّاسِ رِجالًا ونساءً فيُكنِّي عنها، كيفَ لا؟ وهيَ بالنِّسبةِ إليهِ رَحمةُ اللهِ ورائحةُ الفِردوسِ وأطيبُ النَّاسِ رِيقًا.

وبِمِثلِ تلكَ الطلَّةِ البَهيَّةِ تَمتلئُ عينُ بَشَّارٍ بنورِ الحَبيبِ الَّذي يُضاهي ضوءَ القمرِ المُكتمِلِ. يَقولُ:

فبِتُّ بِبدرٍ يَملأُ العَينَ نورُهُ
هَضيمِ الحَشا في الزَّعفرانِ مُضرَّجِ
إذا أحْرقَتْني الكأسُ داويتُ حرَّها
بِمَثلوجةٍ في نَظْمِ دُرٍّ مُفلَّجِ

ولعلَّنا نُلاحظُ الصُّورَ البَصريَّةَ في البيتَينِ السَّابقينِ مِن خلالِ تَصويرِهِ البَدرَ ونورَهُ وهَضيمَ الحَشا والزَّعفرانَ المُضرَّجَ والخَمرةَ المَثلوجةَ والدُّرَّ المُفلَّجَ.

ولذلكَ يُعبِّرُ في غيرِ مَوضعٍ أنَّ العينَ عاشقةٌ، وإنَّما تَعشقُ العينُ بَعدَما ترى وتُعجبُ بما تَراهُ، فيَستقرُّ ذلكَ الإعجابُ في القلبِ. يَقولُ:

هلْ على عاشقٍ خَلا بِحبيبٍ
في التزامٍ وقُبلةٍ مِنْ جُناحِ
إنَّما بالفُؤادِ والعَينِ منِّي
حُبُّ شِبعِ الخَلخالِ غَرثى الوِشاحِ

بِصوَرٍ حِسيَّةٍ أكثرُها بَصريَّةٌ، فمِنَ الخلخالِ إلى الوِشاحِ إلى الحَبيبِ والتزامِ مُجالستِهِ إلى تَمنِّي قُبلتِهِ.

ويَقولُ في مَوضعٍ آخرَ بِأنَّهُ عَشِقَ مِنْها كُلَّ شيءٍ، وهامَ فيها هُيامَ المُتَّقينَ وطَمَعَهُم بالجَنَّةِ، لذَلِكَ رَغبَتْ عينُهُ عَن كُلِّ النِّساءِ سِواها. يَقولُ:

عَشقتُ فاها وعَينَيها ورُؤيتَها
عِشقَ المُصلّينَ جنّاتٍ لأبرارِ
فالعَينُ مِنّي عَنِ النِّسوانِ صائمةٌ
حَتّى يَكُونَ على الحَوْرَاءِ إفْطارِي

فالعَينُ عينُهُ، والصَّومُ صَومُهُ، لكنَّهُ صومٌ عَن النِّساءِ، بمَعنى أنَّهُ لا يُطيقُ النَّظرَ إلى غيرِها مِنَ النِّساءِ.

على أنّ عَينَهُ الّتي يَنظرُ بِها – كَما يدّعي في شِعرِهِ – إلى مَنْ يُحبُّ يَحتاجُها في ساعاتٍ أخْرى مِن أجلِ البُكاءِ لتَخفيفِ لَوعةِ الفِراقِ. يَقولُ:

ذَكَرْتُ حَبيبِي فاسْتَهلَّتْ مَدامِعِي
وفي الدَّمعِ أشْغالٌ عَنِ النَّشواتِ
لقْد قُلْتُ لِلعَيْنِ المَرِيضَةِ بِالهَوى
أَفيقِي وَإِنْ لَمْ تَفْعَلِي فَأَسَاتِ
وعزَّيْتُ نفْسِي عَنْ عُبيْدَةَ بِالرُّقى
لِتَسلى وما تَسلى عَنِ الرُّقياتِ
فما أَعْتَبتِني العَيْنُ مِنْ فَيْضِ عبْرَةٍ
ولا يرعَوي قَلبي إلى دَعواتِ
وإنِّي لأهواها وإنْ كُنتُ كاذِبًا
فَلا رُفِعَتْ فِي الصَّالِحِينَ صَلاتِي

فهو بَريءٌ مِنْ كُلِّ ذَنبٍ سِوى الحُبِّ، الذي أسالَ دَمعَهُ وأرَّقَهُ ومَنَعَهُ النَّومَ. يَقولُ:

وَمَا أذْنَبْتُ مِنْ ذَنْبٍ
سِوى حُبِّي فَما ذَنْبِي
ونَومُ العَينِ مَمنوعٌ
وَمَاءُ العَيْنِ فِي سَكْبِ

فالنَّاسُ وإنْ كانوا يَغصّونَ بالطَّعامِ، فَعَينُ بَشَّارٍ تَغصُّ بالفِراقِ وبألمِ الهَجرِ، فيسكبُ العَبراتِ أحيانًا، وأحيانًا أخْرى يُغالبُها فيُمسكُها، وعَزاؤهُ في ذَلِكَ أنَّ الحَبيبَ وإنْ رَحلَ فإنَّ حبَّهُ لا يَنتَهي ولا يَرحل. يَقولُ:

أقولُ والعينُ بِها غَصَّةٌ
مِنْ عَبْرَةٍ هَاجَتْ ولَمْ تَسْكُبِ
إِنْ تَذْهَبِ الدَّارُ وسُكَّانُهَا
فَإِنَّ ما فِي القَلْبِ لَمْ يَذْهَبِ
لا غَرْوَ إلّا دَارَ سُكّانِنَا
تُمسي بِها الزُّبدُ مَعَ الرَّبرَبِ
تَنتابُها سُعدى وأترابُها
فِي ظِلِّ عَيْشٍ حَافِلٍ مُعْجِبِ

وربّما تَجلّدَ في حُضورِ الآخرِ، ولَكنَّهُ إذا ما خَلا إلى نَفسِهِ عادَتْ عَيناهُ إلى وَظيفتِهِما تَفلَّتَ الدَّمْعُ مِنْ عَينَيهِ مِدرارًا. يَقولُ:

أئِنُّ مِنْهَا إِلى الأَدْنى إِذَا ذُكِرَتْ
كَما يئِنُّ إِلى عُوَّادِهِ الوَصِبُ
بِجارةِ البَيتِ هَمُّ النَّفسِ مُحتضرٌ
إِذَا خَلوْتُ وماءُ العيْنِ ينْسكِبُ

على أنّ بَشَّارَ بنَ بُردٍ لا يَخفى عَليهِ أنّ هناكَ مَنْ سَيتهمُهُ بِصدقِ عاطفتِهِ وأنّهُ لم يَرَ ما أرانا إيَّاهُ في الشِّعرِ، فَرَدَّ على أولئكَ المُتخرِّصينَ بأنَّ سبيلَ الرُّؤيا رؤيا القَلبِ وسبيلَ السّمْعِ مِنَ القَلبِ، فَما يَعشقُ العاشِقُ ولا يَرى ولا يَسمَعُ إلّا مِنْ قَلبِهِ. يَقولُ:

فقُلتُ دَعوا قَلبي بِما اخْتارَ وارتَضَى
فبِالقَلبِ لا بِالعَينِ يُبصِرُ ذو اللُّبِّ
وما تُبصِرُ العَينانِ في مَوضعِ الهَوى
ولا تَسمَعُ الأذنانِ إلّا مِنَ القَلبِ
وما الحَسنُ إلّا كُلُّ حُسنٍ دَعا الصِّبا
وألَّفَ بَينَ العِشقِ والعَاشِقِ الصَّبِّ

ثمّ يَعودُ إلى حَقيقتِهِ (العمى) ويَذكرُها في شِعرِه ويَذكُرُ تَأويلًا جَميلًا لَها، بأنَّ فَقدَ الأحبَّةِ يُهوِّنُ عَليهِ فَقْدَ عُيونِهِ. يَقولُ:

قَالوا العَمى مَنْظرٌ قَبِيحُ
قُلْنا بِفَقدي لَكُمْ يَهونُ
تَاللهِ ما فِي البِلادِ شَيءٌ
تَأسى على فَقْدِهِ العُيُونُ

وبَعدَ هَذِهِ الرِّحلةِ المُوجزةِ في شِعرِ بَشّارِ بنِ بُردٍ نُلاحظُ كَثافةَ الصّوَرِ البَصريَّةِ فيهِ على الرَّغمِ مِنْ أنَّ بَشّارًا فاقدٌ لِنعمةِ البَصرِ مُنذُ ولادتِهِ، ونَستنتِجُ مِنْ خِلالِ ما تَقدَّمَ أنَّ بَشّارًا – وإنْ كانَ فاقدًا للبَصرِ– رَكِبَ مَركبَ النَّقصِ النَّفسيِّ فَعوّضَ، ولِذَلِكَ جاءَتِ الصّوَرُ البَصريَّةُ في شِعرِهِ غَزيرةً مُتألّقةً، والحَقيقةُ أنَّهُ أحسَنَ التَّعويضَ، ووَصَفَ ففاقَ المُبصِرينَ في أوصافِهِ.

هشام دقاق

خَيْرُ الوَرَى

ذَكَرْتُ خَيْرَ الوَرَى فِي بَدْءِ إِنْشادِي	فَكَانَ أُنْسِي بِهِ عُنْوَانَ إِسْعَادِي
وكَيْفَ يَشْقَى امْرُؤٌ قَدْ بَاتَ مُمْتَدِحًا	خِصَالَهُ الغُرَّ تَرْوِي غُلَّةَ الصَّادِي
هُوَ الشَّفِيعُ الرَّفِيعُ القَدْرِ سَيِّدُنَا	مُحَمَّدٌ بَاذِلُ المَعْرُوفِ وَالزَّادِ
الصَّادِقُ الوَعْدِ وَالمَبْعُوثُ مِنْ مُضَرٍ	أَحْيَا بِهِ اللّٰهُ أَرْضًا ذَاتَ إِصْلادِ
أَمْسَتْ شَمَائِلُهُ اللاتِي اسْتَضَأْتُ بِها	مَعَالِمَ الخَيْرِ فِيهَا كُلُّ إِرْشَادِ
يا حَبَّذا المُجْتَبَى طَابَتْ أَرُومَتُهُ	وَحَبَّذَا صَاحِبُ المِعْرَاجِ وَالهَادِي
كَمْ أَوْقَدَتْ دَعْوَةُ المُخْتَارِ مِنْ أَمَلٍ	وَأَخْمَدَتْ مِنْ شُرُورٍ أَيَّ إِخْمَادِ
نَبِيُّنا الثَّبْتُ مِفْتَاحُ الحَضَارَةِ لا	مَا يَدَّعِيهِ أُولُو إِفْكٍ وَأَحْقَادِ
مَحَا سَنَاهُ جَهَالاتٍ وَهَرْطَقَةً	وَحَصْحَصَ الحَقُّ فِي «هُودٍ» وَفِي «صَادِ»
قَدْ جَاءَ بِالشِّرعَةِ الغَرَّاءِ مُشْرِقَةً	ذُكَاؤُهَا وَبِنَهْجٍ غَيْرِ مُنْآدِ
عَفُّ اللِّسَانِ ضَحُوكُ السِّنِّ مُنْبَلِجٌ	وَلا يَهَابُ لِقَاءَ الصَّائِلِ العَادِي
اِسْتَبْشَرَ الكَوْنُ مَسْرُورًا بِمَوْلِدِهِ	وَاسْتُلَّ سَيْفُ الهُدَى مِنْ بَعْدِ إِغْمَادِ
وَالمُعْجِزَاتُ تَوَالَتْ عِنْدَ بِعْثَتِهِ	فِي النَّجْدِ وَالغَوْرِ وَالبَطْحَاءِ وَالوَادِي
وَاهْتَزَّ إِيوَانُ كِسْرَى فَهْوَ مُنْصَدِعٌ	وَقَيْصَرُ الرُّومِ فِي هَمٍّ وَتَسْهَادِ
يَا صَاحِبَ الحَوْضِ إِنَّ اللّٰهَ أَيَّدَكُمْ	بِنَصْرِهِ وَكَسَاكُمْ ثَوْبَ إِمْدَادِ
شَاهَدْتُ بَعْدَ انْقِشَاعِ الغَيْمِ عَنْ بَصَرِي	أَنْوَارَ طَلْعَتِكُمْ فِي حُسْنِهَا البَادِي
يَا مَا أُمَيْلِحَ مَرْآهَا إِذا طَرَقَتْ	أَطْيَافُهَا سَحَرًا مِنْ غَيْرِ مِيعَادِ
يَا بَهْجَةَ القَلْبِ هَلْ يَضْنَى مُيَمِّمُكُمْ	صَلَّى عَلَيْكُمْ بِأَذْكَارٍ وَأَوْرَادِ؟
شُغِفْتُ حُبًّا بِمَا تَحْوِيهِ سِيرَتُكُمْ	مِنَ النَّفَائِسِ فِي مَتْنٍ وَإِسْنَادِ
قَضَيْتُ شَرْخَ شَبَابِي فِي حَدائِقِهَا	وَكَيْفَ يَشْبَعُ مِنْهَا الرَّائِحُ الغَادِي
ذِكْرَاكُمُ اليَوْمَ أَصْداءٌ مُرَجَّعَةٌ	يَشْدُو بِهَا الشَّاعِرُ المَطْبُوعُ فِي النَّادِي
فَلَوْ خَطَطْتُ اسْمَكُمْ فِي رُقْعَةٍ لَأَتَتْ	إِلَيْهِ حَبْوًا وَشَوْقًا أَحْرُفُ الضَّادِ
وَانْظُرْ تَرَ النَّسْخَ وَالتَّعْلِيقَ قَدْ كَتَبَا:	«مُحَمَّدٌ طِبُّ أَرْوَاحٍ وَأَجْسَادِ»
أَمَّا الزَّخَارِفُ فِي الطُّغْرَاءِ فَهْيَ بِكُمْ	حَفِيَّةٌ قَدْ أُعِدَّتْ خَيْرَ إِعْدَادِ
كُلُّ الوُجُودِ رَسُولَ اللّٰهِ يَسْأَلُكُمْ	لُقْيَاكُمُ وَالهَوَى ثَاوٍ بِأَكْبَادِ
يَا أَكْرَمَ النَّاسِ قَدْ أَوْدَتْ بِنَا فِتَنٌ	مُلْتَاثَةٌ فَغَدَوْنَا رَهْنَ أَصْفَادِ
لَوْ كُنْتَ فِي عَصْرِنَا حَيًّا لَمَا اخْتُرِقَتْ	حُصُونُنَا وَلَصِرْنَا خَيْرَ أَجْنَادِ
أَفْدِيكَ بِالنَّفْسِ وَالأَهْلِينَ قَاطِبَةً	وَكُلِّ مَا مَلَكَتْ كَفِّي وَأَوْلادِي
سَمَوْتَ كَالبَدْرِ فِي العَلْيَاءِ مُرْتَفِعًا	وَنُورُكَ المُجْتَلَى دَانٍ لِقُصَّادِ
صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهُ العَرْشِ مَا هَطَلَتْ	عَلَى الرُّبَى ذَاتُ إِبْرَاقٍ وَإِرْعَادِ

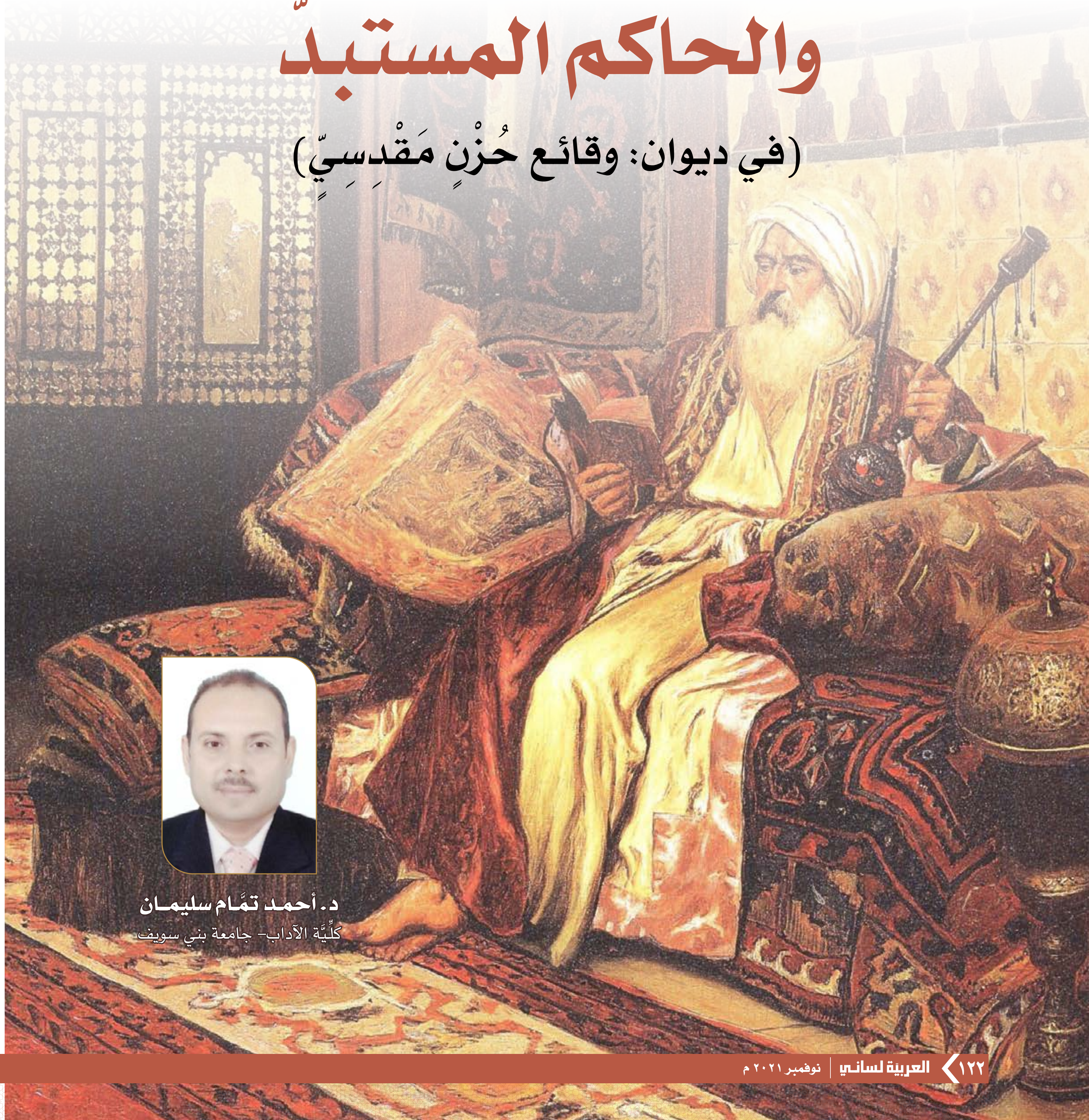

الشَّاعر المتمرِّد والحاكم المستبدُّ

(في ديوان: وقائع حُزْنٍ مَقْدِسِيٍّ)

د. أحمد تمّام سليمان
كلِّيَّة الآداب- جامعة بني سويف

التَّمهيد: في صحبة الشَّاعر:

الشَّاعر عمر غراب شاعرٌ مصريُّ الجنسيَّة، من مواليد مدينة أُوسِيمَ بالسَّادس من أكتوبر بمحافظة الجيزة، يعمل مهندسًا معماريًّا، وعضو اتِّحاد كُتَّاب مصر، وأتيليه القاهرة، وجمعيَّة مدادٍ وأقلامٍ، والجمعيَّة العربيَّة للثَّقافة والإعلام، وجمعيَّة فناني وكُتَّاب وإعلاميِّ الجيزة، ورئيس نادي أدب أُوسِيمَ ونادي الأدب المركزيِّ للجيزة سابقًا، وعضو هيئة تحرير مجلَّة «الكرمة» سابقًا، ورئيس القسم الأدبيِّ بـ«جريدة النِّيل» و«جريدة مصر» سابقًا، وهو صاحب ديوان »وقائع حُزْنٍ مَقْدِسِيّ».

ونُشرَتْ قصائده في جرائد: الأخبار والأهرام والجمهوريَّة والمساء والوفد والشَّعب والأحرار والملتقى الدَّوليِّ واللِّواء اللِّبنانيِّ والمدينة المنوَّرة، وفي مجلَّات: الهلال والشِّعر والثَّقافة الجديدة والأدباء وضادٍ والمحيط الثَّقافيِّ والجديد وأرض السَّلام والمهندسين. وأُذيعَتْ أعماله في القناة الأولى بالتِّليفزيون المصريِّ وقناة النِّيل الثَّقافيَّة، وبإذاعات: البرنامج الثَّقافيِّ وصوت العرب والشَّرق الأوسط والقسم العربيِّ بالإذاعة البريطانيَّة.

وللشَّاعر عمر غراب عدَّة دواوينَ، هي: «عطر النَّغم الأخضر» صدر عن مركز الحضارة العربيَّة- القاهرة ١٩٩١م، و«زمان الرَّوعة الأولى» عن مكتبة الآداب- القاهرة ١٩٩٢م، و«النَّفي إلى اللَّيل» عن مكتبة الآداب- القاهرة ١٩٩٤م، و«اعتقال المدى» طبعته الأولى عن الهيئة العامَّة لقصور الثَّقافة- القاهرة ٢٠٠١م، وطبعته الثَّانية عن مركز الحضارة العربيَّة- القاهرة ٢٠٠١م، و«صباح الفراشات» عن الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب- القاهرة (سلسلة: الإبداع الشِّعريُّ المعاصر) ٢٠٠٥م، و«وقائع حُزْنٍ مَقْدِسِيّ»، عن الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب- القاهرة ٢٠١٧م، وأسهم في ديوانيْنِ مشتركيْنِ مع شعراءَ عربٍ ومصريِّين.

وكتب عن تجربته الشِّعريَّة كلٌّ من: (ألفبائيًّا) الدَّكاترة؛ جمال عبد النَّاصر، وصلاح السِّرويّ، وعبد الرَّحيم الجمل، وعبد العزيز شرف، وعبد المنعم تلِّيمة، وعوض الغُبَاريّ، وفتحي عبد الفتَّاح، وقطب عبد العزيز، ومدحت الجيَّار، ومصطفى عبد الغنيّ، وهاني السِّيسي، ويسري العزب. والأساتذة؛ ثروت أباظة، وحزيِّن عمر، وربيع مفتاح، وصبري موسى، وعبد الحسيب الخنانيّ، وعبد الفتَّاح الباروديّ، وعبد المنعم شلبيّ، وعدلي فهيم، وفتحي سلامة، ولوسي يعقوب، ومأمون غريب، ومحمَّد التِّهاميّ، ومحمَّد سليم غيث، ومحمَّد العزب موسى، ومحمَّد الفارس، ومصطفى أمين، وندى عماد خليل، وياسر قَطَامِشْ.

وأعدَّ الدُّكتور أمجد ريَّان دراسةً عن مجمل أعماله بعنوان: «تبادلات الذَّات والواقع: عمر غراب نموذجًا»، وأفرد الدُّكتور حسام عقل له بابًا بعنوان: «الدِّلالة الْمُرْجَأَةُ عند عمر غراب» في كتابه «مخاضات الخطاب الشِّعريِّ المعاصر». وأشار إليه: «معجم البابطين للشُّعراء العرب المعاصرين»، طبعته الثَّانية الصَّادرة عن مؤسَّسة البابطين في الكويت، و«دليل الكُتَّاب» الصَّادر عن اتِّحاد كُتَّاب مصر، و«دليل الأدباء» الصَّادر عن الهيئة العامَّة لقصور الثَّقافة، و«معجم شعراء القرن العشرين» للدُّكتور يوسف نوفل.

الدِّراسة: في معيَّة الدِّيوان:

ديوان «وقائع حُزْنٍ مَقْدِسِيّ» من الشِّعر العموديِّ وشعر التَّفعيلة، وعن اللُّغة بوصفها المادَّة الأوليَّة للشِّعر فلغته صحيحةٌ رائقةٌ، وعن العناوين بوصفها أولى عتبات النَّصِّ فعناوينه دالَّةٌ منتقاةٌ، مثل: «صَهْوَةُ المستحيل- حفل اعتزال الطَّواويس- بَوْحُ الياسمين- احتضار شجنٍ- وردةٌ من نارٍ»، ويمتاز بالصُّور الفنِّيَّة، فأجود بلاغيَّاته البيان، وأجود بيانه التَّشبيه، وقديمًا وضع أبو الحسن جمال الدِّين: عليُّ بن ظافر بن حسين الْأَزْدِيُّ الْخَزْرَجِيُّ، الشَّهير بـ«ابن ظافرٍ الْأَزْدِيِّ» (٥٦٧هـ/ ١١٧١م- ٦١٣هـ/ ١٢١٦م)، كتابه «غرائب التَّنبيهات على عجائب التَّشبيهات»؛ لينبِّه من خلاله إلى ابتكار الصُّورة البيانيَّة كمعيارٍ للجودة البلاغيَّة.

فمن التَّشبيهات المبتكَرة كمناط إجادةٍ واستحسانٍ لدى الشَّاعر عمر غراب، لاسيَّما في قصيدة «وقائع حُزْنٍ مَقْدِسِيّ» الَّتي جعلها عنوان الدِّيوان بتمامه، قوله(١):

وَنَثَرْتُ مِنْ قَلْبِي عَلَى أَعْطَافِهَا
مَخْبُوءَ أَسْرَارِي وَذَوْبَ حَيَاتِي
حَاوَرْتُهَا فَجْرًا وَحَارَتْ نَفْسُهَا

---

(١) ديوان «وقائع حُزْنٍ مَقْدِسِيّ»: الشَّاعر عمر غراب، طبعة الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة- مصر، ط١، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م، قصيدة «وقائع حُزْنٍ مَقْدِسِيّ»، ص٢٧.

وَرَنَتْ حَدَائِقُهَا إِلَى نَزَوَاتِي
اللَّيْلُ يَسْكُنُهَا وَيَعْشَقُ صَوْتَهَا
وَضَرَاوَةُ الْإِيقَاعِ فِي نَبَرَاتِي
غَارَتْ ضَفَائِرُهَا عَلَى خِلْجَانِهَا
وَمَشَتْ شَوَارِعُهَا إِلَى غَزَوَاتِي

وقد يخرج الاستفهام من الحقيقة إلى المجاز لأربعين وجهًا فيما قرّره بعض البلاغيّين[٢]، كأبي عبد الله شمس الدِّين؛ محمَّد بن أبي بكر بن حريزٍ الزَّرعيِّ، الشَّهير بـ«ابن قيِّم الجوزيَّة» (٦٩١هـ/ ١٢٩٢م- ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، في كتابه «الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان»، ويكون الاستفهام الحقيقيُّ بطلب الفهم لشيءٍ لم يتقدَّم للمتكلِّم به علمٌ حتَّى يحصل له.

وقد يخرج الاستفهام عن حقيقته إلى المجاز، فيكون استفهام المتكلِّم العالِم بالشَّيء؛ لأغراضٍ بلاغيَّةٍ هي: الإثبات، والإخبار، والاستبطاء، والاستبعاد، والاسترشاد، والافتخار، والاكتفاء، والأمر، والإنكار، والإياس، والإيناس، والتَّأكيد، والتَّبكيت، والتَّجاهُل، والتَّحذير، والتَّحضيض، والتَّحقير، والتَّذكير، والتَّرغيب، والتَّسهيل (أو التَّخفيف)، والتَّسوية، والتَّشويق، والتَّعجُّب (أو التَّعجيب)، والتَّعظيم، والتَّفجُّع، والتَّفخيم، والتَّقرير، والتَّكثير، والتَّمنِّي، والتَّنبيه، والتَّهديد، والتَّهكُّم (أو الاستهزاء)، والتَّهويل (أو التَّخويف)، والتَّوبيخ (أو التَّقريع)، والدُّعاء، والعتاب، والعَرْض، والنَّفي، والنَّهي، والوعيد.

ومن اللَّافت شيوع الاستفهام الإنكاريِّ في تلك التَّجربة الشِّعريَّة، ففي قصيدة «معاودة السَّير عكس الاتِّجاه» يقول الشَّاعر عمر غراب[٣]:

مِنْ قَبْلِكَ بُحْتُ بِمَرْثِيَتِي
وَالْآنَ أُوَاجِهُكَ الْإِمَا؟!
مَجْنُونٌ حُبُّكَ يَا نَهْرِي
وَلِأَيْنَ أَصِيرُ إِذَا دَامَا؟!

ومن سماته الأسلوبيَّة تكرار الاستفهام الإنكاريِّ بتركيبٍ قائم على التَّناظُر، حيث تسير الوحدة الشِّعريَّة على سطريْنِ؛ الأوَّل يبدأ بأداة الاستفهام (مَنْ)، والثَّاني يبدأ بأداة العطف (أَوْ)، ثمَّ يتكرَّر هذا الشَّكل في قصيدة «بَوْحُ الياسمين»، وكأنَّها حديث النَّفس الَّتي أَضْنَاهَا الحبُّ فَبَاحَتْ بأسراره، فيقول[٤]:

(مَنْ) عَلَّمَ الشَّوْقَ أَنْ يَهْفُو وَيَسْتَبِقُ
(أَوْ) عَوَّدَ الْحُلْمَ أَنْ يَغْفُو عَلَى صَدْرِي؟!
(مَنْ) مَدَّ لِي وَرْدَةً فِي كُلِّ ثَانِيَةٍ
(أَوْ) رَقَّ لِي مَرَّةً مِنْ غَيْرِ مَا كَدَرِ؟!
(مَنْ) صَبَّ لِي فَرْحَةً فِي كَأْسِ خَائِنَةٍ
(أَوْ) مَرَّ بِي لَمْحَةً يَرْتَادُهَا عُمْرِي؟!
(مَنْ) حَنَّ لِي خَدُّهُ حُرًّا يُبَارِحُنِي
(أَوْ) لَمَّ لِي حُرْقَةً تَرْتَاحُ مِنْ ضَجَرِي؟!

واستخدامه بعض الألفاظ الفصيحة الَّتي احتفظَتْ بها اللَّهجة العامِّيَّة، والقارئ يطالعها وكأنَّها عامِّيَّةٌ تَسَرَّبَتْ إلى الفصحى وارتقى بها الشَّاعر إلى لغة فنِّ الشِّعر، كقوله في مواضعَ متفرِّقةٍ من ديوانه[٥]:

بَيْنِي وَبَيْنَكِ قِصَّةٌ مَسْنُونَةٌ
جَيْدَاءُ (تَقْلَعُنِي) وَتَقْذِفُ خُلْوَتِي
كَمْ خَذَلْنَا الْحُرَّ فِينَا
(فَالْتَحَفْنَا) بِالسَّفِيهِ
(شَالَتْنِي) نَحْوَكَ أَذْكَارِي
وَتَعَرَّتْ نَفْسِي أَعْوَامَا
أَنَا مَنْ ضَحِكْتُ وَمَنْ بَكَيْتُ وَمَنْ أَبَى
وَرَشَقْتُ (إِزْمِيلِي) هُنَاكَ لِيَسْتَفِزَّ وَيُصْلَبَا

وهي ألفاظ: (تَقْلَعُنِي) في قصيدة «آذار لي»، و(فَالْتَحَفْنَا) في قصيدة «منحنى الموت»، و(شَالَتْنِي) في قصيدة «معاودة السَّير عكس الاتِّجاه»، و(إِزْمِيلِي) في قصيدة «اكتمال الغروب»... وغيرها، وكلُّها مفهومةٌ سياقيًّا.

ويمكن أن نقسِّم الدِّيوان إلى عدَّة حقولٍ دلاليَّةٍ، أهمُّها -من وجهة نظري- حقلان؛ الأوَّل عن شعبٍ متمرِّدٍ وحكمٍ مستبدٍّ، الثَّاني عن حبٍّ فَعَلَ فِعْلَهُ في نفس الشَّاعر فَأَلْهَمَهَا، وكأنَّ الغزل

(٢) كتاب «الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان»: ابن قيِّم الجوزيَّة (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، طبعة مكتبة المتنبِّي، القاهرة- مصر، ط١، (د.ت)، ص١٧٨ وما بعدها.
(٣) قصيدة «معاودة السَّير عكس الاتِّجاه»: ص٤٤.
(٤) قصيدة «بَوْحُ الياسمين»: ص٤٥.
(٥) قصيدة «آذار لي»: ص٣٧، وقصيدة «منحنى الموت»، وقصيدة «معاودة السَّير عكس الاتِّجاه»: ص٤٣، وقصيدة «اكتمال الغروب»: ص٨٠.

هو استراحة المحارب في ساحة المجابهة، وفي تواشُجٍ بين الحقليْنِ يجعل الشَّاعر من الوطن حبيبةً، ففي قصيدة «انتحار الجنون» يقول[٦]:

أَفْتَدِيهَا مُكَلَّلَةْ/ وَالْفَرَادِيسُ مِقْصَلَةْ
مِصْرُ أَمْلَتْ نِدَاءَهَا/ فَالتَّوَابِيتُ قُنْبُلَةْ
مِصْرُ عَاشَتْ وَلَمْ تَزَلْ/ فِتْنَةَ الْحُبِّ وَالْوَلَهْ
يَشْتَهِيهَا صُعُودُهَا/ فَالْأَمَانِي مُغَلَّلَةْ

وفي قصيدة «احتضار شجنٍ» يهاجم الشَّاعرُ المتمرِّدُ الحاكمَ المستبدَّ، ويدافع عن الوطن السَّلِيب، وكأنَّه يتمثَّل روح أبي الطَّيِّب المتنبِّيِّ؛ أحمد بن الحسين بن عبد الصَّمد الْجُعْفِيِّ الْكِنْدِيِّ الْكُوفِيِّ (٣٠٣هـ/ ٩١٥م- ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، الَّذي صحب سيف الدَّولة الحمدانيَّ؛ عليَّ بن أبي الهيجاء بن حمدان التَّغلبيَّ (٣٠٣هـ/ ٩١٥م- ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م)، وبسبب وِشَايَاتِ الحسَّاد فسدَتِ الآصرة بينهما فرحل عنه، ولمَّا قدم مصرَ مدح حاكمها آمِلًا نَوَالَهُ، فلم يظفر بالقرب أو المنصب فهجاه، وكان حاكمها آنذاك أبا الْمِسْكِ كافور الْإِخْشِيدِيَّ (٢٩٢هـ/ ٩٠٥م- ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م)، الحاكم الرَّابع للدَّولة الإخشيديَّة في مصرَ والشَّام، وكان من رقيق الحبشة، ودام حكمه ثلاثًا وعشرين سنةً.

واستعمل المتنبِّيُّ أسلوب التَّورية في التَّعبير عن وضاعة الحاكم وخساسة أصله، فشبَّهه بالعبد الَّذي لم تَطِبْ أَرُومَتُهُ، ففي بعض أبيات هجائه من قصيدته «لا تَشْتَرِ العبد»، يستكثر من ذكر لفظة (العبد) صراحةً؛ تعريفًا وتنكيرًا، إفرادًا وجمعًا، فضلًا عن التَّصريح والتَّلميح في تقاليبها اللُّغويَّة، فيقول[٧]:

أَكُلَّمَا اغْتَالَ (عَبْدُ) السُّوءِ سَيِّدَهُ
أَوْ خَانَهُ فَلَهُ فِي مِصْرَ تَمْهِيدُ؟!
صَارَ الْخَصِيُّ إِمَامَ الْآبِقِينَ بِهَا
فَالْحُرُّ مُسْتَعْبَدٌ (وَالْعَبْدُ) مَعْبُودُ
نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصْرَ عَنْ ثَعَالِبِهَا
فَقَدْ بَشِمْنَ وَمَا تَفْنَى الْعَنَاقِيدُ
(الْعَبْدُ) لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ

الشَّاعر عمر غراب

لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيَابِ الْحُرِّ مَوْلُودُ
لَا تَشْتَرِ (الْعَبْدَ) إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ
إِنَّ (الْعَبِيدَ) لَأَنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ
مَا كُنْتُ أَحْسَبُنِي أَحْيَا إِلَى زَمَنٍ
يُسِيءُ بِي فِيهِ (عَبْدٌ) وَهْوَ مَحْمُودُ
مَنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْمَخْصِيَّ مَكْرُمَةً
أَقَوْمُهُ الْبِيضُ أَمْ آبَاؤُهُ الصِّيدُ؟!
وَذَاكَ أَنَّ الْفُحُولَ الْبِيضَ عَاجِزَةٌ
عَنِ الْجَمِيلِ فَكَيْفَ الْخِصْيَةُ السُّودُ؟!

ثمَّ يحاول الشَّاعر عمر غراب أن يَصُكَّ أشطرًا من أبياته لتسير في النَّاس مَسِيرَ المَثَل، فيقول: «السَّجْنُ فِي عَهْدِ الْبَلَاءِ بَرَاءَةٌ»، مستلهمًا الحوار القرآنيَّ بين نبيِّ الله يوسف -عليه السَّلام- وامرأة العزيز: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة يوسف: الآيتان ٣٢- ٣٣].

ويقول الشَّاعر: «يَارَبِّ أَمْرُكَ فِي الْمَمَالِكِ نَافِذٌ»، مستلهمًا قول الله -تعالى-: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(٦) قصيدة «انتحار الجنون»: ص٧.
(٧) ديوان المتنبِّي: الشَّاعر أبو الطَّيِّب المتنبِّي (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، طبعة دار بيروت، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، قصيدة «لا تَشْتَرِ العبد»، ص٥٠٦- ٥٠٨.

وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[سورة الأعراف: الآية ٥٤] وليس مستغرَبًا أن يكون الشَّاعر لسان حال عامَّة النَّاس وخاصَّتهم، فليس أفصح من شاعرٍ يَسْبِرُ أَغْوَارَ النَّفس ليعبِّر عن آمالها وآلامها، وأفراحها وأتراحها، وانتصاراتها وانكساراتها، بأرقِّ لفظةٍ وأعمق فكرةٍ، فالإنسان يشعر والشَّاعر يعبِّر، أليس الشُّعراء أمراء الكلام يوجِّهونه أنَّى شاءوا؟!

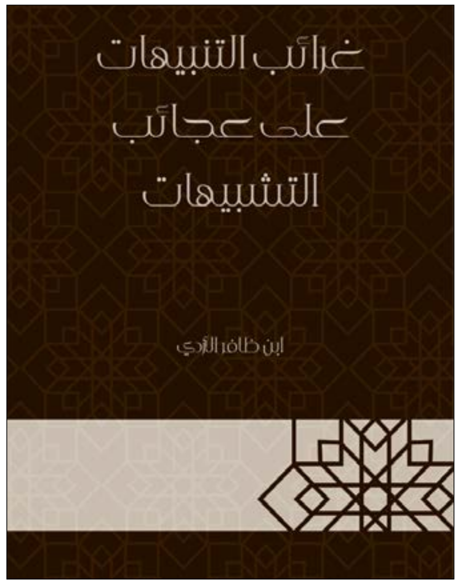

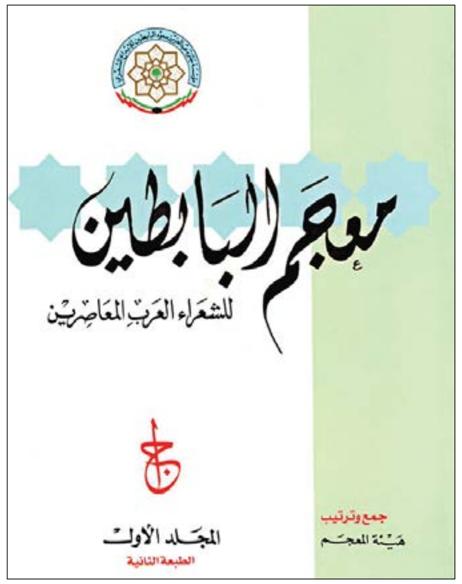

ولعلَّ من أهمِّ ملامح البصمة الأسلوبيَّة لشاعرٍ ما، هي أن تنصبَّ تراكيبه ودلالاته على عباراتٍ مَسْكُوكَةٍ تعبِّر عن مَشْرَبِهِ الَّذي ينماز به عن غيره، حيث يبلور من خلاله أفكاره وآراءه، ومنها في قصيدة «انتحار الجنون» قوله(٨):

آخِرُ الْعِشْقِ مَصْرَعٌ/ كَيْفَ تَنْسَوْنَ أَوَّلَهْ؟!

وفي فلسفته تجاه عصره الَّذي يُعَايِنُهُ وَيُعَانِيه، وفيما لا يخلو من إسقاطٍ! في قصيدة «حفل اعتزال الطَّواويس» يقول(٩):

فَهَذِي الْمَمَالِيكُ تَظْمَا اخْتِيَالًا بِوَهْمٍ كَرِيهْ
زَهَوْنَا بِعَصْرِ سَبَايَا الرِّجَالِ وَأَلْفِ شَبِيهْ
غَدَوْنَا نَبِيعُ الْجَلَالَ الْقَدِيمَ فَمَنْ يَشْتَرِيهْ؟!
وَمَنْ لَمْ يُعَانِ اسْتِبَاقَ الظَّلَامِ فَسَوْفَ يَلِيهْ

وروح التَّمرُّد الَّتي تَلَبَّسَتِ الشَّاعر عمر غراب، هي ذاتها الَّتي صَدَرَتْ عنها أرواح شعراء جمعوا بين جُمُوحِ الرَّفض وَتُؤَدَةِ الرِّضا، كالشَّاعر المعاصر له فاروق جويدة، الَّذي جعل الموت في إهدار الكرامة وانتهاك الحرِّيَّة وتقييد الرَّأي، ففي قصيدته «بائع الأحلام» يخاطب بني قومه –من أبياتٍ متفرِّقةٍ– قائلًا(١٠):

مَازِلْتُ أَسْأَلُ: هل تُرَى
حَفَرُوا الْقُبُورَ لِيَدْفِنُوا الْمَوْتَى أَمِ الْأَحْيَاءْ؟!
قُومُوا مِنْ مَقَابِرِكُمْ وَثُورُوا..
أَحْرِقُوا الْأَكْفَانَ فِي وَجْهِ الطُّغَاةْ!
مَازِلْتُ أَرْفُضُ أَنْ أَمُوتَ الْيَوْمَ حَيًّا
كُلُّنَا مَوْتَى.. وَلَيْسَ الْآنَ لِلْمَوْتَى حَيَاةْ
وَلْتَحْفُرُوا قَبْرِي عَمِيقًا.. وَادْفِنُونِي وَاقِفًا
حَتَّى أَظَلَّ أَصِيحُ بَيْنَ النَّاسِ: لَا تَحْنُوا الْجِبَاةْ
مُوتُوا وُقُوفًا.. لَا تَمُوتُوا تَحْتَ أَقْدَامِ الطُّغَاةْ!

وممَّا قد يُعاب على الشَّاعر عمر غراب غلبة الطَّابع الوعظيِّ المباشر، كما في قصيدة «احتضار شجنٍ»، ففي لغةٍ تقريريَّةٍ تَنْأَى عن الخيال والمجاز يقول(١١):

يَا أَيُّهَا الْمَفْتُونُ يَوْمُكَ قَادِمُ
لِتَرَى سُرَاةَ الْغِشِّ قَدْ خَذَلُوكَا

وعند تَفَرُّسِ أسلوبه لا يخفى استلهامه من تراثه الأدبيِّ، ففي خطابه التَّحذيريِّ للحاكم المستبدِّ: «يَوْمُكَ قَادِمٌ»، يتلاقى مع المَثَل العربيِّ: «لِكُلِّ ظَالِمٍ نِهَايَةٌ»، وهي سُنَّةُ الله في خلقه فالأيَّام دُوَلٌ، ويقول الله –تعالى–: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٠]، وتبدو حسن الخاتمة في تذييل الآية بأنَّ الله ينهى عن الظُّلم ولا يحبُّ الظَّالمين، ومقرِّرًا في موضعٍ آخَرَ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [سورة البروج: الآية ١٢].

كما ورد على لسان نبيِّ الله هودٍ –عليه السَّلام– ناعيًا على قومه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [سورة الشُّعراء: الآيات ١٢٨– ١٣٠]، كذلك حذَّر الشَّاعر في تَتِمَّةِ البيت من سوء العاقبة لاسيَّما للبطانة، متقاطعًا مع المَثَل العربيِّ: «الظُّلْمُ آخِرُ مُدَّةِ الْقَوْمِ»، كما تقرَّر أنَّ الله –تعالى– ينصر الدَّولة العادلة وإن كانت كافرةً، وقياسًا بالخُلْف فإنَّه يهزم الدَّولة الظَّالمة وإن كانت مؤمنةً؛ لأنَّ «الْعَدْلَ أَسَاسُ الْمُلْكِ».

ورغم المباشَرة المعيبة فالشَّاعر يحاول استخلاص الحكمة، باستلهامها من أحداث زمانه الَّذي يحياه، وتقريرها في شعره الَّذي ينظمه، وكأنَّه يسجِّل موقفًا مشرِّفًا في وجه الحكَّام المستبدِّين، ففي قصيدة «احتضار شجنٍ» يقول(١٢):

وَرَكَعْتَ تَطْلُبُ رَحْمَةً مِنْ غَادِرٍ
وَيَسُوقُ حُرَّاسُ الْكِلَابِ مُلُوكَا
صَعَدَتْ أَشْبَاهُ الرِّجَالِ رُءُوسَنَا
لَا تَعْجَبَنْ أَسًى إِذَا صَلَبُوكَا

وهي رسالة استنكارٍ على بطانة السُّوء، الأيدي الباطشة للحاكم المستبدِّ، كالمتزمِّتين من رجال الدِّين، الَّذين جعلوا منه أداةً لجلب المشقَّة على النَّاس، والدِّين في جوهره يدعو إلى السَّعة في التَّفكير والرَّأي، والتَّيسير في العبادات والمعاملات، كما في قواعده الأصوليَّة؛ «الْمَشَقَّةُ تَجْلِبُ التَّيْسِيرَ»، و«لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»، و«الضَّرَرُ يُزَالُ»، و«وَدَرْءُ الْمَفْسَدَةِ مُقَدَّمٌ عَلَى جَلْبِ الْمَصْلَحَةِ»، فمن أين استقى هؤلاء المتشدِّدون آراءهم الجامدة وقياساتهم الفاسدة وتأويلاتهم الْمُفْرِطَةَ؟! ولم مَجَّتْ نفوسهم العليلة نوافذ التَّنوير؟! وإلى هؤلاء أقول(١٣):

يَا مَنْ أَفْلَسْتُمْ بِالْفِكْرِ
اجْتَنِبُوا طَقْسَ الْوَثَنِيَّةْ
وَدَعُوا لِلْعَقْلِ سَاحَاتٍ
فَيَكْسِرَ قَيْدَ التَّبَعِيَّةْ
سِلَاحُ الْعَقْلِ هُوَ الْكَلِمَةْ
وَالْكَلِمَةُ تَرْعَى الثَّوْرِيَّةْ
خُلْفٌ وَوِفَاقٌ وَجْهَانِ
بِهِمَا تَسْمُو الْعَقْلِيَّةْ
مَنْ كَانَ يُحَاذِرُ بَطْشَتَهُمْ
يَتَّخِذُ الْإِيجَابَ مَطِيَّةْ
لَكِنَّ الْمُبْدِعَ وَالْمُلْهَمَ
يُخَالِفُ أُطُرَ النَّمَطِيَّةْ
يَتَعَهَّدُ بِذْرَةَ إِبْدَاعِهِ
وَخُلُقُ الْأُدَبَاءِ زَكِيَّةْ
جَدَبَتْ أَفْكَارُ النُّقَّالِ
وَعُقُولُ الْإِبْدَاعِ نَدِيَّةْ

ولعلَّ قناعاتهم الَّتي تتَّسم بضيق الأفق، والافتقار إلى المرونة، وعدم القدرة على التَّوفيق بين النَّصِّ الموروث والواقع المعيش، فجمدَتْ دماء الاجتهاد في عروقهم، وعميَتِ البصيرة عن فقه الواقع وفقه الأولويَّات وفقه المآلات وغيرها، وهو ما يمكن أن يشكِّل استبدادًا دينيًّا من شأنه أن يخلق استبدادًا سياسيًّا، فالحاكم المستبدُّ يبحث عن الْمُؤَوِّلِ الْمُغْرِضِ، والأصل أنَّ الشُّعوب تَسُوسُ أمرها بإرادتها الحرَّة، فليسَتْ قطعانَ تُساق بل تمتلك مساحتها في الاختلاف والمعارضة، فالحاكم ليس إلهًا معصومًا يُوحى إليه، بل هو بشرٌ: يصيب ويخطئ، ويحلم ويجهل، وله التَّقدير لا التَّقديس.

فديوان «وقائع حُزْنٍ مَقْدِسِيٍّ» بهذا يقدِّم رؤيةً مؤدَّاها.. يفنى الحكَّام بجورهم واستبدادهم، ويبقى الزَّمان مُنْشِدًا رسالة الشُّعراء بتمرُّدهم وحرِّيَّتهم، وإن كان الشِّعر يمثِّل رؤيةً تاريخيَّةً وشهادةً للشُّعراء فيما هو واقعٌ، فإنَّه كثيرًا ما يمثِّل رؤيةً استشرافيَّةً لما هو قادمٌ، فإن شيَّدنا صرحًا للتَّنبُّؤ بأحداث المستقبل، فسيكون شعاره: الشُّعراء قادمون!

(٨) قصيدة «انتحار الجنون»: ص٨.
(٩) قصيدة «حفل اعتزال الطَّواويس»: ص١٣.
(١٠) ديوان «لن أبيع العمر»: الشَّاعر فاروق جويدة، طبعة دار غريب، القاهرة– مصر، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، قصيدة «بائع الأحلام»، ص٢٦– ٣١.
(١١) قصيدة «احتضار شجنٍ»: ص٤٨.
(١٢) قصيدة «احتضار شجن»: ص٤٩.
(١٣) قصيدة «عقل العربيَّة الثَّائر»: د/ أحمد تمَّام سليمان.

د. مُحمَّد حرَّاث
جامِعةُ الشّلف - الجَزائِر

لَنَا عَنْ كُلِّ خِلٍّ أَلْفُ بِدْلِ

تَبَسَّمَت القَوَافِي بِالتَّجَلِّي ... وَأَنْحَى ذَا اليَرَاعُ عَلَيَّ يُدْلِي
لِيَلْحِيَ مَنْ ظَنَنَّا فِيهِ وُدًّا ... وَبَدَّلَهُ الزَّمَانُ إِلَى الأَقَلِّ
فَلاَ تُكْثِرْ لِحَبْلِ الوُدِّ شَدًّا ... فَإِنِّي إِنْ تَعِبْتُ قَطَعْتُ حَبْلِي
وَإِنِّي قَدْ أَمَرْتُ القَلْبَ فِيكُمْ ... بِأَنْ يَسْلُو عَنِ الخِلِّ المُمِلِّ
فَدَعْكَ أَيَا فُؤَادِي مِنْ خَلِيلٍ ... لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفُ شَكْلِ
وَدَعْ مَنْ بَغْتَةً يَدْنُو وَيَجْفُو ... فَخُلَّةُ ذِي المِزَاجِ حَيَاةُ ذُلِّ
فَإِنَّا إِنْ وَجَدْنَا الخِلَّ غِرًّا ... حَلُمْنَا حِلْمَ مَنْ يُرْجِي وَيُمْلِي
وَإِنَّا إِنْ وَجَدْنَا الخِلَّ مُرًّا ... تَرَكْنَاهُ وَفِي التَّرْكِ التَّحَلِّي
وَإِنَّا إِنْ فَقَدْنَا وُدَّ خِلٍّ ... لَنَا عَنْ كُلِّ خِلٍّ أَلْفُ بِدْلِ

Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

المدينة الجامعية - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة

مبنى مجمع اللغة العربية - الدور الأول

هاتف : +971 6 51 60 400 , فاكس : +971 6 51 60 410 , ص.ب : الشارقة ، 1973

البريد الإلكتروني : info@alashj.ae , الموقع الإلكتروني : www.alashj.ae

Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

مركز اللسان العربي

FREE Arabic Courses

for **Non-Arabic Speakers**
at Arabic Language Academy

CONTACT US

00971 6 516 0400 \ 00971 6 516 0401

Sharjah ,Arabic Language Academy

info@alashj.ae R.abujuhain@alashj.ae

www.alashj.ae

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

المدينة الجامعية - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة

مبنى مجمع اللغة العربية - الدور الأول

هاتف : 400 60 51 6 971+ , فاكس : 410 60 51 6 971+ , ص.ب : الشارقة ، 1973

البريد الإلكتروني : info@alashj.ae , الموقع الإلكتروني : www.alashj.ae